سيرة

الأب البار

بشارة أبو مراد

المخَلّصيّ

بقلم
الخوري قسطنطين الباشا المخَلّصي

الطبعة الثالثة
٢٠١٢

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة الكتاب

في ذات يوم سنة ١٩٢٦ مررت بصيدا فوجدت الأب بشارة خارجًا من الكنيسة عائدًا إلى غرفته ضعيفًا مهزولاً. فسلَّمت عليه وسألته: كيف حالك. فأجابني: بخير الحمد لله. لكن لم أكتفِ بهذا الجواب بل رافقته إلى غرفته لأتحقق خبره. وبعد أن دخل إليها أُحضر الحليب فتناوله كمن يشرب دواءً. فسألت عن أمره حضرة الأب ألكسيوس الشتوي جاره في غرفته الذي كان حينئذ النائب العام لمطران صيدا. فقال لي: مرض المسكين مرضًا ثقيلاً أشرف به على الموت. ولا أظن أنه يعيش طويلاً. ثم قال لي أسرع بكتابة تاريخ حياته فهو يستحق لذلك. وسيكون عملك هذا أفضل لك عند الله والناس. ولا بأس إذا كان وجيزاً في الأول. فلا بدّ أن يعاد طبعه. فتزيد عليه في الطبعات التالية ما يرد عليك من المعلومات الجديدة. فكان لكلامه وقع في نفسي اذ نبَّهني إلى أمر من أفضل ما أرغب لهذا الأب الصالح. و لم أملك من الجواب إلا قولي له: نعم. ثم قلت له ولكن لا أعلم من أمره شيئًا يروي الغليل في المدة التي قضاها في دير القمر وصيدا. فقال لي: هوّن عليك. فأنا أذهب معك إلى دير القمر والقرى المجاورة لها لاستقصاء أخباره من

أهلها. فقلت له: اكتب إذن عندك في مذكرة خاصة ما تعرفه عنه وما يصل إليك من أخباره.

وعدت إلى الأب بشارة وقلت له: إنك تعرفني أنني أهتم كثيراً بالتاريخ والبحث عن آثاره. وكل الأصحاب والمحبين يقدمون لي ما عندهم من الأوراق القديمة والكتب المخطوطة. ومع كونك تحبني لم تعطني شيئاً من هذا أصلاً. فقال لي ليس عندي شيء منها إلا ورقتين أو ثلاثة. هذه هي. ثم ناولني بعض أوراق حالما وقع نظري عليها عرفت أنها من خط يده. وإذ طالعت فيها رسالة منه إلى والده تعزية بوفاة والدته استبشرت خيرًا، وأعددتها فاتحة خير لتوفيق الله لي في عملي، وأنا على يقين بأنه لو عرف قصدي وما في هذه الأوراق لكان منعها عني. ويظهر أنه قد أهملها منذ زمان طويل حتى أنه نسي مضمونها.

ولما عرضت عزمي على سيادة الأب العام الارشمندريت أغابيوس نعّوم الذي هو اليوم مطران صور استحسَنه، ورغّبني فيه لأنه يعدُّ نفسه من تلاميذ الأب بشارة الذي حبَّب إليه الرهبانيّة والحضور إلى دير المخلّص.

وفي صيف سنة ١٩٢٧ استأذنته بالسفر إلى دير القمر والتجوّل في القرى المجاورة التي كان الأب بشارة يقوم في خدمة النفوس فيها. ثم إلى زحلة بلده التي نشأ فيها. فسمح لي وزوّدني ببعض نصائح وجدتها مفيدة لبلوغ مرادي. وقابلت في بيروت المرحوم يوسف عبد الله صهره

وسألته عمّا يعرفه عنه منذ صغره. فلم يفدني شيئًا لأنه سبق إلى وهمه أن الأب بشارة مات وإني أخفي عنه خبر موته. فقلق لذلك و لم استطع أن أستفيد منه شيئاً فتركته على أمل أن أعود إليه فيما بعد. وكان كذلك. وسافرت إلى دير القمر وقابلت فيها كثيرين عرفتهم بعزمي وسألتهم عمّا يعرفونه من أخباره وقيّدت ما أجابوني به عنه في دفتري.

ويوم السبت ذهبت إلى ضيعة بنوييتي، مِلْك الخواجات أبناء سليمان خطّار، ونزلت ضيفاً في دارهم. ويوم الأحد، أقمت القداس في الكنيسة التي شيّدوها هناك بإيعاز الأب بشارة، وقد زَيَّنَتْها والدتهم الفاضلة الكريمة بأكمل زينة. وسمعت اعترافات كثيرين من الرجال والنساء، الذين حضروا من الضّيع المجاورة لسماع القداس، على صوت الجرس الكبير في ذلك الوادي الجميل، حتى ضاقت بهم الكنيسة لكثرتهم، بل كان عدد الذين في الخارج يوازي الذين في داخلها أو أكثر، وبَانَ لي منهم تقوى بارزة، هي ثمرة أتعاب الأب بشارة الرسولية فيهم. وبعد القداس اجتمعت بهم، واستخبرتهم عما يعرفونه عن مرشدهم وكاهنهم الأب بشارة، بالصدق التام بدون مبالغة، وأَبَنْتُ لهم سوء عاقبة المديح بهذا الشأن بضياع الحقيقة. فأجابني كلّ منهم بما يعرف عنه، وقيّدت ذلك في دفتري.

ثم ذهبت إلى زحلة، وقابلت فيها كثيرين من أهله وأترابه في صباه، وأخُصّ بالذّكر منهم الشيخ الجليل سليمان أبي خالد، كبير أسرته

رحمه الله، وقد جمع في دفتر خاص، تاريخ ولادة أفراد كثيرين منهم، ووفياتهم. ثم عُدت إلى دير المخلص، وقد جمعت في رحلتي هذه، كثيرًا من المعلومات عنه وعن أسرته، ما كنت أعلم شيئًا منها فيما سلف.

وفي هذه السنة ذاتها سنة ١٩٢٧، عاد الأب بشارة إلى دير المخلص، للإقامة فيه إلى آخر حياته. فكنت أجتمع به كثيرًا، واسأله عما كنت أحتاج إلى معرفته من أحواله السالفة. وأنا أكتم عنه غرضي، ولا اظهر له إلاّ اهتمامي بالبحث عن أخبار الرهبان، رفاقه ومعلميه في المدرسة الرهبانية، لإعداد محاضراتي لتاريخ المدرسة، التي كنت ألقيها سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٢٨، وهو كان يحضرها كلها مثل سائر الرهبان، مع أنه لم يكن يحضر الاجتماعات الرهبانية إلا ما كان منها روحيًّا محضًا، في الكنيسة أو في غرفة القراءة الروحية.

وسألته مرة: هل تُسرّ بسماع محاضراتي، أم تذهب إليها لإتمام أمر الطاعة فقط؟ فقال لي: "بل أنا مبسوط جدًّا من كلامك، الله يساعدك ويقويك، ولولا المؤرخون مثلك، ما كنّا نعرف شيئًا من أخبار الآباء القديسين". فكان جوابه لي ولا سيّما كلامه الأخير كأنه وحي إليّ، أنطَقَه الله به، وبلغ صميم فؤادي.

وفيما كنت مواصلاً الكتابة بهذا الشأن، لشيوخ الرهبان رفاقه وأقاربه، ولاسيّما أخته سعدى، التي هي أكبر منه سنًّا وأقوى ذاكرة وعافية، كنت أُحاذر أن أسأله عن أمور لا يحب أن يعرفها ولا يذكرها

أحد عنه، لأنه لتواضعه، كان يكره أن يذكر الناس شيئًا عن أعماله بالخير أو بالمديح، حتى كان يظهر عليه أثر انزعاجه من ذلك، باحمرار وجهه حياءً وخجلاً. ولعظم حبي واحترامي له، كنت أتجنب ما يزعجه من هذا القبيل. وربما حَالَ هذا الاحترام، دون رغبتي بسؤالي له عن أمور خفيّة، خاصة بحياته مع الله. بل كنت أُحذّر كل من كان واقفًا على عزمي، أن لا يتكلم معه شيئًا بهذا الشأن، لئلا يزعجه.

ثم اقتضى الحال بأن ذهبت ثانية سنة ١٩٣١ إلى دير القمر، لأتحقق بعض أمور عنه بمراجعة أصحابها. فكان لي ذلك على ما أردت، وَجُلْتُ بعد ذلك بعض قرى الشوف والعرقوب، التي كان يزورها لخدمة نفوس أهاليها بعض السنين، وتحققتُ منهم أنه أبقى هناك ذكرًا صالحًا لا يزول.

وقد سمح الله بأن اشتد عليه مرضه حتى توفّاه إلى رحمته، وأنا غائب عن دير المخلص في مصر. فنزل عليّ خبر موته نزول أمر عظيم، وأسفت بوجه خاص لأني لم أتودّع منه بنظرة قبل موته، ولم أتمكن من سماع أقواله الأخيرة. وعند عودتي إلى دير المخلّص، وجدت كثيرين كانوا يتسابقون في سبيل خدمته في مرضه وسماعِ أقواله، ومشاركته بصلواته، وقد قيّدوا كل ذلك في مذكّراتهم، حتى أنهم لم يَدَعوا شيئًا منها.

وعلى أثر موته، نشر حضرة الأب الفاضل الخوري نقولا أبي هنا ب م. في جريدة البشير، في ٢٧ شباط سنة ١٩٣٠ خبر وفاته، مع وصف حفلة جنازته. ونشر في العدد الذي بعده موجز ترجمة حياته، ثم نشر في مجلة المسرة في شهر نيسان، ترجمة أوسع، ضَمَّنها كل ما عرفه عنه.

وكتب بَعْدَهُ حضرة الأب مكسيموس شتوي ب. م، كاتم أسرار سيادة الرئيس العام حينئذٍ، وكاتم أسرار غبطة البطريرك الكلي الطوبى حالياً، ترجمةً أوسع، ضمَّنها معلومات جمّة، مما عرفه عنه بذاته، ومما وجده عنه في سجلات دير المخلّص، ومما استفاده من سيادة الأب العام، وغيره من كبار الرهبان الذين صاحبوه طويلاً، ولا سيّما حضرة الأب الايكونوموس ملاتيوس خوري ب. م، الذي قضى معه في دير القمر قدر ربع قرن. وأرسل هذه الترجمة إلى رسالة قلب يسوع، إجابة لطلب مديرها حينئذٍ الأب روفائيل نخله اليسوعي، إلاّ أن هذا اقتضبها، ونشرها في تموز سنة١٩٣٠، فكان لها مع ذلك وقع جميل في نفوس كل من طالعها، وقد تكرّم علينا الأب مكسيموس بالأصل، مع ما كتبه له الأب ملاتيوس خوري.

فكان إذاً بعزمي، أن أنشر له ترجمة موجزة بعد موته، أُتْبِعُها بمطوّلة. لكن سبقني إلى هذا أصحاب الفضل والهمّة المقدّم ذكرهم، فخففوا عني مؤونة هذا العمل. بل ساعدوني مساعدة جلّى على إتمام

عملي، بما قدّموه لي من ثمار اجتهادهم وبحثهم، فكان لهم عليّ بذلك حقُ الشكر الواجب، لكل سابق ولكل متفضل.

وبعد هذا أخذت بمطالعة ما كتبه المذكورون، وما كتبه لي غيرُهم، وهم كثيرون لا يسعني هنا ذكرهم كلهم وشكرهم. ثم عدت إلى مطالعة ما جمعته من المعلومات الجمّة بهذا الشأن في مذكّراتي، مما استفدته من أصحابه وأترابه وأقاربه، بمشافهتي لهم بأسفاري، أو بمراسلاتي لهم، وما أحفظه في ذهني وقلبي عنه، من التذكارات الخاصة التي لا سبيل إلى نسيانها مهما طالت الأيام. إذ قضيت معه في المدرسة ست سنوات، على اتصال تام، كان مدرّسي وناظري ومرشدي الروحي، ثم قضيت معه في دير المخلص في المدة الأخيرة من حياته ثلاث سنوات، كان فيها معلّم اعترافي. كنت أتلطف معه بالسؤال عن أمور كثيرة، من أحواله وأعماله كما سبق، وعدت أراجع هذه المعلومات، وأقابلها مع بعضها بالدرس الشافي وأراجع أصحابها، لإيضاح ما فيها من الإشكال، لتحقيقها وتحرّي الصحيح منها. ثم عمدت إلى تأليفها وترتيبها مع بعضها، وتحريرها في هذا الكتاب، بالتدقيق الواجب لشأن صاحبه، وأنا أقرّ صريحًا بأنه دُونَ قدره، إذ بقي كثير من مطاوي حياته خفياً، لم تبلغ إليه معرفتي، وقد دَقّ علي الوصول إليه، مع بذل جهدي في هذا السبيل، لأنه كان في حياته شديد التكتّم بأعماله الصالحة، ليخفيها عن نظر الناس لتكون خالصة لوجه الله، ولا يَشُوبها غرض بشري أصلاً.

وإذ أنعم الله على هذا الأب السعيد، بأن يعيش في بيئة صالحة، من خيار الناس، منذ صباه إلى آخر نفس من حياته، مثل والديه ورؤسائه ومعلميه ورفاقه وأصحابه، الذين كان لهم معه شأن مهمّ في حياته، ومشاركة في بعض أعماله، لم يكن لنا بدّ من ذكرهم معه بأسمائهم وأعمالهم، كما شاءت عناية الله، وهم بمقام هالة جميلة، تزدان بهم صورته جمالاً، وتزداد ترجمة حياته وضوحاً وكمالاً.

وأنا أرجو أن لا يظن أحد من القراء، أني لمحبتي لهذا الأب الصالح، تجاوزت الحقيقة بكلامي، وبالغت كثيرًا بذكر محامده وفضائله. نعم إني أحببته من أول عهدي به، محبة صادقة، مقرونة بالاحترام لفضله، وفضائله الفائقة، التي توجب الاحترام لصاحبها. وأرى نفسي أني لا أزال على ذلك، ما شاء الله. بل زادت محبتي له، بعد موته، إخلاصًا واحترامًا على كل محبة بشرية، وهي التي حملتني على هذا العمل الشاق بشوق ورغبة، للتقرب إليه تعالى بواسطة وليّه، الذي سبق فأَحبه حبًّا فائقًا، إذ اختصه بفضل عظيم من نعمه. وأنا أعلم والمطالع يعلم أيضًا، أن الحب لا يكون صادقاً وخالصاً لوجه الله ولائقًا به تعالى، إذا كان مشوباً بشيء من الكذب، أو كان صاحبه يمزج الحق بالباطل، تمويهاً وتغريراً. وهو افتراء الكذب على الله وقديسيه، وهو من شر أنواع الكفر.

وأعلم أيضا، أن آفةَ تاريخ رجال الله تَسرُّبُ الشكّ إلى النفوس بصحة أعمالهم الخارقة، وحمل الكلام فيها على المبالغة. وحذرًا من هذا كله، جعلت التدقيق والتحقيق دأبي في بحثي كله، لتحرير هذا الكتاب من كل وصمة، لئلا يتسرب إليه شيء مما يُعاب به خبرٌ من أخباره، أو فصلٌ من فصوله، فيسقط، ويكون سقوط هذا الخبر أو الفصل سببًا لسقوط الكتاب برمّته، في نظره ونظر أصحابه الذين على شاكلته، ويكون تعبنا قد ذهب باطلاً، إذ لم نبلغ الغاية التي قصدنا، ولم نستفد شيئاً يوازي تعبنا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.

ولذلك لم أذكر فيه شيئاً من الجليانات، والأوحية الروحية والرؤى السماوية الخارقة، التي لا تخلو منها حياةٌ مقدسة كاملة مثل حياته، وإن لم يَبُحْ بواحدة منها لنا ولا لسوانا.

وما يُقال عنه من هذا القبيل يحتاج أيضًا إلى تحقيق، لأنه غير مألوف أو غير معروف في أعماله. ونخشى، إن ذَكَرْنا منها شيئًا، أن يُعاب كتابنا بانتقاد، نروم أن يكون بعيدًا عنه، بل نريد أن يكون فوق كل انتقاد معقول.

وبناءً على ما تقدم، قد طرحت بعض أخبار بلغتني عنه، وجدتُها غريبة غير مألوفة أو سخيفة الرواية، إذ لم أتحقق صحتها، وأصلحتُ بعض الروايات السابقة، بعدما بذلت جهدي في تحقيقها. فإني مثلاً قضيت نحو شهرين أو أكثر لتحقيق سنة ميلاده، إذ رابني أن يكون وُلد

سنة ١٨٤٨ كما كتبوا عنه سابقًا، لأنني استبعدت أن يبقى في العالم ٢٦ سنة حتى يأتي إلى الدير سنة ١٨٧٤، ممّا عُرف به من التقوى وحسن التربية منذ صباه. وإذ سألت، في عداد من سألت عن هذا الأمر، حضرَة الأب الجليل الخوري ميخائيل مقصود ب . م الذي كان رفيقه في الابتداء، أشار عليّ بمراجعة سجل العماد القديم في زحلة، وحقق لي أنه سلم من حريقها سنة ١٨٦٠، إذ حمله المطران باسيليوس شاهيات عندما فرّ منها إلى كسروان. ومن ثم كلّفت بعض الآباء المخلصيين الذين في زحلة، بمراجعة السجل المذكور، ونقل تاريخ عماده وعماد إخوته. فنقلوها وأرسلوها لي. إلا أنهم لم يقفوا على اسم سليم الذي هو غاية المراد، مع أنهم حققوا لي بأنهم راجعوا السجل مرارًا أفرادًا ومجتمعين. فأزْعَجَنا هذا الأمر وأقلق بالنا كثيرًا، إذ ربما يتسرب الشك إلى عماده. وبعد مراجعات كثيرة بهذا الشأن، وجدوا المطلوب، وأرسلوا لنا نسخة عنه، بخط يد سيادة مطران زحلة كيريوس افثيميوس يواكيم وبختمه، تصرح بأن سليم بن جبور أبي مراد اعتمد في سنة ١٨٥٣.

ومن هذا القبيل أيضًا، خبر ذهاب الأب بشارة إلى دار نعوم باشا للصلاة على ابنه المريض. فإني سمعت هذا الخبر في دير القمر، سنة ١٨٩٣، من عدة أشخاص ثقات. ثم طالعتُ مثله بقلم الأب نقولا أبي هنا ب. م عن لسان الأب ملاتيوس الخوري، برواية تختلف بعض الاختلاف عما أعرفه، وعما كتبه الأب ملاتيوس نفسه بخط يده. وبعد مراجعة الأب ملاتيوس المذكور، ومراجعة الأب ملاتيوس حجار ب. م

الذي كان في دير القمر سنة ١٨٩٣ مع المرحوم الأب مخائيل الناشف، والبحث معهم بالتدقيق بهذا الشأن، تحققنا أن الحادث تكرر وقوعه مرارًا بوجوه مختلفة.

ومن هذا أيضًا، الخبر الذي رواه حضرة الأب نقولا أبي هنا، على لسان حضرة الأب بطرس فاخوري، عن ذهاب الأب بشارة إلى بيروت لإكليل ابنة أخته، وعودته بدون أن يحضر العرس، كراهة مما شاهده في حفلة العرس من زينة النساء وتبرجهن. وقد نقل عنه هذا الخبر حضرة الأب مكسيموس شتوي. فقد جاءني من حضرة صاحبة الإكليل انتقادًا على ذلك، بأنها طلبت إكليل عرسها من يد خالها، مع وجود المطران بولس أبي مراد نسيبهم، الذي كان حاضرًا العرس مع بعض الأهل، وكان لها ذلك. ولم يكن فيه غريب، ولا شيء من مظاهر الأفراح، لسبب موت والدتها في تلك السنة ١٩٢٢، ومن ثم لم يكن فيه شيء ضد الاحتشام والآداب المسيحية. وبعد التدقيق بمراجعة أهلها أفراد بيت يوسف الزحلاوي، وحضرة الخوري بطرس الفاخوري، الذي كان حينئذٍ رئيس الوكالة المخلصية في بيروت، تحققنا صدق رواية السيدة المذكورة بإكليل خالها لها حسب طلبها، لعظم اعتبارها لتقواه وقيمة بركته لإكليلها. وتحققنا أيضًا صدق رواية الأب بطرس فاخوري، عن عودة الأب بشارة من بيت أخته منزعجًا منزويًا في زاوية الكنيسة، ولم يُرد أن يتناول شيئًا من الطعام، وهو يشكو من تبرج النساء في بيروت

وطرقاتها. فظن الراوي وهمًا أن سبب شكواه هو ما شاهده من هذا في حفلة العرس.

وبهذه الأمثال كفاية لبيان ما بذلت من التدقيق والتحقيق، في تحرير هذا الكتاب. ومع هذا فإني مستعد لقبول كل ملاحظة تحقيق فيه، وأقابل صاحبها بالشكر الجزيل. ومستعد لأن أصلح كل غلط وقع مني سهواً في هذه الطبعة من كتابي، لأثبت الصواب في الطبعة الثانية منه إن شاء الله، كما أني مستعد أيضًا لأن أدحض وأنقض كل حجة باطلة.

واستشهد على صدق كلامي وصحة روايتي لأخباره، اناسًا ثقات لم يزالوا أحياءً، من بلدان وطوائف شتى، يُعدّون بالألوف، وفيهم أصحاب مقامات عالية في المجتمع الإنساني وفي الكنيسة الكاثوليكية، شهادة الواحد منهم بمقام ألف. وصرّح البعض منهم بشهادات لا تدع شكاً لمرتاب، إلا إذا أراد الإنسان أن يقهر عقله على ما يخالف الحق الواضح وكل صواب. وسننشر في ملحق خاص في آخر الكتاب، بعض رسائل، تكرموا بها لسيادة الأب العام ولهذا العاجز، وهي لا محالة تزكية لكلامنا في هذا الكتاب، وبيانًا لقدر صاحبه الأب البار.

فأنا لا أذكر له عملاً من أعماله هذه أَختصُّ بمعرفته وحدي، إذ يكون فعَلَ نظيرَه ووقَفَ عليه إنسانٌ آخر أو كثيرون، مع ما كان عليه من حب التكتّم في أعماله الخاصة، التي لا يشترك بها مع إخوانه الرهبان بعيشتهم المشتركة بقانون واحد عام. فما أذكره إذًا من أعماله، يعرفه

غيرُ واحد، وشهادتي ليست شهادة فرد. بل هي بحقيقة الواقع شهادة كثيرين، مختلفين وإن كنت آخذ على نفسي تِبعة كل ما أذكرهُ منها، سواء نَسَبْتُها إلى نفسي أو إلى غيري ممن ذَكَرتهم بأسمائهم. وهي على كل حال أعمال مألوفة منه، اعتادها مرارًا، أو جرت منه، على قاعدة واحدة ولغاية واحدة، هي محبة الله، وحب القريب لأجله تعالى.

فلم نقصد إذن بهذا الكتاب نشر أعمال وأخبار هذا الأب البار، بين إخوانه وتلاميذه وأصحابه فقط. بل نريد أن يكون مفيدًا لكل مطالع من إخواننا المسيحيين، إلى ما شاء الله، ليعلموا أنه لم يزل عزّ وجلّ في كنيسته المقدسة، وفي هذه الرهبانية المباركة، المشرّفة باسمه القدوس الذي هو ينبوع كل قداسة. ولهذا بذلت جهدي، ليكون كلامي في كتابي، أساسه الصدق والحق الثابت، الذي لا سبيل أن تهدمه نُوَب الأيام وأهواء الناس، مهما كان فيها من أسباب الغيار والفساد، مع كل قوات الجحيم، ليكون خالصاً لوجه الله تعالى، وهو خيرُ كلِ غاية وقصد.

تنبيه : يجب أن نعلن هنا، أننا بإطلاقنا عليه لقب ولي الله، وعبد الله الصالح، والبار، والقديس، وما شاكلها، لا نقصد بهذه الألفاظ سوى معناها اللغوي العام لا معناها القانوني الخاص، لأن الحكم بقداسة القديسين في الكنيسة الكاثوليكية، التي لي الفخر أن أكون أصغر أولادها الطائعين لأمرها، هو منوط برأسها الأعظم الحبر الروماني الذي هو القاضي الأعلى فيها. وله وحده الحق بالفحص عن أعمال أبناء الكنيسة، في حياتهم وبعد موتهم، ليحكم بصلاح من يكون منهم صالحًا لا غشّ فيه، يستحق أن يُقدّم له الإكرام الخاص بأولياء الله القديسين. وهو لا يبرز حكمه في قضية عظيمة الشأن، في تاريخ حياة كنيسة الله المقدسة، إلاّ بعد أن تُقَدَّم إلى ديوانه الخاص، سيرة وأعمال من يُطلَب إعلاُن قداستهم بشكل دعوى قانونية، من قِبَل أحبار الكنيسة، ذوي الأعمال الصالحة، والغيرة التامة لرفع شأن كنيسة الله وقداسة أولادها. وعليهم أن يحققوا له اولاً صدق هذه الدعوى بالبيّنات الواضحة وشهادة الشهود الثقات الصالحين بأقوالهم وأعمالهم، ويعيد بعد ذلك الفحص عنها، بذاته أو بواسطة من يثق به، فحصًا مدقّقًا كما يقتضي شأن قداسة كنيسة الله وأولادها القدّيسين.

﴿ الفصل الأول ﴾

زحلة في منتصف القرن التاسع عشر

لابد لنا من كلمة إجمالية، في أول كتابنا هذا، عن زحلة، وطن هذا الأب الفاضل، حيث وُلد ونشأ وتربّى. ولا يخلو أن تكون حالتها الاجتماعية الأدبية، قد تركت في نفسهِ أثرًا حسنًا، بواسطة أهله وأقاربه.

كانت زحلة، في منتصف القرن التاسع عشر حينما وُلد فيها الأب بشارة، قد أضحت ذات شهرة بعيدة في لبنان وكل بلاد الشام، وإن لم تكن حينئذ قد بلغت ما هي عليه اليوم، من سعة عمرانها وغنى أهلها، إذ لم يكن عدد سكانها يتجاوز عشرة آلاف نفس على التحقيق. لكن كانت تمتاز على سواها، في الدين والدنيا، بأمور كثيرة، أخصّها بأس رجالها وشجاعتهم، واتحاد كلمتهم، وخضوع الصغير منهم للكبير، والشاب للشيخ، مع كثرة عددهم واختلاف أصولهم وعشائرهم، مما لم يجتمع في بلدة سواها. وكذلك لم تكن بلدة تضاهيها بغناها وسعة تجارتها، في أسواقها الخاصة وفي الخارج أيضًا، إذ كان أهلها يضربون في طول البلاد وعرضها، للتجارة بالحبوب، من حاصلات أرض البقاع العزيز وبقاع بعلبك وحوران، وبالصناعات الوطنية الشرقية، من لبنانية ودمشقية وحمصية وحلبية، وجلب الغنم من جبل الأكراد وبَرّ الأناضول، وبيعها في أطراف لبنان ساحلاً وجبلاً، وفي بلاد صَفَد وجبل نابلس وبلاد الجليل والخليل. وكانوا منفردين بتجارة هذا الصنف كأنهم كانوا محتكرين له، في ذلك العهد الذي لم تكن فيه الطرقات آمنة على أبناء السبيل، ولم يكن يستطيع أن يسير فيها إلاّ من كان ذا بأس وشجاعة نادرة، أو كان في قافلة كبيرة من الرفاق يعتزّ بهم لصدّ كل عادية.

كان أهلها يؤلفون، مع اختلاف أصولهم وعشائرهم أو عيالهم، طائفة واحدة على مذهب الروم الكاثوليك، وهم لم يزالوا إلى اليوم أكثر عددًا فيها. وكان فيها مع ذلك قليل من الروم الأرثوذكس، واقلّ منهم الموارنة، وأقلّ من الجميع المسلمون، حتى أن مجموع أفراد هذه الطوائف كان يوازي عشر طائفة الروم الكاثوليك. وكانت قد خلت حينئذٍ من الدروز الذين كانوا فيها من قبل. وكان للروم الكاثوليك وحدهم اثنا عشر كنيسة، مع دار لمطرانهم يقيم فيها دائمًا، وكان للروم غير الكاثوليك كنيسة، وهي المعروفة اليوم بسيدة الزلزلة، وكنيسة دير اليسوعيين التي كان يتردد إليها جميع الكاثوليك، وكنيستان لرهبان الموارنة. وكان مطران زحلة حينئذ، المرحوم باسيليوس شاهيات الحلبي الأصل، غيورًا على مصالح طائفته، ومحبًا لهم ومحبوبًا ومحترمًا منهم. ولسبب نفوذ كلمته بين أبناء طائفته، كان الحكام في لبنان من الأمراء وسواهم، يعتمدون على رأيه في كل أمر يرومون إجراءَه في زحلة.

ولم يكن حينئذ في لبنان مجلس بلدي إلا في زحلة، وكان أعضاؤه شيوخ العيال الكبيرة، من ذوي الوجاهة والرأي والعقل والنفوذ، يُدعون وكلاء. وكان لمجلسهم صلاحية واسعة لإدارة أحكام البلد، فكان منهم ستة من طائفة الروم الكاثوليك، واثنان من الروم غير الكاثوليك والموارنة. ولهذا كان النصراني يسير في زحلة رافعًا رأسه، آمنًا على نفسه من ظلم الحكام وتعدي الطغاة، الذي كان يقاسيه النصارى في كل مدن الشام. ولذلك كان كثيرون يأتون إلى زحلة، من كل صوب، ويعتصمون بها. وكان الدخيل أو النزيل فيها، والحالة هذه، يُضطره الصواب وخير نفسه أن يدخل في طائفة الروم الكاثوليك، ويكون في ذمة أهلها آمنًا مطمئنًا، كأنه أصيل في البلد.

ومن أفضل ما اشتهر به أهل زحلة، وامتازوا به على سواهم رجالاً ونساء، جزيل تقواهم، وعبادتهم الخاصة لوالدة الإله سيدة النجاة وللقربان المقدس. وكان فيها أخويتان من أقدم هذه الأخويات في الشرق، إذ لم يكن لذلك العهد في هذه البلاد، سوى أخوية انتشار الإيمان في حلب، وأخوية زنار السيدة في عكا. ولم يكن يجري زياح حافل بالقربان الطاهر خارج الكنيسة إلا في زحلة، كما لم يزل هذا جاريًا إلى اليوم. إلا أنه كان يتم بأكثر خشوع وتقوى وهدوء، بدون ضوضاء ولا تشويش. وكانوا ذوي غيرة على دينهم وأهله، وعلى عرضهم وشرفهم يحمون ذمارهم ضد كل عادٍ عليهم، ويحمون ذمار من لاذ بهم ولو كان عدوًا لهم. وكانوا محاطين بكل جانب من الأكراد والعربان والمتاولة والدروز وسواهم، ممن كانوا يجاهرون لهم العداء، ويحاولون إذلالهم وخفض شأنهم. ولاسيما بعد انتصارهم العظيم على شبلي العريان وأصحابه الدروز، وانتصارهم على جيرانهم بحريق كفرسلوان وحريق بريتان.

وإذ كانوا ذوي نجدة ونخوة وكرم وإكرام لكل ضيف ونزيل، كثر القوم الذين كانوا يقصدون حمى زحلة من كل صوب، حتى من نفس لبنان، بعد الاضطرابات التي وقعت سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥، فكان الناس يفدون إليها بالعشرات والمئات، لا من عامة الناس، بل من الخاصة والأشراف، كأنها عاصمة لهم. ولذلك كان العامة يدعونها "كرسي النصارى". ومن أشهر وأشرف من فزع إليها من دمشق، المعلم عبود البحري مع أخويه جرمانوس ويوحنا، الذين كانوا كتّاب إيالة الشام، في عهد يوسف كنج باشا الذي لمحبته له عرض عليه الإسلام، ليكون له سبيلاً للترقّي بوظائف الحكومة العالية، وتشدّد بذلك كثيرًا، ولم يجد عبود سبيلاً للنجاة من هذه الشدة، إلا بالفرار من دمشق إلى زحلة، بعد

استشهاد سمعان جبور الزحلاوي سنة ١٨٠٨ بأمر الوزير المذكور. ولم يرجع عبود إلى دمشق إلا بكفالة الأمير بشير الكبير، بعد صدور الفرمان السلطاني باسمه.

ومنهم السيد يعقوب الحلياني، مطران السريان الكاثوليك في دمشق، الذي فرّ من وجه وكيل بطريرك اليعاقبة، الذي كان بيده الأمر السلطاني بالقبض على المطران المذكور وسجنه ونفيه.

ومنهم قنصل فرنسا في بيروت (Henri Guys)، وقنصلها في دمشق (Reaudin)، مع جماعتهما، عندما قام المسلمون في جميع المدن العثمانية على الإفرنج، بعد غرق الأسطول العثماني والمصري سنة ١٨٢٧ في ميناء نافارين (Navarin)، بحرب استقلال اليونان المشهورة، ونعدل عن ذكر من أتوا إلى زحلة وسكنوا فيها، ابتغاء الراحة والسلام، وصاروا من أهلها، وهم كثيرون.

ولا يتوهمن القارئ، أننا بالغنا بمحامد أهل زحلة وصلاحهم، لغرض أو عن هوس، لنظره ما هم عليه اليوم من الأحوال، التي تختلف عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، الذين كانوا لا يعرفون شيئًا من هذا التمدن الكاذب. فكل ما ذكرناه من فضائل أهلها في تلك الأيام، هو الحق والصدق بعينه. ونزيد على ما تقدم تقريرًا وتأكيدًا لذلك، أن الآباء اليسوعيين، عندما عادوا إلى الشرق صحبة المطران مكسيموس مظلوم، في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، قد استوقفت زحلة أنظارهم قبل كل شيء، وبنوا أول دير لهم بجوارها، في المعلقة (اشترته منهم الحكومة التركية وجعلته سرايا لرجالها)، ومنه كانوا ينتشرون للرسالة في قرى البقاع. وما طال الزمان حتى أقاموا في زحلة ديرًا آخر، بجوار دار المطران.

ولَّما شاع خبر حريقها سنة ١٨٦٠ وبلغ بيروت، اضطربت المدينة أيَّ اضطراب، حتى قناصل الدول الكبار، واضطرب معها كل لبنان حتى قلب كسروان. ولما بلغ هذا الخبر دمشق، سقطت نفوس النصارى، فيها وزيَّن المسلمون الأسواق، وصار الشبان منهم بفرح وعيد عام، يتغنون بمثل هذه الأغاني:

يا بطرس بَشِّرْ نخله والدروز حرقت زحلِه
هات راسك يا نصراني وأحسبْها قرصة نحلِه

﴿ الفصل الثاني ﴾

في الأهل والأقارب

وصفنا زحلة في الفصل السابق وصفًا إجماليًّا، أتينا فيه على ذكر ما عرفناه بالمطالعة والمشافهة، من محامد أهلها وفضائلهم الاجتماعية. ولابد أن يكون هذا، قد ترك في نفس الفتى، أثرًا حسنًا، انطبع في فؤاده، فكان صورة جميلة كَمُلَتْ بعناية والديه، ونعمة الله، حتى تجسمت فيه هذه الفضائل، وصرنا نشاهدها فيه على أتم ما يكون.

والواقع أن الوطن وأصحابه، ما هو في نظر الفتى الصغير، إلا أهله وأقاربه الذين عرفهم أولاً، ولم يكن له سبيل لأن يعرف سواهم. ومنهم ارتسمت في نفسه، أول صورة من صور المجتمع الإنساني. ولذلك ينبغي أن نذكر في هذا الفصل، ما نعرفه عن أهله وأقاربه، الذين لهم الفضل الأول، بحسن تربيته وتهذيبه على المبادئ المسيحية، التي كانوا عليها، وظهروا بها أمامه، مثالاً حيًّا للفضائل، التي اكتسبها منهم منذ صغره.

كان جبور والده، من أسرة معروفة في زحلة ببيت أبي مراد، وهي فرع من أسرة جبور أو رزق جبور، المنتشرة فروعها في زحلة والبقاعَيْن بأسماء مختلفة. ويُنسب إلى هذه الأسرة بيت أبي خالد، وأبي طعان، وبيت العاصي، وبيت يونس، وبيت القسيس، وأبي غانم، وأبي خليل القش، وأشعيا، وأبي عساف والغاوي. واشتهر منهم سيادة المطران بولس أبي مراد، والمرحوم الخوري إلياس أبي غانم ب.م، الذي توفاه الله سنة ١٨٨٤، والخوري أثناسيوس رزق ب.م المتوفى سنة ١٨٨٩، وابن أخيه الخوري موسى رزق ب.م، والخوري يوسف القسيس من اكليروس

زحلة الخاص، والخوري فيلبس القسيس ب م، الذي توفاه الله سنة ١٩٣٠. والمرحوم الخوري بولس القش ب.م خال الأب بشارة. والخوري أوغسطين عبد الله، الذي توفي سنة ١٩٠٢. وسليمان أفندي أبي خالد قاضي زحلة سابقًا، المشهور باستقامته، وقد أفادنا معلومات جمة عن أسرته التي يعنى بقيد مواليدها ووفياتها.

وكانت والدته صابات أو اليصابات، ابنة بطرس القش، ممتازة بتقواها وعقلها، وعنايتها بحسن تربية أولادها، وحبها لهم ولزوجها ولجميع الناس. ولذلك كان يحترمها كل نساء زحلة ورجالها. وما كانت تعلم بنزاع وقع بين أهلها أو جيرانها من الرجال أو النساء إلا بادرت لإصلاحهم، ولم تكن تنام حتى يعود السلام إلى قلوبهم. وكانت مشتركة بأخوية السيدة، وأخوية القربان، منذ صباها. وكانت تتناول القربان ثلاث مرات في الأسبوع، حتى في مرضها الأخير.

وكان جبور أبو مراد يسكن في بيت ملك له، في قلب زحلة، بجوار أقاربه، في الحارة المعروفة إلى اليوم بحارة كنيسة مار إلياس، خاصة رهبان دير المخلص.

ولم يكن جبور من ذوي الغنى والرزق الواسع. ولكنه لم يكن فقيرًا، بل متوسط الحال في دنياه، إذ كان يعتمد لكسب معاشه ومعاش أهل بيته، على ما يحصل له من كرومه، التي كان يقوم بتدبيرها بعناية ونشاط، وعلى ما كان يربحه بالتجارة، في دكان صغيرة، كان يضع فيها ما لابد منه لحاجة البيوت من مال القبان وغيره. ولما كان ذا حرص ونشاط في أعماله، وحسن تدبير واستقامة مع أصحابه، اتخذه علي باشا

من آل مردم بك[1] خوليًّا، يناظر على أرزاق أسرته وحاصلاتها في البقاعَيْن وعلى المزارعين فيها. وكان بعضَ السنين يَضمن حاصلات بعض هذه الضِّيَع من المذكور.

وفي سنة ١٨٤٨، رزق الله جبورًا ولدًا دعاه مرادًا باسم والده، وهو بكر أولاده، فشبّ مراد على شاكلة والده، وعلى مثال أكثر شبان زحلة لذلك العهد فإذا لم يكن مع والده في شغله وأسفاره كان على ظهر جواده يسابق رفاقه ويلاعبهم بالجريد، أو يطربهم بصوته اللذيذ. ولكثرة تردده بالسفر إلى دمشق للقيام بأشغال والده مع آل مردم بك، تعرّف على بيت متري الجد، من أعيان طائفة الروم الكاثوليك فيها، فأَحبّ ابنة لهم، واتخذها برضى أهلها وأهله زوجة له، وبارك الكاهن اكليلهما سنة ١٨٨١. ولكن لم تتم السنة الثانية من عرسه حتى توفاه الله مأسوفًا على شبابه، في ٢٨ تشرين الأول سنة ١٨٨٣.

وسنة ١٨٥١، رزق الله جبورًا المذكور، ابنة دعيت بالعماد مريم، ودعيت بعد ذلك سعدى. نشأت على شاكلة والدتها بالتقوى والرزانة. وإذ شبّت، اتخذها ابن ابن عمتها دعيبس قادري زوجة له، وهي لم تزل

---

(1) ـ آل مردم بك من أشرف وأغنى وأكرم أُسر دمشق. وهي ترجع بأصلها إلى مصطفى باشا لالا وزير السلطان سليم فاتح سوريا وفلسطين ومصر. وقد اقطع السلطان الفاتح لوزيره المذكور في هذه البلاد اقطاعات كبيرة واسعة أوقفها المذكور على ذريته. وقد طبعت حجة هذه الوقفية في كتاب خاص يقع في ٣٠٠ صفحة بقطع كبير توزعت نسخه على أفراد هذه الأسرة الكريمة. وعندي نسخة منه تكرم بها أحدهم إبراهيم بك ذكر فيه نحو عشرين ضيعة من أوقافهم بجوار زحلة من بقاع العزيز وبقاع بعلبك والشوف البياضي. ومن المشهور أن علي باشا المذكور إذا جاء للإشراف على أملاك أسرته كان ينزل ضيفاً على جبور في زحلة فيأتي للسلام عليه كل أعيان المدينة.

حية، تقيم مع أولادها في الولايات المتحدة. وقد اعتمدنا على ما روته لنا عن حياة أخيها وهو صغير، لأنها أكبر منه سنًا، وأقوى ذاكرة وعافية.

وسنة ١٨٥٣، ولد له ابنه الثاني، ودعاه سليمًا، ودُعي فيما بعد بالرهبانية بشارة، كما سيرد الكلام عليه مفصلاً في هذا الكتاب إن شاء الله.

وسنة ١٨٥٧، ولدت له ابنته الثانية ودُعيت بالعماد مريم. ولم تطل حياتها، بل ماتت طفلة صغيرة.

وسنة ١٨٥٩، ولد له ابنة ثالثة دُعيت ملكة، تزوجت فيما بعد جرجس عواضة من زحلة. وماتت ميتة صالحة على أثر نفاس.

وسنة ١٨٦١، ولد له ابنة رابعة دُعيت بالعماد مريم. وإذ شبّت تزوجت أحد أقاربها الخواجا يوسف عبد الله. وماتت سنة ١٩٢٢. وزوجها لم يزل حيًا يسكن في بيروت مع أولاده، ويعرف فيها بيوسف الزحلاوي.

وسنة ١٨٦٤، ولد له ابنه الثالث ودعاه يوسف، وقد توفاه الله سنة ١٨٧٥.

وسنة ١٨٦٦، ولد له ابنه الرابع ودعاه سليمان، وهو اليوم في الولايات المتحدة، يتعاطى التجارة بنشاط واستقامة وتوفيق[1].

---

(1) ـ اعتمدنا في ضبط تواريخ هذه المواليد على سجل العماد القديم المحفوظ إلى اليوم في زحلة وقد سلم من الحريق إذ أخذه معه المطران باسيليوس شاهيات عندما فر منها بعد أن شاهد النار تلتهم بيوتها سنة ١٨٦٠. ولا عبرة بما جاء مخالفاً لذلك بأن سليماً ولد سنة ١٨٤٨. فهو غلط بني على افتراض غير صحيح.

﴿ الفصل الثالث ﴾

حريق زحلة سنة ١٨٦٠ والفرار منها

لم يكن الفتى سليم يزيد عمره سنة ١٨٦٠ عن ست سنوات. ولم يكن يعي تمامًا، ما كان يجري حينئذ في زحلة على أهلها وأهله، من المخاوف والاضطرابات، وما تبع ذلك من البلايا والأهوال. وجلّ ما كان يذكره لنا من ذلك، أنه ذهب إلى بسكنتا مع والده وأمه وإخوته.

ومفصل ذلك، على رواية أخته سعدى، وغيرها من شهود العيان، أن الدروز الذين كانوا يشددون الحصار على زحلة، ولم يكونوا يستطيعون الدخول إليها عنوةً دخلوا إليها بالخديعة على غرةٍ من أهلها، يوم الاثنين في ١٨ حزيران بالحساب الشرقي قبل الظهر، من الجهة الغربية، رافعين على راياتهم الصلبان، وهم يتغنون بالأغاني النصرانية، ليوهموا الناس أنهم نصارى قادمون من كسروان لنجدة أهل زحلة، الذين كانوا ينتظرون هذه النجدة من يوسف كرم. فلذلك ذهب فريق من الرجال والنساء من حارة الراسية، لاستقبالهم بالترحاب والشراب. ولما دنا الفريقان من بعضهما وكادت تنكشف الحيلة، بادرهم الدروز بضرب الرصاص، فانهزموا أمامهم وهم يصرخون: خدعة! خدعة! الدروز! الدروز! فاستولى الخوف والقلق على الجميع، وتضعضعت قوى رجال القتال، بانهزام رجال حارة الراسية المذكورين ومغادرتهم صفوفهم. وحالما بلغ إليها الدروز، أضرموا في بيوتها النار، ليوقعوا الرعب في القلوب، ويشغلوا رجال الحرب عن قتالهم بصراخ النساء وعويل الأطفال ولهيب النار والدخان.

ولما ارتفع الدخان، أخذ جند الأتراك الذين كانوا قد أُرسلوا للدفاع عن زحلة، يطلقون عليها مدافعهم، وشرع كذلك سائر الدروز بالهجوم عليها من كل جهة، فأدرك حينئذٍ أهل زحلة أنهم في شر مستطير. فأسرع بعض رجال الحرب منهم، إلى الأماكن التي اتخذوها من البيوت حصونًا لهم، وشرع الفرسان يشنون الغارة على المهاجمين، ليصدوهم عن النهب والحريق والقتال. وكان فريق من الفرسان يجول في البلدة، لخدمة ونجدة أصحاب الحصون، وحماية النساء والأولاد والشيوخ والمرضى، الذين لم يكونوا يستطيعون الهرب والنجاة من أهوال هذا البلاء إلاّ أن أكثر رجال الحرب والشيوخ جمعوا الأولاد والحريم، وخرجوا بهم من جهة الشمال، بطريق حارة البربارة، وصعدوا إلى جبل صنين. فكانوا بسلاحهم سورًا حصينًا لهم حتى بلغوا إلى قرية بسكنتا. وكان باسيليوس شاهيات مطران الروم الكاثوليك، ومتوديوس صليبا مطران الروم الأرثوذكس، مع بعض الشيوخ، يتولون أمر القوم في ذلك اليوم العصيب.

وكان مع هؤلاء، جبور أبو مراد وامرأته، وأولاده مراد وسليم وسعدى وملكة. فناموا تلك الليلة في بسكنتا، على الحضيض، في الفضاء نظير رفاقهم الذين ضاقت البلد بهم لكثرتهم. وكذلك قضوا الليلة التالية. ويوم الثلاثاء والأربعاء، عاد فريق من الرجال إلى زحلة، ليعلموا ماذا جرى فيها على أهلهم وبيوتهم. غير أن كثيرين منهم، تفرقوا في قرى المتن وكسروان، حتى بلغوا دُوما من بلاد البترون. وفريق منهم ذهب إلى بيروت، لأنها كانت تعتبر حصنًا للنصارى، لوجود قناصل دول أوروبا فيها. ولم تكن تخلو غالبًا من المراكب الحربية في تلك الأيام الكثيرة المخاوف.

﴿ الفصل الرابع ﴾

في بيروت

ويوم الثلاثاء، عاد جبور أبو مراد إلى زحلة، صحبة كثيرين من أهل زحلة، ليتفقد بيته وأهله. وأرسل امرأته وأولاده الصغار إلى بيروت، برفقة بعض أقاربه، إلى بيت نعمان يونس أحد أقاربه فيها. فكانت اليصابات هناك على أشد ما يكون من القلق والخوف، على زوجها وأقاربها، الذين في زحلة، وعلى نفسها وأولادها الذين معها في بيروت، لأنه بعدما شاع في بيروت خبر حريق زحلة، وذبح أهل دير القمر في السرايا، ومذابح حاصبيّا وراشيّا بمساعدة الأتراك، وما جرى على النصارى، في قرى إقليم جزين والتفاح، وما وقع عليهم في قرى المتن وساحل بيروت، استولى القلق والخوف على النصارى في بيروت إذ أخذ جهَّال المسلمين يعتدون عليهم، ويتهددونهم بكل شر. وقد كثر فيها عدد اللاجئين إليها من قرى لبنان لما تقدم، وبلغ الاضطراب والخوف من نفوسهم أشده، إذ قُتل يوم السبت في ٢٢ حزيران رجل مسلم لم يُعرف قاتله، وأتُهم بقتله رجلٌ نصراني من بكاسين، فهاج عامة المسلمين، وطلبوا قتله للحال، وإلاّ قاموا كلهم قومة واحدة على النصارى، وذبحوهم في الليلة ذاتها. ولتهدئة هذا الهيجان، حوكم المتهم المسكين وحكم عليه، ونُفّذ فيه الحكم ليلاً بالقتل، وهو يقول: "أنا بريء مظلوم، إن شاء الله يكون دمي فدى النصارى".

ولسبب هذه المخاوف، أخذ الأغنياء من بيروت يسافرون بحرًا إلى الإسكندرية، وأوروبا، وقبرص، وازمير، وبلاد اليونان. وأما الفقراء ومتوسطو الحال، فكانوا يقصدون كسروان ولم تجد اليصابات المسكينة سبيلاً إلى النجاة بأولادها الا الفرار من بيروت إلى كسروان، فسارت بهم على أثر القوم الهاربين من بيروت، وكلّ منهم مشغول بأمر نفسه

وذويه عن سواه. حتى أفضى بهم السير إلى مضيق نهر الكلب. وقد أعياها وأولادها التعب والحر والجوع، معما تولاها من الخوف على نفسها وعليهم، بانقطاعها في هذا المكان عن كل مساعدة. فأقعدها هذا الأمر عن السير، وجلست على قارعة الطريق، تبكي وتندب سوء حالها وحال أولادها، حتى صاروا يبكون لبكائها وكان الوقت قد بلغ المساء، وكادت الشمس تغيب، ويعقبها ظلام الليل.

وكان حينئذ في زوق مكايل، إلياس قادري من زحلة، وهو ابن أخت جبور أبي مراد. فلما بلغه من القوم الهاربين، أن امرأة من زحلة من بيت جبور رزق، هاربة من زحلة بأولادها، لا معين لها في الطريق، ثار فيه دم الشباب، وركب فرسه للحال وغار به، حتى بلغ المكان بأقل من ربع ساعة. فوجد امرأة خاله وأولادها بالحالة التي ذكرناها، فطابت نفسها بكلامه، وبما أحضر معه من الزاد لها ولأولادها فانتعشت نفسها، وشكرت الله تعالى لعنايته الخاصة بها وبأولادها، لإنقاذه إياهم من الموت. ثم حمل من يستطيع الركوب على فرسه، وسار بهم إلى الزوق. وأنزلهم في بيت يوسف حبالين، حيث أقاموا مدة شهرين، كان يفتقدهم فيها جبور، بما كانوا يحتاجون إليه.

ولما أخذت المراكب الحربية ترد إلى بيروت بالجند الفرنساوي من أول آب، رجع الأمان إلى النفوس، وانتهت المذابح، وشرع أهل زحلة يعودون إليها تدريجا، ويجددون بيوتهم التي خربت بالحريق. فأخذ جبور امرأته وأولاده وعاد بهم إلى زحلة، وبنى من بيته غرفة بمعاونة أقاربه وجيرانه لسكناهم. وهكذا بطريق العونات، تم بناء بيوت زحلة كلها.

وإذ ليس غرضنا في هذا الكتاب أن نصف حوادث تلك السنة وأهوالها، اقتصرنا على ذكر ما كان منها له صلة بحياة صاحب الترجمة، لبيان عناية الله الخاصة به، منذ صغره إلى آخر حياته كما سنرى.

﴿ الفصل الخامس ﴾

الفرج بعض الضيق

لم يُقتل من أهل زحلة، في المواقع الحربية التي جرت فيها وبجوارها سنة ١٨٦٠، قدر ربع من قتِل من الأعداء. إذ لم يبلغ عدد القتلى من أهلها مئة نفس، حسب رواية شهود العيان. لأنهم أبوا أن يستسلموا للأتراك وللأخصام، نظير أهل دير القمر وحاصبيًّا وراشيًّا ودمشق، الذين ذُبحوا غدرًا ذبح الغنم. لكن أهل زحلة أُصيبوا بالحريق العام، الذي فيه خربت بيوتهم ومخازنهم وكنائسهم ومدارسهم، إلا كنيسة سيدة النجاة، لكونها معقودة بالحجر. وكذلك نُهب كل ما كان لهم من مال ومتاع، وأضحوا كلهم حتى الأغنياء فقراء، يحتاجون إلى كل شيءٍ. على أن النفوس الأبية الحرة، إذا ما أصابها ضيم، لا تصبر عليه طويلاً، بل تبذل جهدها في دفعه، والنجاة من شره بالجد والنشاط. وبما أن أول أسباب هذا الخراب كان الانقسام بين الزعماء فيها، عادوا إلى الاتفاق والاتحاد، لإصلاح هذا الخراب، بتجديد بناء بلدتهم. فأخذوا يتعاونون على ذلك. ولم تنته سنة ١٨٦٠، حتى كان لكل أسرة مكان يأوي إليه أفرادها. وما انقضت سنة ١٨٦٢، حتى صارت زحلة ببنائها الجديد، أجمل مما كانت قبلاً، بفضل تعاون اهلها، بطريقة العونات المعروفة إلى اليوم في بعض القرى: وذلك بأن يتطوع للعمل كل الأفراد أو أكثرهم، من رجال ونساء ومن كبار وصغار، لقيام مسكن لأحدهم بنخوة ومروءة ومحبة.

وعلى هذه الطريقة، تجدد بناء الكنائس والمدارس. فأقبل الناس على الكنائس لعبادة الله تعالى، بتقوى أحرّ من السابق، ليشكروه تعالى على

نجاتهم. فإن المصائب تجارب تزيد العاقل حكمة، وتقربه إلى الله تعالى. وكان يَذكر لنا صاحب الترجمة، أن المرحوم عبد الله أبا خاطر، الذي كان يقود رجال الحرب إلى كل نصر على زمان الأمير بشير الكبير، كان يسبق الجميع إلى كنيسة مار إلياس، لحضور الصلوات الطقسية والقداسات. وكان وقوفه فيها أمثولة حيَّة للجميع، بالخشوع والتهيب، حتى لم يكن يجسر أحد من الأولاد والشبان أن ينبس ببنت شفة أمامه في الكنيسة. ونعمان المعلوف، الذي كان يقول للدروز قبل حريق زحلة كلمته المشهورة، الدالة على عزة نفسه: "لو وقع خسفٌ من السماء ارقعته بجزمتي"، صار عابدًا تقيًّا، ومثالاً صالحًا بتواضعه وأُنسه.

﴿ الفصل السادس ﴾

أيام الصبا في البيت والمدرسة

في سنة ١٨٦١، فتحت المدرسة التابعة لكنيسة مار إلياس، بجوار بيت جبور أبي مراد، فأرسل إليها ابنه سليمًا. وكان عمره حينئذ سبع سنوات، قضاها في البيت عند والدته، حتى شبع من حليب تقواها. وقد علمته الصلاة في البيت معها، وعوَّدته حضور الصلوات الطقسية في الكنيسة، إذ كانت تصحبه معها إليها، حتى إنه كان، (حسب رواية صهره ورفيقه يوسف عبد الله)، إذا حلَّ وقت اللعب للأولاد، يُخاتل رفاقه في المدرسة، ويدخل إلى الكنيسة ليصلي فيها، ولا يدع أحدًا يدري به، إلا إذا دخل أحدُهم إليها اتفاقًا، أو ليفتش عنه، فيخرج منها إلى البيت أو إلى المدرسة.

وكان منذ صغره، يتجنب اللعب مع الأولاد، ولاسيما الألعاب التي لا تخلو من منافسة وخصام. ولذلك كان محبوبًا من جميع رفاقه، وكان بعض الأوقات، يعزّي من كان منهم مغلوبًا ومقهورًا، بكلمةٍ اعتاد أن يقولها إلى آخر حياته: "الله يساعدك". بل قضى كل حياته، لا يعرف لعبة من لعب التسلّي المعروفة. ولم يكن في المدرسة يهتم بشيء سوى حفظ درسه. ولذلك بان نجاحه من أول سنة، حتى سبق كثيرين من أترابه. وكانت تظهر عليه، منذ صغره، سمات الرزانة والتعقل والحشمة، في كل مكان ومع الجميع. ولم يكن على شيء من بلاطة الأولاد ودلعهم أو طيشهم، بل كان في البيت، حسب رواية أخته سعدى، هادئًا ساكنًا ساكتًا كأنه غريب، فلا يعمل شيئًا إلاّ ما يطلب منه. ولذلك

كانت والدته تحنو عليه بوجه خاص، بخلاف والده، فإنه كان يُحب أخاه مرادًا أكثر، لِما كان يظهر من حدة ذهنه وقوتّه، مع خفة روحه وسرعة جوابه في كلامه.

وتعلَّم سليم في مدرسة الخورنية، حسب العادة في مدارس ذلك العهد، مبادئَ العربية، ثم كتاب المزامير، وكتاب الاكتويخس (وهو من كتب الصلوات المعروفة في الكنيسة)، بإتقان، حتى صار يقرأُ فيها الصلوات الطقسية في الكنيسة أمام الناس. وكذلك تعلَّم الخط العربي بنجاح، وكان خطه جليًّا واضحًا لا يخلو من مسحة جمال، تدل على صفاء سريرته ورغبته في إتقان أعماله. وتعلَّم أيضًا مختصر التعليم المسيحي، برغبة، بقيت راسخة في نفسه، إلى ما بعد درسه اللاهوت الأدبي والنظري والفلسفة. فكان كثيرًا ما يرغب إلينا ونحن تلامذة، أن نتلو هذا التعليم على سماعه، في كل فرصة مناسبة.

وعلى رواية أخته سعدى، كان معلمه في هذه المدرسة، الشماس ديمتريوس قزح، من رهبان دير المخلص، الذي توفاه الله رئيسًا في دمشق سنة ١٩٠٦، وهو مشهور بتقواه وغيرته على خلاص النفوس، وقد ساعده على تعليمه له التعليمَ المسيحي، الخوري ديونيسيوس الصائغ رئيسُ كنيسة مار إلياس المخلصية، الذي قضى معظم عمره فيها، إلى أن مات سنة ١٨٨١، وكان الخوري المذكور معلمَ اعترافه، كما كان معلم اعتراف أهله.

وفي سنة ١٨٦٨، فتح الأب بطرس الجريجيري مدرسة كبيرة في زحلة، في دار المطران، وأراد أن تكون نظير المدرسة البطريركية في بيروت، فأحضر إليها المعلمين، ليعلموا فيها الصرف والنحو والحساب واللغة الفرنساوية. وكان سليم من تلاميذها، لِما كان أبوه يتوسم فيه خيرًا، بما كان فيه من سمات التعقل، والرزانة، والرغبة في الدرس، فتعلّم

فيها الأجرومية ومبادئ اللغة الفرنساوية قراءةً وكتابة. وكان رئيس المدرسة المذكور يعتبره كثيرًا، لتقواه ورزانته، كأفضل المعلمين. وكان يختاره بعض الأوقات لأن يرافقه في بعض زياراته، ويشاركه في صلواته وأعماله التقوية، كما كان يذكر لنا ذلك في حياته عن البطريرك المذكور.

فشب الفتى سليم جبور على هذه الخصال الحميدة، والفضائل المسيحية، وممارسة أسرار الكنيسة بتواتر، تقربًا إلى الله تعالى بالورع، حتى رسخت التقوى في قلبه، وانكشف له غرور بعض الشبان في هذه الدنيا. فعزم أن يذهب إلى دير المخلص ليترهب فيه، ليخلص نفسه، كما كان يسمع عن رهبانه من أهله وأقاربه، ولاسيما والدته، التي لدالته عليها، صارحها بعزمه، لكنها لم تحفل بكلامه إلا بعد أن كرر عليها القول مرارًا. ولكنه لم يجسر أن يبوح به لوالده، الذي لما عرف هذا من والدته، حاول أن يُشغله بعمل يسهل عليه، ويكون له فيه ربح، ليغره بالمال. فرام أن يدرّبه على الأعمال التجارية لما ظهر له من براعته في الخط والحساب. ورأى ان اعمال التجارة أسهل وأوفق لنحافة جسمه. ففتح له دكانًا في السوق، وضع فيها من مال القبان ما يروج في زحلة، كالملح والزيت والصابون والسكر والبهار. وكان يزوره غالبًا، ويشرف على أعماله بعد عودته من أشغاله، ويسأله بعض الأحيان عن أعماله وأرباحه، فيجيبه سليم بما فعل. فإن لاَمَهُ على تقصيرٍ أو قلة ربحٍ كان يسكت عن الجواب. وإذا سألته أُمه بمثل هذا، كان يقول لها بدالةٍ وصراحة: "لا تطاوعني ذمتي أن أربح من أناس فقراء محتاجين".

ويظهر أن سليمًا لم ينجح بهذه التجارة، لعدم رغبته فيها، ولأن الله تعالى يدعوه إلى تجارة أشرف وأكثر ربحًا.

﴿ الفصل السابع ﴾

دعوة الله له إلى الرهبانية

إن الله يدعو الناس بأنواع مختلفة إلى عبادته في هذه الدنيا، ليفوزوا برضاه وسعادته في الآخرة. وقد تكون هذه الدعوة، بالكلام الحيّ، المفهوم واضحًا من السامع، وهو الوحي الظاهر، والآية الكبرى، والكرامة الفائقة التي يخص الله بها بعض الناس. وقد تكون هذه الدعوة بصوت خفي لطيف، لا تسمعه الآذان، ولكن تدركه الأذهان والنفوس الطاهرة بوجدانها الباطن، الخلي من حب الدنيا. وهو الإلهام السري الخفي. وقد تكون رأسًا بدون واسطة، أو بواسطة ملاك أو بشر، كدعوة الأنبياء والرسل. وقد تكون بتدبير الله تعالى، الذي جعل لكل معلول علّة، ولكل حادث سببًا أو أسبابًا. فحينما نجهل أسباب الحوادث التي تجري لنا في حياتنا، ننسبها عادة إلى الصدفة والاتفاق. وإذا كان لنا من هذه الحوادث نفعُ ظاهر، نسبناها إلى حسن الحظ والسعد. وإذا جرت على خلاف مرادنا ورغائبنا نسبناها إلى سوء الحظ أو النحس. لكن إذا اعتقدنا أنها لا تجري إلا بتدبير الله وعنايته بخلقه ويجب أن يكون اعتقادنا كذلك نسبناها إلى التوفيق، الذي هو تسهيل طريق الخير، وسدّ طرق الشر. ويطابق هذا قول بولس الرسول: "إن الذين يحبون الله، كل شيء يعاونهم للخير" (روم ٨: ٢٨).

نقول هذا توطئة لبيان ما سيأتي، في سيرة صاحب الترجمة، الذي اختاره الله ليكون عابدًا له بالتمام والكمال. ولذلك خصّه تعالى بعنايته،

وجعل التوفيق خادمًا في كل أحواله، من أول ما دبّ ودرج، إلى أن قضى أَجَلَه وبلغ غايته عند ربه.

والمراد بالطريقة الرهبانية، السلوك بطريقة الكمال، التي نهجها السيد المسيح مدة حياته على الأرض، لمن يبتغي أن يتقرب إليه، باتباعه مشوراته الإنجيلية، ويعاهد الله على أن يحفظها كل حياته.

وتدعى رهبانية، ويدعى تابعوها رهبانًا، من الرهبة، بمعنى التقوى وخوف الله وعبادته بالورع.

فقد دعا الله تعالى عبده سليمًا بلطفه، إلى السير في هذه الطريقة الرهبانية، طريقة الكمال المسيحي. فلبى دعوته تعالى بنيةٍ صادقة، وعزم متين، لا يلويه شيء عن السير فيه، بكل ثبات ونشاط إلى التمام.

﴿ الفصل الثامن ﴾

إجابة دعوة الله

لما بلغ سليم السنة العشرين من عمره، وهو على الحال التي وصفناها، أدرك أنه صار ربّ أعماله، وأن له الحق باختيار الحالة، التي يجد فيها السبيل الأمين لخلاص نفسه، والفوز برضى الله تعالى. وشرع يخاطب والدته بصراحة وشجاعة، طالبًا رضاها عليه ليترهب، وخاطب والده بهذا الشأن، ولكنه لم يفز منهما بطائل.

وإذ طال به الأمر، ولم يجد سبيلاً لرضى والديه، عوَّل على السفر إلى دير المخلص، سرًا بدون علمهما، لئلا يصدّاه عن السفر. فأعدَّ عدّته ولم يُعلم بذلك أحدًا سوى عمه وجاره أبي طعان، الذي سلَّم إليه مفتاح الدكان قبيل سفره. إلاّ أن هذا أسرع وأخبر أبويه، فبادر والده، وأرجعه إلى البيت من أول الطريق.

فعاد سليم إلى البيت، طاعة لأبيه، حزينًا لإخفاق مسعاه. ولزم البيت بالاختلاء والصلاة، ولم يكن يخرج منه إلا لسماع القداس، والصلوات الطقسية في الكنيسة. وكان يصلي إلى مريم العذراء سيدة النجاة، لتساعده على النجاة والخلاص. وفي الوقت نفسه، لم يكن يهمل التوسل إلى والدته لتساعده على نيل رضى والده، ليأذن له بالسفر إلى دير المخلص. ولبث مدة طويلة في البيت على هذه الحال، لا يكلم أحدًا، حتى كان يظهر لأهله كأنه ضائع العقل، لا همَّ له إلا دير المخلص والرهبنة، كما روت لنا ذلك أخته سعدى. فرقَّ له قلب والدته لتقواها وإخلاص حبها له، وخاطبت والده بشأنه، ليدَعَه يذهب إلى الدير.

وأقنعته بما ألقاه الله على قلبها ولسانها، بأن الرهبانية دعوة من الله، وحرام علينا أن نمنع ولدنا عن طاعته تعالى، إن كان يدعوه إليها. ولسبب ما كان لها عنده من الكرامة والاعتبار نظرًا لتقواها وتعقلها، رضي معها بالسماح لولده بالسفر إلى دير المخلص، ليمتحن نفسه بالرهبانية. فإذا توفق تمت إرادة الله فيه، وإلاّ فالعود إلى البيت خير وأفضل. ففرح بذلك سليم أيَّ فرح، لأنه تم مراده بأخذ رضى والديه، وهو يحسب أن رضاهما بركة، ومقدمة التوفيق له في هذه الحياة وفي الآخرة.

وقبل أن نسير مع هذا الشاب العاقل إلى دير المخلص، ينبغي أن نقف قليلاً، لننظر في الأسباب التي حببت إليه الطريقة الرهبانية، ونعتبر الوسائل التي استخدمها الله تعالى في هذا السبيل، إلى أن بلغ به غايته التي أرادها واختارها له.

لعل أول شيء يتبادر لذهن القارئ النجيب من هذه الأسباب، نفس ما تحققناه بعد البحث، وما رواه لنا الثقاة، وما رواه لنا الأب بشارة عينه، وهو التربية المسيحية التي خصه بها الله تعالى منذ صغره، بعناية والدته ومثالها الصالح والسهر عليه، إلى أن شَبّ على التقوى والخصال الحميدة، واعتياد ممارسة الصلوات الخشوعية في البيت والكنيسة، حتى كان بعض النساء يقلن لها عنه: ما هو مليح إلا ليكون خوريًا، أو راهبًا في الدير.

ولا يخلو أن تكون زيارات الكهنة الأفاضل لهذا البيت المبارك، قد تركت في نفسه أثرًا حميدًا، زادت في محبته للطريقة الرهبانية. وكان أفراد هذا البيت يفتخرون بحق بأنه ببيت الخوارنة والرهبان المخلصين إذ كان فيهم من أهل زحلة أكثر من عشرين راهبًا، وأكثرهم من نفس حارة مار إلياس. وكان رئيسهم الخوري ديونيسيوس الصائغ أفضلهم كمالاً، قضى

في زحلة نحو ربع قرن رئيسًا على الرهبان، إلى أن توفاه الله فيها سنة ١٨٨١ ولم يكن يشكو أحد منه.

ثم إن ملازمة الكنيسة، والاشتراك بصلواتها الطقسية، وإدمان الاعتراف، وتناول الأسرار المقدسة، مما يساعد بلا شك على إذكاء نعمة الله في قلب الإنسان الذي يأتي هذه الأعمال بإيمان ورجاء ومحبة، كما كان دأب هذا الشاب التقي الورع، لأن الله لا يُسخِّر عباده، بل يُضاعف أجرهم من نفس عملهم.

فهذه الأسباب قد تظهر لكثيرين أنها تجري بمجراها الطبيعي أو بطريق الانفاق. مع أنها سلسلة متصلة الحلقات، من نعم الله، أو كعقد ثمين، في عنق من أحبه الله، واختاره له بفضله ولطفه. وقَلّ منهم من يعتقد أنها بتوفيق الله وعنايته الخاصة. ولذلك قلّ من يسمع صوت الله يدعوه، ويستجيب دعوته بإخلاص النية، وثبات العزم على السير في الطريق، التي أرادها له الله.

﴿ الفصل التاسع ﴾

إلى دير المخلص

في أوائل شهر أيلول سنة ١٨٧٤، برح سليم جبور زحلة، بعد أن ودّع أهله وأقاربه، وقبَّل أياديهم، وطلب دعاهم لتوفيقه. وسار إلى دير المخلص، راكبًا على بغل لرجل مكاري من زحلة من بيت حنكش، كان يتردد عادة إلى دير المخلص. وكان شوق سليم إلى الدير عظيمًا جدًا. وكان هذا لا محالة دليلاً واضحًا على دعوة الله له إلى الرهبانية التي حببها إليه ورغّبه فيها.

وكان رفيقًا له في سفره هذا، شاب آخر من نفس حارة مار إلياس، اسمه سليم بن حنَّا مرشة، قصد أن يترهب معه في دير المخلص، فَقُبِلَ في الدير، ولبس ثوب الرهبانية معه في يوم واحد، وارتسم فيما بعد كاهنًا، وعُرِف باسم باسيليوس مرشة، لكنه بسماح الله لم يثبت في الرهبانية كما ثبت رفيقه.

بلغ سليم ورفاقه دير المخلص، مساء اليوم الثاني وكان يوم سبتٍ. وقد سمعوا عن بُعدٍ قبل وصولهم، جرس الكنيسة يقرع طويلاً، للاحتفال بصلاة الغروب. وكان دير المخلص في ذلك الوقت ممتلئًا بالرؤساء وبشيوخ الرهبان، الذين حضروا لعقد مجمعهم العام كعادتهم. وكان حينئذ قد تم المجمع، وانتخبوا رئيسًا عامًّا الخوري سمعان نصر. وكان هذا رحمه الله من الرهبان الممتازين بالكمال الرهباني، بوداعته وتواضعه، وتقواه، وحبه للصمت والعمل بهدوء. فحضر سليم الصلاة، وسُرّ كثيرًا بهذا الاحتفال، وبزينة الكنيسة وجمالها، وأصوات المرتلين، وشاهد الأب

العام الجديد. وفرح بالأكثر لمشاهدة خاله بولس القش، الذي بشّره حينئذ بأنه سيرتسم شمّاسًا إنجيليًّا من يد البطريرك في ٨ أيلول، كما أنه شاهد بين شيوخ الرهبان الأب ديونيسيوس الصائغ رئيس زحلة، والخوري إلياس غانم من أقاربه أيضًا. وصباح الأحد، قام سليم باكرًا، وأتى إلى الكنيسة لأول دقة من الجرس، وحضر الاحتفال بطقس الفرض من أوله إلى آخر القداس، الذي احتفل به لأول مرة الأب العام الجديد، وحواليه هالة جليلة نحو ثلاثين كاهنًا من الكهنة الشيوخ والشبان ببدلاتهم الثمينة. وتناول سليم من يد الأب العام القربان المقدس، مع من تقدم من الرهبان والشعب. وقد سُرّ بهذا الاحتفال أيّ سرور، إذ وجده أكثر نظامًا وخشوعًا من القدّاسات، التي كان معتادًا أن يحضرها في زحلة في كنيسة مار إلياس وفي سيدة النجاة.

ومساء الاثنين، قرع جرس كنيسة الدير، للاحتفال بصلاة الغروب نظير الأحد. وترأس هذا الاحتفال إكرامًا لعيد ميلاد السيدة البطريرك غريغوريوس يوسف، وجلس على عرشه الجديد، وكان مقابله البطريرك اكلمنضوس بحوث، الذي كان يقيم في دير المخلص بعد تنازله عن البطريركية. وكان الخورس مزّينًا ومجمّلاً بكثيرين من المرتلين الكهنة والشمامسة، أصحاب الأصوات الرخيمة. وأولهم الأب العام الجديد في جهة اليمين. وكان أجهرهم صوتًا وأبعدهم شهرة، الأب حنّيًا برخش، الذي كان يملأ كنيسة الدير على وسعها، بصوته العالي الرخيم المنقطع النظير. وفي الشمال البطريرك اكلمنضوس بحوث، والأبوان أثناسيوس السروجي وأثناسيوس رزق، وكلاهما من زحلة، وكان سليم يعرفهما من قبل.

وصباح الثلاثاء، احتفل بطقس العيد والقداس الكبير البطريركُ غريغوريوس احتفالاً عظيمًا، شاركه فيه الأب العام الجديد والمدبرون

الجدد، والكهنة والشمامسة والرهبان، ورسم فيه شماسًا إنجيليًا الأب بولس القش المذكور، والأب ثاوضوسيوس القاضي من أبلح من أبرشية زحلة، ثم رسم خمسة كهنة من الشمامسة الرهبان.

وقد ألفت نظره من المرتسمين بوجه خاص، الأب بطرس الشامي والأب حنَّا البيطار، لأنه كان يعرف من زحلة بطرس المذكور وإخوته، وأمه التي كانت تتردد على بيتهم لزيارة والدته، وكانت على شاكلتها بتقواها، وكانت ترافقها لزيارة الكنائس والأخويات. وكان أخوه الأكبر مكاريوس قد سبقه، وترهب في دير المخلص، وقد حضر رسامة أخيه وقدمه للرسامة، وسيأتي الكلام عليه.

وكذلك كان الأب يوحنا البيطار هدفًا لأنظار كل من حضر هذا الاحتفال، لتقواه التي كانت تظهر عليه، ولرصانته ولتعقله، وبراعته وتفننه بزينة كنيسة الدير، بعمل المنجور الجديد من خشب الجوز في الخورس، بكراسيه ودرابزينه والعرش الذي كان جالسًا فيه البطريرك. وكان الرهبان والعلمانيون يذكرونه بكل ثناء[1].

وكانت كنيسة الدير في هذا القداس مزدحمة بالناس، الذين أتوا من القرى المجاورة والبعيدة ومن دير القمر وصيدا وصور، للسلام على البطريرك، وتهنئة الأب العام الجديد، الذي كانوا يجلون قدره كثيرًا. وقد رأى سليم هذا كله، ولم يكن يظن أن يشاهد في الدير ما شاهده، من ازدحام الناس وبهجة الأفراح والأعياد، فزاده هذا الأمر حبًّا وشغفًا بالرهبانية وبدير المخلص.

---

(1) ـ أمّا منجور الايقونسطاس للصليب الكبير، ولصف الرسل فهو عمل يد أخيه المعلم جرجي البيطار المشهور بالنجارة كشهرته بالتقوى والصلاح وكل خير.

وقد استلفت نظره بالأكثر البطريرك اكلمنضوس بحوث، بوقار منظره، ومهابة شيبته، وجمال صوته، مع دعته وتواضعه. وكان يشاهدْ دائمًا في الكنيسة يصلّي وحده. وربما أوعز إليه غير مرة أن يتلو له على سمعه قانون يسوع الحلو، وغيره من كتاب السواعية المخلصية، الذي كان قد طُبع حديثًا وتوزع على الرهبان.

وكان خاله الشماس بولس دليلَه ورفيقَه في الدير، كل تلك المدة. فكان يعتني به، وبكل ما يحتاج إليه. فقدّمه إلى البطريرك اكلمنضوس، وعرّفه به وبقصده، وطلب له منه البركة. وقدمه أيضًا للأب العام الجديد، فقبّل سليم يده. فسُرّ به الأب العام، وبشّ بوجهه، كما كان دأبه مع الجميع ووعده خيرًا. لكنه كان في شغل عنه بأمور كثيرة ومهمة، وأخصها تعيين الرؤساء للأديرة والأناطيش، واستقبال الناس القادمين لتهنئته بالرئاسة العامة، وللسلام على البطريرك غريغوريوس، من كبار رجال الطائفة ورجال الحكومة. ومع ذلك، فقد اهتم بأمر سليم ورفيقه وارسلهما إلى دير الابتداء، بعد أخذ رضى المدبرين الذين قدمهما لهم خاله الشماس بولس. فكانوا يسألونهما كالعادة عما إذا كانا يعرفان القراءة والكتابة، وعن عمرهما، وقصدهما بالرهبانية، وعن معرفتهما أخص الواجبات المسيحية من التعليم المسيحي. فكان سليم جبور يجاوب الجواب الشافي بدون تردد. لكنْ إذا سأله أحدهم عما إذا كان له صوت حسن كصوت خاله، كان السكوت جوابه، يفسره احمرار وجهه حياءً.

وكان خاله بولس ذا صوت جميل، ويعرف أصول الموسيقى اليونانية والألحان الطقسية. وكان سليم معتادًا منذ صغره سماع صوته في الكنيسة وفي البيت. وكانت كذلك والدته اليصابات ذات صوت جميل، وقد ورث عنها أكثر أولادها وأحفادها رخامة الصوت، إلا سليم فكان صوته واطيًا هاديًا. غير أنه كان يطرب لسماعه ترنيم الصلوات

الطقسية، سواء كان في الكنيسة أو في خارجها. وبوسع القارئ أن يقدّر كم كان سروره بحضور هذه الاحتفالات العظيمة في دير المخلص، وتأثيرها في نفسه، منذ أول يوم من حضوره إليه.

﴿ الفصل العاشر ﴾

الابتداء الرهباني القانوني وديره

لابد أن يكون قد أدرك القارئ النجيب الفرقَ بين الدعوة الرهبانية وحقيقة الرهبانية، التي هي غاية الدعوة واستجابتها والعمل بها. والفرق بين الابتداء الرهباني وحقيقة الرهبانية الراهنة، بدوام السير في طريق الكمال المسيحي، والصبر على صعوبتها إلى المنتهى، للفوز بالخلاص الأبدي.

فإن الابتداء ما هو إلاّ مدخل إلى الرهبانية. ويقال له تجربة، لان طالب الدخول في الرهبانية يمتحن نفسه في هذه المدة، هل في طاقته أن يقوم بما تفرضه عليه هذه الطريقة، أم لا. وتوصف هذه التجربة بكونها قانونية، لأنها مرسومة بقوانين الكنيسة المقدسة، بمقام ركنٍ وأساس للرهبانية، بحيث إذا نذر الإنسان النذور الرهبانية بدون هذه التجربة كانت نذوره باطلة، لكونها جرت من غير معرفة تامة من الناذر بواجبات الرهبانية وفرائضها.

فالابتداء في الرهبانية بمقام المدرسة الإعدادية، إذ يتعلم المبتدئ بالنظر والعمل، أو بالكلام الحي والمثل الصالح، السيرَة الرهبانية والفضائل اللازمة لها. وهذا كما قلنا أساس لابد منه لثبات الراهب، ونجاحه في طريقته الرهبانية. وكان رئيس دير الابتداء الأب مكاريوس الشامي المذكور سابقًا، وهو الأكبر سنًّا بين إخوته الرهبان الثلاثة لأبيه وأمه. وكان الأربعة ممتازين بالتقوى والعقل، وقد شغلوا وظائف عالية في الرهبانية، قاموا بها بنشاط ونجاح.

وكان قد تعين الخوري يوسف غنام منذ سنة ١٨٦٤، أن يفتقد دير السيدة أو المبتدئين ثلاث مرات في الأسبوع، لإرشادهم وتعليمهم الطريقة الرهبانية وواجباتها. وليعلّم من يراه منهم ذا أهلية علَم الصرف والنحو، وأصول الموسيقى اليونانية (البصلتيكا) وألحان الكنيسة. وبقي على هذا المنوال بعد أن صار رئيسًا للمدرسة سنة ١٨٦٦، ومدبرًا في المجمع الذي انعقد سنة ١٨٧٤، إذ لبث يزور الدير المذكور كذلك.

وكان هذا الأب الفاضل، مع ما كان عليه من ضعف البنية ووجع المعدة، غيورًا نشيطًا جدّ النشاط، في سبيل تعليم إخوانه الرهبان الشبان، وإرشادهم في طريق الكمال، الذي كان فيه كاملاً بالقول والعمل. ومع ما كان عليه من الدعة والإنس والتواضع، كان شديد المراقبة والسهر على تلاميذه، وقد خصه الله بمهابةٍ نادرة مناسبة لذلك. وكان لكلامه حتى في إرشاده البسيط تأثير فعَّال يخرق القلوب كأن الله تعالى ما خلقه إلا ليكون رئيسًا ومرشدًا ومهذبًا للرهبان. وقد عرفناه هكذا بالذات نحن وسوانا. وما كلامنا هذا إلا الإقرار بحقيقة الواقع.

وكان الأب مكاريوس المذكور على شاكلة معلمه الخوري يوسف، جاريًا على منواله في كثير من أحواله وأعماله. وكان لشدة ورعه وتقواه، قد صمم عزمه على أن يقضي كل حياته في دير السيدة، راهبًا بسيطًا كأحد المبتدئين، لا يمتاز عنهم بشيء. وأبى أن يرتسم بالكهنوت، حتى يضمن لنفسه البقاء في الدير، ولا يلتزم أن يخرج إلى العالم. إلا أن معلمه ومرشده الخوري يوسف أقنعه بقبول الرسامة، وضمن له البقاء في دير السيدة من قبل الأب العام، ليكون ناظرًا أو رقيبًا على المبتدئين، ومعلمًا لهم بمساعدته وتحت نظره. فقبل مكاريوس أن يرتسم شماسًا وكاهنًا، وكان ذلك سنة ١٨٦٩ في كنيسة صيدا، بوضع يد المطران ثاوضوسيوس قيومجي، وتعين حينئذ وكيلاً لرئيس الدير الأب سمعان

طنطش. ثم في أول أيلول سنة ١٨٧١، تعين رئيسًا للدير المذكور، وتسلم الصك القانوني من الرئيس العام الايكونوموس يوحنَّا كحيل ومن المدبرين أعوانه. وتجددت له الرئاسة من الأب العام الجديد سنة ١٨٧٤ كما ذكرنا. وبقي الخوري يوسف غنَّام يتردد إلى الدير كالسابق، ضامنًا له المساعدة لتدبير المبتدئين وإرشادهم. ولبث معه على أتم ما يكون من وحدة الروح والمحبة، بالرأي والتدبير، وحسن القصد، والغيرة على إنجاز العمل الذي فوّض إليهما. وبهذا الروح وعلى هذا الشكل، نشأ صاحب الترجمة بنعمة الله وحسن توفيقه.

﴿ الفصل الحادي عشر ﴾

الاتشاح بالثوب الرهباني عربون الزي الملائكي

بارح سليم جبور وسليم مرشه ديرَ المخلص بأمر الطاعة إلى دير السيدة، للابتداء فيه. والدير المذكور يبعد عن دير المخلص مسافة ساعة. وقد تعين بأمر من رومة سنة ١٨٦٥، أن يكون على وجه التخصيص دير الابتداء الرهباني، لكونه أكثر مناسبة للاختلاء والانفراد الرهباني.

وفي ١٩ من شهر أيلول إتّشح بثوب الابتداء الرهباني، سليم جبور أبو مراد مع رفيقه سليم مرشه، في كنيسة الدير المذكور، من يد الأب مكاريوس، حسب طقس الكنيسة، ودعي بشارة، وقد اتشح معهما بثوب الابتداء شاب ثالث من دمشق، اسمه ليان من بيت شلهوب ودعي اسمه يوسف. وهو الارشمندريت يوسف شلهوب كاهن مدينة ليفورنو (Livorno) من مملكة إيطاليا، حيث يقيم منذ ٤٥ سنة، بخدمة نفوس الروم الكاثوليك الذين في هذه المدينة. وسليم مرشه دعي توما.

ومعلوم عند الجميع، أنه حسب العادة في رهبانيتنا إتباعًا لتقليد قديم يُعطى المبتدئ اسم أحد القديسين بدل اسمه السابق، ليكون شفيعًا له عند الله، وقدوة له في حياته الرهبانية، وللدلالة على أنه ترك ويجب أن يترك كل شيء في العالم حتى اسمه. وأنه يجب أن يبتدئ في الدير منذ ذلك الوقت بحياة جديدة. ولعل الأب مكاريوس لما اختار لسليم جبور اسم بشارة، كان قد زار في طريقه كنيسة المدرسة وكنيسة دير الراهبات، وكلّ منهما مكرسة كما لا يخفى على اسم سيدة البشارة. فرام أن يخصص بهذا الاسم الجميل ابن جبور أبي مراد.

فسُرّ الأخ بشارة أيّ سرور بقبوله في صف الأخوة المبتدئين، وبلبسه الثوب الرهباني، إذ تم له مراده الذي كان يتوق إليه منذ زمان. واستبشر خيرًا باسمه الجديد، وفرح له بذلك رفاقه المبتدئون، لا لكونه صار واحدًا منهم فحسب. بل صار أعزَّ أخ إليهم، لأنه لصفاء سريرته وانبساط نفسه، كان يبش طبعًا للجميع، ولا ينقبض عن أحد. ومعلوم أن بشاشة الوجه من أول دواعي الحب. ومما كان يحببه إلى جميع من عاشره، أنه كان ذا حياء وحشمة، في جلوسه ومشيه وحديثه، فلم يكن يتكلم إلا ليفيد. ولم يكن يتداخل مع أحد فيما لا يعنيه. وعلى هذا جرى كل حياته.

﴿ الفصل الثاني عشر ﴾

أحوال الابتداء

بكل حق وصواب، يقال أن الابتداء صعب في كل أمر. لكن الابتداء في الرهبانية أصعب، لأنه انتقال من حال إلى ضدها. وهو، كما لا يخفى، انتقال الشاب وهو بعنفوان شبابه، الذي يلازمه الزهو وحدة الطبع والبَطَر، إلى حال الدَعَة والسكون، والوقار، والخضوع التام، والزهد في كل شيء حتى في الأهل، والعفة التامة عن الحرام وبعض الحلال أيضًا، ممَّا توجبه الرهبانية على طالبها، كما يظهر لنا هذا بأكثر وضوح في هذا الفصل.

كان الابتداء لذلك العهد، جاريًا في رهبانيتنا على تقليد قديم، من عهد الآباء القديسين، ولم يزل جاريًا منه إلى اليوم، في أكثر الرهبانيات الشرقية والغربية، أن لا يأتي إلى الرهبانية ولا يُقبَل في الابتداء، إلا الشبان البالغون كمال الرشد، الذين بعد أن خبروا الحياة وما فيها، صاروا لا خوف عليهم من غرور المحال، أن ينقلبوا عن عزمهم إلى العود إلى العالم.

وإذ تغيرت بعض أحوال الابتداء القديم، ينبغي أن نوضح هنا مفصلاً ما كان عليه الابتداء لذلك العهد، من المشقة والصعوبة، ليظهر على أتم وجه فضل صاحب الترجمة، وفضل الرهبان الأولين، بالصبر على مصاعب المعيشة الرهبانية، وإتمام واجباتها برغبة وشوق، لا يخلو من الغرابة في هذه الأيام التي فشا فيها الفتور بين المسيحيين، وقَلَّت رغبة الشباب بالرهبانية.

كان المبتدئون في ديرهم المذكور منقطعين عن جميع الناس، حتى عن رهبان دير المخلص، وعن الذين في المدرسة الرهبانية. فلا يجتمعون بهم أصلاً. ولا يباح لهم أن يكلموا أحدًا إلا بإذن الرئيس.

وكانوا يقضون أوقاتهم بتلاوة الصلاة الفرضية كاملة، مع ترتيل ما يجب ترتيله منها حسب طقس الكنيسة. وتلاوة صلوات كثيرة، من نوافل غير فرضية، نظير زيارة القربان الأقدس، وطلبة العذراء والمسبحة، وقوانين كتاب السواعية المعروفة بالدور لكل يوم قانون، علاوة عن بيوت المديح التي كانت تتلى جميعها كل يوم بعد صلاة النوم، ويشتركون بها كلها جميعًا. ولا يُباح لأحد منهم أن يتركها، إلا لضرورة نادرة وبإذن صريح من الرئيس. ولم يكن الوقت المخصص لهذه الصلوات أقل من سبع ساعات كل يوم.

وكانوا يجتمعون في كل يوم، لتلاوة فصل من كتاب روحي، في غرفة كبيرة يقال لها لسبب ذلك قاعة القراءة الروحية. وكان يليه إرشاد، يلقيه عليهم الأب المتقدم، في معنى الفصل المذكور لإيضاحه وشرحه. وقد يقوم مقامه يوم الأحد تلاوة التعليم المسيحي الصغير، مطارحة بالسؤال والجواب بين اثنين ممن يكون منهم قد حفظوه ظاهرًا، مع محاضرة صغيرة في إيضاح بعض مسائله من الأب المرشد.

وكان يُخصص لهم من الوقت كل يوم نحو ساعتين للدرس، وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الصرف والنحو، وممارسة الترتيل، لقيام طقوس الكنيسة كما ينبغي.

وكانوا هم أنفسهم يقومون بكل خدم الدير اللازمة لهم، كما تقتضي ذلك العيشة المشتركة، من طبخ وعجين، والشغل بأرض الدير المجاورة كزرع الدخان وقطافه وقطاف الزيتون. وللرئيس أن يوزع هذه

الخدم على أصحابها، إذا كانت لا تقتضي أن يشتركوا كلهم بها. ولا يكون الواحد منهم مفردًا بعمله بل يكون معه دائمًا أخٌ مساعدٌ له.

وكانوا قبل بناء بيت المنام الحالي سنة ١٩١٠، يقيمون في الغرف القديمة التي كانت في مكانه. وكان في كل غرفة اثنان أو ثلاثة. وفي كل غرفة حصيرة من القش على قدر الغرفة، ولذلك يقال لها قياس. ولكل مبتدئ فرشة خاصة يستريح وينام عليها. لا يبدلها ولا يجلس إلى سواها. وهي كناية عن بساطة من السجاد تُطوى على وجهين، وفوقها مخدة تحت رأسه، ولحاف يتغطى به. ولم يكن لهم أسرّة من حديد أو نحاس ولا خشب، على أنه وإن كان مباحًا لبعض الرهبان أن يناموا على تخت من خشب فلم يكن هذا مباحًا للمبتدئين، الذين يجب عليهم أن يعتادوا العيشة القشفة الخشنة وإماتة الجسد، لوجه الله ولإظهار التوبة في أول حياتهم الرهبانية.

وكانت مدة الابتداء سنتين كاملتين بدون فاصل، بحيث إذا خرج المبتدئ من دير الابتداء، لأي سبب كان ولو بإذن رئيس الدير أو الرئيس العام، يجب أن يعود إلى الابتداء من أوله. وعند انتهاء السنة الأولى، ترمى له قرعة أولى بالاقتراع السري، يشترك به كل رهبان دير المخلص برئاسة الأب العام والمدبرين. فإن كان المبتدئ ذا سلوك حسن وسمعة طيبة يلقي له كل واحد من الرهبان قمحة وان كان على خلاف ذلك يلقي له شعيرة. ثم تُعدّ حبّات القمح والشعير فإن تغلّب عدد القمح في القرعة عند إحصائها، كان له في ذلك خير وبركة. وإن تغلب الشعير، أُنذر المبتدئ بذلك، ونصح ليصلح سلوكه قبل انقضاء أجل الابتداء.

وكذلك كان يجري الحال عند انتهاء السنة الثانية، إذ ترمى له قرعة ثانية، يقال لها قرعة النذر. فإن تغلّب فيها القمح على الشعير، بشروه به وأوعزوا إليه أن يستعد لإبراز النذر الرهباني. وإن كان الأمر بخلاف

ذلك، طرد بالحال من الدير، ونزع عنه الثوب الرهباني. إلا إذا أراد أن يعود إلى الابتداء من جديد، مع الوعد الصادق منه بإصلاح سلوكه، مع ضمانة كفيل له من ذوي شأن[1].

(1) ـ كان المبتدئون، وأهلهم يهتمون كثيرًا بنتيجة هذا الاقتراع، حتى صار يضرب بذاك المثل عند العامة بصورة السؤال: قمحة أم شعيرة. ويستعمل اليوم بدل القمح حصاة بيضاء وبدل الشعيرة حصاة سوداء.

﴿ الفصل الثالث عشر ﴾

نجاح الأخ بشارة في الابتداء

لا نظن أننا بحاجة إلى التصريح، بأن الأخ بشارة تغلب على كل هذه الصعوبات، وصبر عليها الصبر الجميل. بل استسهل كل ذلك، بنعمة الله. ولما ضُربت له القرعة الأولى، خرجت كلها أو أكثرها قمحًا كالقرعة الثانية. ويشهد بذلك سجل الابتداء، الذي تحررت فيه نتيجة القرعتين. وهو محفوظ عندنا إلى اليوم. لأن حسن سلوك هذا الشاب العاقل ظهر جليًا في دير السيدة، وفاح عرف فضائله بين المبتدئين، حتى بلغ دير المخلص، بواسطة من كان يزور دير السيدة وكنيستها، ومن كان من المبتدئين ينتقلون منه إلى دير المخلص، بعد تمام مدة الابتداء. فكانوا جميعهم يرون الأخ بشارة ممتازًا بين المبتدئين، بالتقوى والورع، وحرارة العبادة في الكنيسة، والحشمة والرزانة في جلوسه ومشيه وكلامه القليل، منخفض الصوت والنظر.

ولما ظهرت فيه هذه الصفات بهذه الأعمال، جعله الرئيس قندلفت الكنيسة، فسُرّ الأخ بشارة بذلك أي سرور، إذ صار يسهل عليه بهذه الوظيفة أن يتمتع بحرية تامة في الصلاة في الكنيسة، مع خدمة بيت الله. وكان قد مارسها من قبل في كنيسة مار إلياس في زحلة، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. بل لبث يمارسها كل حياته، بنظافة الكنائس وزينتها أينما كان. وكان من شان صاحب هذه الوظيفة القيام بنظافة كنيسة الدير وآنيتها، من قناديل وشمعادين، مع الاهتمام بخدمة كنيسة السيدة القديمة، المعروفة بكنيسة سيدة الوعرة. وعليه أن يقوم من النوم قبل

الجميع، ليوقظ الأخوة إلى صلاة الفرض، وأن يوقد لهم السرج في غرفهم.

وقبل أن تتم السنة الأولى من الابتداء، عيَّنه الأب مكاريوس، بموافقة الأب المدبر الخوري يوسف غنَّام، راعيًا للمبتدئين، ليكون عمدتهُ في رعايتهم وتدبيرهم إذا غاب عنهم. وهذه الوظيفة بين الرهبان نظير وظيفة الناظر في المدارس العلمانية. والعادة أن يُختار لهذه الوظيفة من المبتدئين أو التلاميذ الرهبان، أفضلهم عقلاً وصلاحًا، ليكون أمامهم مثلاً حيًا بالصلاح والتقوى. وقد قام الأخ بشارة بواجبات وظيفته هذه خير قيام، بثبات ونجاح إلى، أن خرج من مدرسة دير المخلص إلى دير القمر سنة ١٨٩١،كما سيأتي، مدة نحو خمسة عشر سنة. ولم يكن سبيلٌ لأحدٍ من الرؤساء، كل هذا الزمان، أن يشكو منه أمرًا يقتضي العزل.

وقد روى لنا رفاقه في الابتداء، أنه من أول أمره لم يكن يكتفي بأن يصلي وحده وقت الفراغ من أشغاله. بل كان يحمل رفاقه أن يشاركوه فيها. وكان أحبهم إليه، من كان يواصل الصلوات معه. وقد اتخذ وظيفة الراعي وسيلة ليخدم إخوته الرهبان. ولم يدعٍ سبيلاً لأحدٍ منهم أن يخدمه بشيء ولو كان مبتدئًا، متذكرًا وحافظًا دائمًا في سلوكه قول المسيح: "ما جئت لأُخدَم بل لأَخدُم".

﴿ الفصل الرابع عشر ﴾

تلميذ المدرسة الرهبانية

في ٢٨ أيلول سنة ١٨٧٤، خرج من مدرسة دير المخلص كل تلاميذها الرهبان بعد إنجاز دروسهم. وارتسم فريق منهم كهنة في ٨ تشرين الثاني من السنة المذكورة، بوضع يد البطريرك غريغوريوس يوسف في كنيسة الدير المذكور. وإذ لم يكن حينئذ في دير السيدة ولا دير المخلص العدد الكافي من الرهبان الشبان، الذين يصلحون للدخول إلى المدرسة ويستطيعون مواصلة الدرس، بقيت المدرسة فارغة سنة وأكثر، لكونها مدرسة رهبانية لا يباح الدخول فيها للعلمانيين ولا للمبتدئين، ولأن قانون الابتداء يمنع المبتدئين عن مبارحة ديرهم، وعن الانقطاع عن مواصلة رياضاتهم الرهبانية، ولذلك اقتضى الحال أن يلتمس الأب العام والمدبرون من البطريرك غريغوريوس يوسف الزائر الرسولي لذلك العهد، أن يسمح بتفسيح فوق العادة من قانون الابتداء، ليدخل المدرسة المبتدئون الذين أكملوا السنة الأولى من الابتداء، من ذوي القرعة المقبولة والسلوك الحسن. وبعد مراجعات كثيرة بهذا الشأن، أَذِنَ البطريرك مفسحًا لأول مرة، أن يبارح المبتدئون دير الابتداء، ليدخلوا المدرسة، نظرًا للأسباب التي أشرنا إليها.

وبناء على هذا التفسيح، خرج من دير السيدة للدخول في المدرسة في ١٤ ت١ سنة ١٨٧٥، نخبة من المبتدئين الذين أكملوا السنة الأولى من الابتداء القانوني من ذوي القرعة الحسنة، وبينهم الأخ بشارة أبو مراد راعيهم. وكان معه رفاقهم ممن ثبتوا وارتسموا بعد ذلك كهنة، وخدموا

الكنيسة والطائفة بغيرة ونجاح، الأب سليمان نمير، والأب مخايل المعلوف، والأب انطون زيادة، الذين ارتقوا إلى الرئاسة العامة على الرهبانية. ومنهم الأب باسيليوس نحاس، والأب جرجس نجيمه، وكلاهما صارا مدبرين في الرهبانية. ونجتزئُ بذكر هؤلاء من سواهم، ممن ربما كانوا عند الله أفضل وأكمل.

وكان الأخ بشارة يتخذ من وظيفته سبيلاً لترك الدرس بعض الأحيان، ليذهب إلى الكنيسة للصلاة. ولكن لم يكن يتوانى في دروسه، ولم يقصّر بشيء من واجباته المدرسية، إذ كان يعتقد، كما كان يقول لنا، أنه يتمم عملاً صالحًا يرضي الله، بإتمام أمر الطاعة. ولذلك كان ناجحًا في دروسه. وقد درس علم الصرف والنحو في كتاب فصل الخطاب، وارجوزة الصرف والنحو والبيان في كتب الشيخ ناصيف اليازجي، وعلم المنطق في كتاب الايصاغوجي للأب يوا كيم مطران، الذي كتبه بخط يده. وكذلك كتب بخط يده كتاب الفلسفة العقلية، تأليف الأب العلامة يوسف دموفسكي اليسوعي تعريب المطران يوسف الدبس. وتعلّمه على يد أستاذ المدرسة الأب اغناطيوس معقد، الذي صار مطرانًا على بعلبك باسم جرمانوس. وكذلك درس علم اللاهوت الأدبي والنظري على يد أستاذه الأب روفائيل زلحف، الذي ارتسم بعد ذلك مطرانًا على صور باسم افتيميوس.

ومن معلميه في المدرسة الذين يجب ذكرهم بالثناء والمديح والرحمة، الشيخ أسعد الخوري من رشميا والخواجا خليل فرنسيس من دير القمر، والخواجا حنّا صاصي من صيدا. وهذا لم يزل حيًّا أفادنا بأن تلميذه الأخ بشارة كان نجيبًا، ولم يكن مقصّرًا في شيء من دروسه عن زملائه، لكن كان ممتازًا عنهم بجزيل تقواه. والثلاثة كانوا يدرسون اللغة الفرنساوية، وقد أبقوا في المدرسة ذكرًا طيبًا بحسن سلوكهم.

ومع هذا لم يكن الأخ بشارة يتبجح بمعارفه، ولم يكن يجادل في المسائل العلمية أحدًا من رفاقه التلاميذ في أيام دراسته، ولا سواهم في ذلك، ولتواضعه، ما كان أسهل عليه من قوله: "لا أعرف". ولم يكن يترفع عن السؤال وطلب الإفادة من الناس، حتى من تلاميذه بعض الأحيان. ولشغفه بالصلاة والعبادة لم يعد إلى مراجعة دروسه العلمية، إلا إذا كان مكلفًا بتعليمها، عدا اللاهوت الأدبي، فإنه ما برح يواصل كل يوم مراجعته، بمطالعة تأليف العلامة غوري ومؤلفات القديس ليغوري. وكان يحضر دائمًا المحاورات اللاهوتية، التي كان يقوم بها في المدرسة طلبة علم اللاهوت، حتى لم يكن يفوته منها شيء. وكان يحضر مدرسة اللاهوت الأدبي كأحد تلاميذها، إذا لم يكن له شيء يصدّه عن ذلك.

وقد علّم لعدة صفوف في مدرسة دير المخلص، كتاب مطالع السعد والأجرومية، وكتاب فصل الخطاب ومبادئ القراءة، والغرامطيق في اللغة الفرنساوية. وكان يعلّم الخط الفرنساوي لكل الصفوف، مدة خمس عشرة سنة. لكنه في المدة الأخيرة من حياته ما كان ينطق بكلمة فرنساوية، حتى كان يظن كثيرون من معارفه أنه لا يعرف منها كلمة. وكان ذلك منه لتواضعه، وتجنبًا لكل ما يُشتم منه الزهو بالعلم والعقل.

ومما يجب ذكره هنا، أنه تحت رعايته شرعت الرهبانية بتشييد مدرستها الحالية. وكان مع زملائه وإخوانه التلاميذ يقضي عدة ساعات كل يوم بالشغل وعمل اليد، بنشاط يفوق قوته، كما قد شاهدتُه بذاتي مرارًا كأن العمل له، وكأنه كان على يقين تام بأنه سينال على ذلك أجرًا عظيمًا، لا تُحسب معه شيئًا أجرة الفاعل المأجور. وما خرج من المدرسة إلا كان قائمًا كل بناء الطابق الأرضي منها، والقسم الجنوبي من الطابق العلوي، مع الكنيسة التي نظرته مرارًا كثيرة يرفع من أرضها التراب وركام الحجار بعد فك قالب عقدها. وكان أول المهتمين بزينتها

بعد تبليطها بالرخام. ويوم تكريسها بالميرون المقدس، رقَّاه الطيب الذكر المطران باسيليوس حجَّار إلى رتبة خوري، وألبسه الحجر في قداسه الأول فيها سنة ١٨٨٨، على غير علم سابق منه وبدون رضاه، حسبما شاهدتُ ذلك بنفسي حينئذ مع من حضر.

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

النذور الرهبانية

ما كادت تتم السنة الثانية من الابتداء على الأخ بشارة، حتى أُلقيت له القرعة الثانية للنذر الرهباني، فكانت بيضاء حسنة. وبعد أن استعد لإبراز نذوره أحسن استعداده، بالرياضة الروحية بالاختلاء التام، بضعة أيام كالعادة الجارية في رهبانيتنا، أبرز نذوره الرهبانية في ٢٤ أيلول سنة ١٨٧٦ في كنيسة المدرسة الصغيرة، التي كانت لذلك العهد في الطابق الأرضي منها، بالقداس الاحتفالي الذي قام به الأب العام الخوري سمعان نصر مع المدبر الرابع الخوري يوسف غنَّام رئيس المدرسة، ومعلميها، بحضور تلاميذها الرهبان والمبتدئين، ونَذَرَ معه رفيقاه اللذان توشحا معه قبلاً بثوب الابتداء.

لا نقول شيئًا بشأن نذوره وعظم اعتباره لها، إلا ما تحققناه منه رأسًا بالعرض، ومن رفاقه الرهبان. لكن يجب هنا تنبيه القارئ العلماني إلى أمر مهم، وهو أن الرهبان يفرحون يوم إبرازهم النذر الرهباني فرحًا جزيلاً بالرب، أكثر من فرح الشاب العلماني يوم عرسه. ويفرح لهه فيه جميع إخوته الرهبان، لأنهم يعتبرون أنه وُلد ولادة جديدة في الرهبانية، وصار كواحد منهم، بقوة العهد الذي تتضمنه النذور الرهبانية، إذ يقطع معهم عهدًا مقدسًا أمام الله وكنيسته، بأن يعيش معهم عيشة مشتركة، ويخضع معهم لقانون واحد ولأب واحد، هو أبوهم العام. وإذ لا نستطيع أن نوضح بالتمام اغتباط الأخ بشارة بنذوره الرهبانية، وشدة شوقه إلى إبرازها، وإخلاص نيته فيها، ندع ذلك للقارئ النجيب. وقد

يسهل إدراك هذا بأكثر وضوح، على من تقرَّب إليه في حياته، وعرف شيئًا من ورعه ومحبته لله.

على أني لا أزال أذكر شيئًا مما كان يقول لي بهذا الشأن، عندما أزمعت أن أبرز نذوري الرهبانية، وأنا تحت رعايته في المدرسة سنة ١٨٨٦، فأُورده هنا بمعناه، وهو ينطبق على أقوال علماء اللاهوت ومعلمي الكنيسة القديسين بهذا الشأن:

النذر الرهباني أمر عظيم جدًا. وله قدر عظيم عند الله، ومفعول عظيم في نفس الراهب الناذر. فإنه يبرره من كل إثم وخطيئة سابقة. ويجعله بارًا مقدسًا مكرسًا لله بجملته، كأنه خارج من جرن العماد جديدًا. لأنه موت اختياري لأجل الله، مقرون بالإيمان والرجاء، والمحبة الكاملة لله فوق كل شيء. ولذلك تكون صلاة الراهب الناذر مقبولة عند الله أتم القبول، وأعماله كلها جزيلة الاستحقاق.

وكان من عادته، أن يلازم الراهب الناذر يوم نذره، ليشاركه في صلواته الخاصة. وكان يُملي عليه إرادته، بتخصيص الصلوات بمن يراه بمحبته محتاجًا إليها، كتلاوة خمس مرات أبانا والسلام لأجل راحة نفوس المنقطعين، ومثلها لأجل ارتداد الخطأة إلى التوبة، ونظيرها لأجل ارتداد الهراطقة والمنشقين إلى حظيرة الكنيسة، ومثلها لأجل راحة نفوس والدينا وأقاربنا، ولأجل نمو الرهبانية وتوفيق أعمال الرؤساء وتقديس أولادها وخلاص نفوسهم، ولأجل نجاح المدرسة وتلاميذها، وثبات المبتدئين في دعوتهم الرهبانية، وغير ذلك من الوجوه الكثيرة التي كان يقصدها عادة في صلواته لله تعالى، مما يدل على فرط غيرته على خلاص النفوس، ومحبته الصادقة لجميع الناس وخير نفوسهم. وقد اعتاد تلاوة مثل هذه الصلوات بهذه الوجوه لأصحابها إلى آخر حياته، وكان يجعلها على نفسه فرضًا واجبًا، بداعي المحبة المسيحية الخالصة.

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

رسامته شماسًا وكاهنًا

بعد أن أتمَّ الأخ بشارة دروسه، مع إخوانه الرهبان في مدرسة الدير كما سبقنا، ضُربت لهم في شهر آذار سنة ١٨٨٢ قرعة الرسامة، في كنيسة دير المخلص حسب العادة. وكان في الدير حينئذ، الطيب الذكر باسيليوس حجَّار مطران حوران الذي كان قد تعين زائرًا رسوليًا، مع البطريرك غريغوريوس يوسف، منذ سنة ١٨٧٥، وأخذ حينئذ على نفسه إلقاء مواعظ الرياضة الروحية السنوية، في الصيام الكبير في كنيسة الدير.

ففي ٢٥ آذار سنة ١٨٨٢، احتفل المطران المذكور بقداس عيد البشارة، في كنيسة سيدة البشارة للراهبات قرب دير المخلص، بمساعدة الأب العام وبعض المدبرين. وفي اليوم التالي ٢٦ آذار، احتفل كذلك بقداس حبري في كنيسة سيدة البشارة في المدرسة، ورسم فيه شمامسةً تلاميذ المدرسة، وبينهم الأخ بشاره، الذي يصح أن يقال عنه إنه قَبِلَ الرسامة مع إخوانه الرهبان بطاعة عمياء، إذ لم يكن له أدنى رغبة فيها. وما كان أمر تقدمه إلى الرسامة بالأمر اليسير الهين، لولا أنه اعتاد الطاعة الكاملة لرؤسائه في كل شيء.

وفي آخر السنة المدرسية، خرج التلاميذ رفاقه من المدرسة، إلى دير المخلص وإلى الأديرة التابعة له. وبعضهم ذهب لزيارة أهله، إلا الشماس بشارة. فإنه بقي في المدرسة راعيًا، ولم يُرد أن يذهب إلى زحلة، لزيارة أهله مع بعض إخوانه الرهبان إجابة لطلب والديه، وقد امتنع عن ذلك

زهدًا وإماتة لوجه الله. وكانت زحلة حينئذٍ من أهم مصايف لبنان، وكان يقصدها لقضاء الصيف فيها كثيرون من دمشق وبيروت.

وفي ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٨٢، رسم البطريرك غريغوريوس فريقًا من الشمامسة رفاقِهِ كهنةً، في كنيسة دير النبي إلياس في رشيما، إذ كان في عين تراز إلا أن الشماس بشارة، أبى التقدم إلى الرسامة مع إخوانه، تواضعًا منه، وإعظامًا لشأن درجة الكهنوت، التي كان يعدّ نفسه دون قدرها. وكان يقول إنه لا يستطيع أن يقوم كما ينبغي، بما توجبه على صاحبها من القداسة. وإذا ألحَّ عليه بعض الرؤساء بهذا الأمر، كان جوابه في الغالب السكوت، أو كان يقول لهم: "أنا ما جئت إلى الرهبانية إلا لأخلّص نفسي، لا لكي ارتسم". وكان يطلب التأجيل والإمهال. وكان رؤساؤه احترامًا لفضيلته وتقواه، يكرهون أن يرغموه على قبول الرسامة، وإن كانوا على يقينٍ من أنه كان أكثر استحقاقًا من سواه. وتحققوا أن رفضه الرسامة كان عن تواضع لا رئاء فيه، وكان الخوري يوسف غنّام، ليثبته في فضيلته وليزيده اتضاعًا، لا يُلحّ عليه بذلك، شأنه مع كل تلاميذه. والرهبان الذين كانوا على اتصال معه، كانوا يراجعونه بهذا الشأن، ولاسيما رفيقه الأب مخائيل المعلوف، الذي تعين حينئذٍ أن يكون في المدرسة أستاذًا ومساعدًا للرئيس، فقد ذهب كل سعيهم سدى.

وفي شهر آب سنة ١٨٨٣، عاد إلى دير المخلص المطران باسيليوس حجار، ليشرف بذاته على أعمال المجمع الرهباني العام كالعادة في أول أيلول، كما تقتضي وظيفته بالزيارة الرسولية، وانتخب فيه رئيسًا عامًا الخوري إلياس حجار، الذي كان وكيل الرهبانية في رومة، وانتخب مدبرين معه، الخوري يوحنا كحيل، والخوري سمعان نصر السابق ذكرهما، مع الخوري اكلمنضوس عيسى، الذي لم يكن أقل شأنًا

واعتبارًا منهما عند الرهبان وأصحاب الزيارة الرسولية، لبعد نظره وغيرته على مصالح الرهبانية، وحسن إدارته في جميع الوظائف التي قام بها في حياته. وكان هذا الأب على اتصال مع الأب بشارة بأهله في زحلة وفي الرهبانية، وقد عَزّ عليه أن لا يراه مرسومًا بعد رسامة رفاقه. فأخذ يخاطبه بهذا الشأن ليقنعه بقبول الرسامة، وإذ رأى أن كلامه معه يذهب سدى، عرض أمره على المطران باسيليوس، وكلّفه أن يهتم بشأنه، ويضع يده عليه برسامته كاهنًا.

وكان المطران المذكور شديد الغيرة على الرهبانية، وعلى تقدم أولادها في كل صلاح. وكان كثير التحبب إلى الجميع، بإظهار اهتمامه في مصالحهم. وكان يلتمس الفرص المناسبة لذلك، ولا يدعها تذهب سدى. وكان من شأنه، أن لا يطرق بابًا ولا يلتمس من أحد أمرًا إلاّ بعد أن يكون قد سخّر بتمهيده من يعتمد عليهم. وهكذا كان شأنه مع الأب بشارة، فإنه بعد أن راجعه أصحابه بهذا الشأن، أخذ يخاطبه، تارة وحده وتارة بحضرة بعض أصحابه. وكان يأتيه مرةً من باب الطاعة الواجبة عليه للرؤساء، إجابة لدعوة الله بصوتهم، وتارةً من باب كمال التقوى ومحبة الله، بخدمة القريب بالكهنوت، وحينًا من باب التودد إليه، بمحبته الخاصة له لتقواه، وحسن طاعته لرؤسائه، وحينًا يأتيه من باب التونيب على رفضه الرسامة. وكان المطران مع جلالة قدره وبساطة كلامه، يبش بوجهه كشأنه مع كل من يطلب إليه أمرًا. فقال له مرة: أما تؤمن بفاعلية نعمة الله بسر الكهنوت؟ أو ما سمعت قول المطران الراسم في افشين الرسامة: النعمة الإلهية التي في كل حين للمرضى تشفي وللناقصين تكمّل إلخ.... أو لست الآن أفضل من شاول، قبلما جعله السيد المسيح رسول الأمم؟ وهل اضطهدت كنيسة الله مثله؟ ألست أفضل من أوغسطينوس، قبل أن دعاه الله دعوته الشهيرة؟ وهل ارتكبت

خطايا قدر خطاياه؟ وهل أنكرت المسيح وجحدته مثل بطرس الرسول، وحلفت أمام الناس أني ما أعرفه؟ لاشك أنك لم تبلغ هذا الحد. وكيفما كان الحال، يجب أن تؤمن أن قوة الله بالضعف تكمل، وما عليك إلا أن تتواضع وتطيع، متكلاً على الله، وتصفّي نيتك لخدمة الله ولمجده، ثم قال له أخيرًا "أنا باقٍ هنا، ولا أترك الدير حتى أرسمك، ونفرح بك".

على أن المطران لبث حقيقة بالفعل في دير المخلص، بعد نهاية المجمع إلى أول سنة ١٨٨٤، لأن الخوري إلياس حجار، الذي انتخب أبًا عامًا وهو في رومة، طلب من البطريرك إعفاءه من الرئاسة العامة، وسعى بذلك لدى الكردينال رئيس مجمع انتشار الإيمان. وكان بقاء المطران في دير المخلص ضروريًا لأسباب كثيرة، أخصها مراسلة البطريرك وروما بشأن الأب العام، وطلبه للحضور إلى دير المخلص لاستلام زمام الرهبانية، ومنها مشاركة المدبرين بتعيين رؤساء الأديرة الصغيرة والوكلاء.

وقد سمح الله في تلك السنة بموت مراد أخيه في ٢٨ تشرين الأول. وبلغه هذا الخبر من والده الذي طلبه إلى زحلة، ليكون عزاءً لوالدته بعد فقد أخيه، التي لسبب شدة حزنها عليه أصابها مرض شديد أقعدها مدة طويلة. ولكنه أبى ذلك، ولبث في المدرسة يبكي أخاه، ويصلّي لأجل راحة نفسه وتعزية والدته وشفائها، وقد اتخذ رؤساؤه هذا سبيلاً لأن يراجعوه بقبول الرسامة، ليقدّس لأجل راحة نفس أخيه. وبعد الجهد في سبيل ذلك تقرَّر أمر رسامته، وكتب صك[1] الرسامة مؤرخًا في أول

---

(1) ـ كُتب الصك بخط الخوري يوسف غنام، بإمضاء المطران الراسم مؤرخاً في أول كانون الأول ١٨٨٣ كما يرى. ثم زاد عليه بعد ذلك المرتسم بخط يده "ثاني عيد الميلاد".

كانون الأول، لكن لم تتم رسامته إلا في ٢٦ منه، الذي هو ثاني عيد الميلاد.

ولشدة حزن والدته على موت أخيه مراد بعنفوان شبابه، مرضت مرضًا شديدًا أعيا الأطباء شفاؤه، وتوفاها الله في ٢٩ حزيران سنة ١٨٨٤، بعد سبعة أشهر من موت ابنها مراد، وكانت في كل مدة مرضها قدوة صالحة، بصبرها على مرضها وثباتها على فضيلتها وتقواها. وكانت تواصل المناولة ثلاث مرات في الأسبوع، كما كانت تفعل ذلك قبلاً بحال الصحة. ولم يزل لها ذكر صالح في زحلة، في نفوس أقاربها ومعارفها، بتقواها وحبها للفقراء وبتربية أولادها. وقد حفظ لنا الأب بشارة بخط يده صورة المكتوب الذي كتبه إلى والده، تعزية له بموتها.

﴿ الفصل السابع عشر ﴾

الكاهن الصالح

اعتبارات

ما تقدم الأب بشارة إلى المذبح ليرتسم كاهنًا إلا بعد أن تحقق دعوة الله له، إلى هذه الخدمة السامية، التي كان يتورع منها كثيرًا، كما قدمنا في الفصل السابق. وقد أفضى إليّ بكلام في هذا الشأن مرةً، فقال لي ما معناه: إن صوت الطاعة الصادر بواسطة الرؤساء، هو ترجمان إرادة الله، حسب تدبير العناية الإلهية بكنيسته. ولولا ذلك لكانت أمور الكنيسة فوضى، تتنازعها أهواء الأفراد. إذ بعضهم يريد ما لا يريده الله. وبعضهم يرفض ويأبى ما يريده الله. إنَّ صوت الرؤساء سندٌ، نعتمد عليه وقت الحاجة أمام الله، بأننا ما أردنا الكهنوت على هوانا. ونستطيع أن نقدمه حجة وبرهانًا، على أننا ما دخلنا هذه الخدمة، إلاّ لنخدم الله تعالى والنفوس المشتراة بدمه. لكن الويل لمن يميل عن هذا السبيل، يمنة أو يسرة. والويل له ثم الويل إذا كان يتمادى بالخروج عن هذا السبيل ولا يرجع إليه بالتوبة الصادقة الفعّالة.

فيحق لنا أن نقول ـ ويشهد معنا كلٌ من تقرَّب إلى هذا الأب الفاضل ـ إنه ما حاد عن هذا السبيل أصلاً. بل سار فيه إلى النهاية، بثباتٍ نادر، بفضل نعمة الله القادرة على كل شيء.

في أول رتبة الرسامة بموجب طقسنا، يُقدم اثنان من الشمامسة أو الكهنة الطالب أن يرتسم، إلى المذبح الكبير، حيث يكون جالسًا الحبر الراسم، واضعين أيديهما على عنقه، ويحنيانه وهما يناديان بترتيل من أول مدخل الكنيسة إلى أن يصلا به أمام الحبر الراسم بقولهما: هذا هو

العبد المختار من الله الآب البسيط، والابن الوسيط، والروح القدس البارقليط، الشماس فلان، يتقدم ليرتسم كاهنًا على مذبح كنيسة كذا، من يد الحبر الجليل السيد فلان...

وبعد أن يسجد أمام المذبح إزاء الباب الملوكي، يسجد لأيقونة السيد المسيح إلى يمينه، ويقبلّها بتقوى وخشوع، ويفعل كذلك أمام أيقونة السيدة والدة الإله، ثم أمام الحبر الراسم، ويقبّل يده، فيوعز إليهم بالدخول إلى الهيكل من الباب الملوكي. فيدخلان، ويطوفان به حوالي المذبح الكبير ثلاث دوراتٍ، وأيديهما على عنقه، يحنيانه بالسجود، ويقبّل المذبح من أربع جهاته. ولا يخفى أن هذا الطقس رمزٌ جميل وبليغ، يدلّ على أن المرتسم لا يتقدم إلى الرسامة من ذاته. بل إن الله اختاره بصوت الكنيسة والشعب المسيحي لخدمته تعالى بالكهنوت، ولخدمة مذبحه الذي يجب أن يكون نقطة دائرة أعماله وهدف نظره، كما يدلّ على ذلك طوافه حوله.

ولا ريب، أن مضمون هذه المناداة مع ما يتبعها من الرموز والطقوس، تنطبق تمام الانطباق على الأب بشارة، عبد الله المختار منه تعالى ومن رؤسائه القانونيين. فإنه تقدم إلى مذبح الله للرسامة، خاضعًا عنقه وإرادته لإرادة الله وإرادتهم بكل بساطة، حسب اختيار نعمة الله له. ولا أقول هذا من باب الخيال أو الافتراض. بل هو الواقع، كما يحققه سلوك هذا الأب الفاضل كل حياته، كما عرفه الجميع.

ومما امتازت به رتبة الرسامة، من الأمور الجليلة التي لا سبيل لأن ينساها الكاهن مدى عمره، أن الحبر الراسم، بعد أن يكون تمّ رتبة الرسامة، وقدَّس القربان بالاشتراك مع المرتسم والكهنة الذين معه، يأخذ الجوهرة بيده عن الصينية، ويدفعها ليد الكاهن المرتسم جديدًا قائلاً له: "خذ هذه الوديعة، واحفظها إلى مجيء ربنا يسوع المسيح، لأنه عتيد أن

يسألك عنها". فيتناولها المرتسم، ويذهب واقفًا بها وراء المذبح مقابل الحبر الراسم، وهو ينظر إليها بعين الجسد، ويتأمل بجوهرها بعين الإيمان، مقرونًا بعواطف الرجاء والمحبة، بقدر ما في قلبه من التقوى والخشوع.

وعلى ما أذكر، أن الأب بشارة كان يحفظ هذا التذكار الجليل بتمام الورع، وكان يكرره مع قول الله لحزقيال النبي، وهو يهتز من شدة تأثيره في نفسه. "إني أقمتك رقيبًا على هذا الشعب، وكل نفس تهلك اطلب نفسك عوضها". (حز٣: ١٧).

وهذا التذكار الرهيب، كان يمنعه في أول الأمر عن الخروج إلى العالم، خوفًا على نفسه من الأخطار التي تقع فيه. وصار يدفعه بعد ذلك، إلى أبعد وأعظم ما يكون من أعمال الغيرة على خلاص النفوس، بالخدم الكهنوتية. ولاسيما سماع اعتراف كبار الخطأة وإرجاعهم إلى التوبة، بعد أن تمادوا كثيرًا في الخطيئة. فكان يقضي بعض الأيام، نحو سبع ساعات في كرسي الاعتراف، مع انه قضى أولاً سبع سنوات بعد سيامته كاهنًا لم يسمع اعتراف أحد. لأنه كان يتقي الله كثيرًا في خلقه، ويخاف من شدة وعظم المسؤلية على نفسه، في هذا الأمر الخطير.

ولا يخفى أن عمله هذا في كلا الحالين أمثولة مفيدة للكهنة الشبان، ليستعدوا في أول خدمتهم الكهنوتية لسماع الاعتراف، بدرس كتب اللاهوت اللازمة، واستكمال ذلك بالخبرة الشخصية، واكتساب الفضائل، وإماتة أهواء النفس، ليصلح الكاهن أن يكون قائدًا للعميان في ظلام الأهواء البشرية، وإلا كان كالأعمى الذي يقود أعمى.

﴿ الفصل الثامن عشر ﴾

تذكاراتي الخاصة

في أول سنة ١٨٨٤، حضرت إلى دير المخلص قاصدًا الترهب فيه، وإذ قبلني الرؤساء، أرسلوني إلى دير السيدة المخصص بالمبتدئين. ومن أجمل تذكارات الصبا التي أحفظها في ذهني، من تلك الأيام في هذا الدير المقدس، ذكر ما يأتي وما كان يحكيه لي رفاقي عن الأب بشارة وتقواه. فإذا مرّ التلاميذ بجوار دير السيدة إلى النزهة، ومعهم الأب بشارة، كان المبتدئون كلهم يتطلعون إليه بشوق، ويشيرون إليه باحترام. ومما أذكره بهذا الشأن، قول أحدهم ممن كان يعرفه: إنَّ ما يقال من المديح بالأب بشارة، هو حقيقة مجردة لا مبالغة ولا زيادة فيها.

وكنت عند سماعي لمثل هذا الكلام عنه، أشعر بشوق في نفسي إلى أن أرى هذا الأب الفاضل، والراعي الصالح، ولم يكن لي سبيل إلى ذلك، لأنه كان محظورًا على المبتدئين الاجتماع بالرهبان في أي محلٍ كان. وما زال يزداد شوقي هذا، إلى أن قيل لي ذات يوم من سنة ١٨٨٥، إني من المنتخبين إلى المدرسة الرهبانية. فسررت بهذا، وكان سروري بتحقيق أملي هذا، والحظوى بأن أكون من رعيته، يُعادل رغبتي بأن أرى هذه المدرسة وأقيم فيها إلى ما شاء الله. وهو أول ما يصبو إليه كل شاب يقصد دير المخلص. ولذلك كان يوم انتقالنا من دير السيدة إلى المدرسة المذكورة، ١٣ أيار سنة ١٨٨٥، يوم فرح وسرور شامل، كأنه عيد من أكبر الأعياد. وكنت أشعر حينئذٍ بسرور

خاص، ربما لم يشاركني به أحد من رفاقي، وهو سروري بمشاهدة الأب بشارة، وأن أكون من رعيته وتلاميذه.

وأول ما متعنا به نظرنا، بعد خروجنا من دير السيدة، مشاهدتنا دير المخلص العامر، الذي زاد شوقنا إليه بعدنا عنه في دير الابتداء، وهو أول رغائبنا في الرهبانية. وبالوقت نفسه، شاهدنا بجانبه المدرسة المعدّة لأن نكون فيها. ولـمّا دخلنا إليها، صحبة الأب الطيب الذكر الخوري نقولا هرمس، استقبلنا فيها الأب بشارة بوجه طافح بشرًا، وشعرنا حينئذٍ أن سروره بحضورنا كان يعادل سرورنا، وإن كان صامتًا، إذ لم يكلمنا بأكثر من أهلاً وسهلاً.

وبعد قليلٍ، استقبلنا الاستقبال الرسمي المرحوم الخوري مخائيل المعلوف، الذي كان يقوم مقام رئيس المدرسة الطيب الذكر الخوري يوسف غنام، الذي كان حينئذٍ مريضًا في صيدا. وكان خطابه الأول لنا في هذا الاستقبال موجزًا بسيطًا. لكنه كان بليغًا في نفوسنا، ومطابقًا لواقع الحال. وخلاصته: "كما ترون أمامكم راعيكم الأب بشارة، ورعيته الإخوة الذين هم أكبر منكم، اعملوا نظيرهم. وكفاكم هذا الآن".

وعلى الحقيقة، إنَّ كل ما شاهدناه بعد هذا الخطاب، من الأب بشارة الراعي الصالح ومن رعيته، كان شرحًا وإيضاحًا لهذا الخطاب الوجيز. واتّضح لنا حينئذٍ قوة تأثير المثل الصالح في النفوس، لأن سلوك الجميع كان مثالاً، أو امثولة حية تجري كل يوم أمامنا، على قاعدة واحدة من التقوى والرزانة والصلاح.

وكان الأب بشارة، على ما يرى من صورته، حسن السمت، تام الخلق، لم يشوه وجهه ولا بَدَنه بعيب أصلاً ولا عَرَضًا. وكان دائمًا

نظيف الثوب والوجه، مشرق البياض، تام الصفاء، كما يظهر هذا في صورته، وكان يغلب عليه الاحمرار، ولاسيما في الصلاة والقداس، وعندما يمدحه إنسان أيًّا كان. وكان ذا لحية متوسطة، طالت عند ما شاخ. ومن حينما ترهّب لم يقص شعر رأسه، حتى كان له من شيبته في آخر حياته، هالة جميلة بيضاء حول وجهه. ولكن لم يكن يبالي كثيرًا بزينة ثيابه وهندامها.

﴿ الفصل التاسع عشر ﴾

يومياته

ينبغي أن أصف هنا، ما عرفته بذاتي حينئذٍ، من حياته في المدرسة، وأعماله اليومية الاعتيادية، التي لم يكن له سبيل لأن يخفيها، مع ما كان عليه من شدة الحرص على كتمان أعماله الصالحة، لئلا يُمدح عليها، ويخسر بهذا المديح رضى الله، الذي كان غاية قصده بها. وقد جرى عليها دائمًا بثبات مكين، من أول حياته الرهبانية، إلى آخر دقيقة منها. فإنه لم يُغلب مطلقًا من كللٍ ولا ملل ولا فتور البتة. أو لم يكن يعرف الملل والضجر أبدًا، مما يدلّ على أن هذه الأعمال، كانت تصدر عن نعمة الله، التي هي فوق ناموس الطبيعة ولا تتغير.

الرجل النشيط، يقوم من نومه باكرًا إلى عمله، ولا يطيق الانحباس في فراشه. وعلى هذا جرى الرهبان، بموجب رسومهم وتقاليدهم. وقد اعتاد رهباننا، في دير المخلص والمدرسة التابعة له ودير الابتداء، أن يقوموا من النوم بين الساعة الرابعة والخامسة بعد نصف الليل. وأما الأب بشارة، فقد اعتاد من أول أيامه في الرهبانية، أن ينهض من النوم قبل الساعة الثالثة. وقد أبصره كثيرون، ممن اتفق لهم أن يناموا معه في غرفة واحدة -وأنا واحد منهم- يقضي ساعات طويلة من الليل، وهو راكع يصلي. ونستطيع أن نقول بكل تأكيد وصدق، أنه لم يكن ينام قطعًا خمس ساعات في اليوم.

وكان عنده ساعة ذات منبه، يعتمد على صوته لئلا يغلب عليه النوم، لطول سهره. وكان يضع هذا المنبه بقرب رأسه. فإذا سمعه يدق

أوقفه حالاً، لئلا يزعج بصوته من يكون نائمًا في غرفته أو بجوارها. ثم يركع حالاً للصلاة، وتقديم أفعاله لله في يومه المقبل. ثم يغسل يديه ووجهه ويسرّح شعره، ويعود إلى الصلاة، إلى أن يحين الوقت المعيّن لقيام التلاميذ من نومهم. فكان يوقظهم هو بنفسه. فيقرع باب كل غرفة قائلاً: "المجد لربنا يسوع". ويضيء القنديل الذي فيها بشمعة بيده، وبعد أن يكون أنار كل القناديل اللازمة في أماكنها، يذهب إلى الكنيسة فيضيئها، ويقضي نصف ساعةٍ في الكنيسة راكعًا، بصلاة حارة تستغرق كل قوى نفسه. ثم يقرع الجرس، فتأتي التلامذة إلى الكنيسة. فيتناول المبخرة ويبتدئ بصلاة الفرض، من التاسعة إلى الساعة الأولى. ثم يبتدئ بخدمة القداس الإلهي، بعبادة وخشوع وإتقان، حافظًا الطقوس والرموز التي تفرضها الكنيسة. فلم يكن يلتفت برأسه ولا بنظره إلى أحد مطلقًا. ولم يكن يهمه شيء إلا اتمام القداس الإلهي، بالورع والإتقان الواجب له. وكانت يداه مرفوعتين في قداسه إلى ما فوق، إذا لم يكن ما يشغلها بعمل أو إشارة طقسية.

ولم يكن ذا صوت موسيقي مطرب. لكن كان صوته جليًّا واضحًا لا خنة فيه، ولم يكن كريهًا أو شاذًّا. ولم يكن يسقط كلمة ولا حرفًا بصلواته الجهرية في الكنيسة. بل كانت تخرج من فؤاده بغنّة خاصة، يدرك السامع أنها صادرة بعبادة وتقوى، من فؤاده. وبعد القداس وصلوات الشكر العامة، يقضي التلاميذ كلّ وحده في التأمل أو الصلاة العقلية نصف ساعة، كان الأب بشارة يقضيها كلها راكعًا في وسط الكنيسة، وهو يحجب وجهه بيده، حتى لا يرى شيئًا ولا يراه أحد. فيسترسل فيها لابراز عواطف الشكر والمحبة، والتضرع لله بكل قوى نفسه.

ثم يصرفنا، أو يذهب بنا إلى بيت المائدة لتناول الفطور أو الترويقة. ويأخذ كتاب صلوات خشوعية، يتلو منها ما يحبّ، وهو واقف في بيت المائدة يرعى التلاميذ ويراعي حاجاتهم. ثم يصرفهم إلى النزهة في دار المدرسة، نحو ربع ساعة، ويدخل بهم إلى غرفة الدرس العامة، وهو لا يفتر من تلاوة صلواته. وفي وقت الدرس، كان يركع على مسطبة مرتفعة قليلاً في وسط غرفة الدرس، وأمامه طاولة صغيرة عليها كتبه، (لأنه كان يرفض أن يجلس على المنبر الذي يجلس عليه الرئيس والمعلمون)، فكان يقضي نحو ساعة على هذه الحال، بالصلوات الحارة، ثم يتناول كتاب اللاهوت الأدبي فيدرس فيه، إلى أن ينتهي وقت الدرس. إلا إذا كان يُطلب منه أن يعمل عملاً، تقضيه واجباته نحو التلاميذ أو الرئيس أو المعلمين.

وبعد فرصة قصيرة، كان يقرع الجرس، ويوزع التلاميذ صفوفًا إلى مدارسهم الخاصة. وإذا لم يكن له منهم صف يعلّمه يذهب إلى الكنيسة، ويصلي، إلى ان ينتهي وقت المدرسة، فيدق الجرس، ويخرج المعلمون بتلاميذهم من مدارسهم إلى النزهة في دار المدرسة، تحت نظره ورعايته. وقصارى القول، أن كان دائمًا في الصلاة ومناجاة الله. ولم يكن يشغله عن هذا عمله بمناظرة التلاميذ. ولذلك كان يختار وقت المناظرة صلوات قصيرة متقطعة، يقضي من خلالها ما يجب عليه نحو رعيته.

ولا يؤخذ من كلامي هذا انه كان حوشيًا، لا يخاطب الرهبان ولا يتكلم مع التلاميذ. لا. بل إنه كان يكلّم الجميع، ويؤانسهم بكلامه الحلو، ويسمع حديثهم بلطف وأدب، وإن لم يكن يشاركهم في ألعابهم. وما كان يبتعد عنهم إلا لسبب موجب. بل كان دائمًا في وسطهم أو قريبًا إليهم، كالراعي الصالح لا يفوت نظره أحد من رعيته. وما كان يظهر بوجهٍ عابس لأحدٍ. وعندما كان يرى من أحدهم ما لا يجب أن

يكون، يحمرّ لون وجهه، وتهتز يده وكل بدنه. ثم يحوّل حالاً نظره ووجهه إلى جهة ثانية، حتى يسكّن روعه بعد قليل، فيزول كدره وغضبه، ويعود إلى صفاء سريرته وصفاء وجهه.

وكان هذا شأنه إلى وقت القراءة الروحية، في الساعة الحادية عشرة ونصف. فكان الأب الرئيس يتولاها عادةً. وعند غيابه كان هو يتولاها، وفي كل الأحوال لم يكن يشغله أمر عن حضورها، وسماع إرشادات الأب الرئيس الخوري يوسف غنام، الذي كانت إرشاداته ذات تأثير بليغ في نفوس سامعيه، لصدورها عن تقوى راهنة، وعن غيرة خالصة لا يعيبها شيء من أعماله. وبعد فحص الضمير الخاص، نذهب إلى بيت المائدة لتناول الغداء. ولم يكن الأب بشارة يجلس في محله على طاولة التلاميذ إلا بعد أن يكون قد أعدّ ما يلزم لرعيته. فكان يقوم بخدمتهم بذاته إذ كان يرى خدمتهم الجسدية من واجباته التي تقتضيها وظيفته. وما كان يجلس البتّة على المائدة مع الأب الرئيس والمعلمين، كما أنه لم يكن يجلس على كرسي، في خورص الكنيسة أبدًا. بل كان يقف منتصبًا أو راكعًا في وسط الكنيسة، كل أوقات الصلاة، كأحد الرهبان الصغار أو المبتدئين.

﴿ الفصل العشرون ﴾

اطراد لما سبق

وكنَّا بعد الغداء، نزور القربان نحو خمس دقائق، ونخرج إلى ساحة المدرسة لأجل النزهة. لكن الأب بشارة، لم يكن يخرج من الكنيسة إلا بعد ربع ساعة أو أكثر. وكان يساير جميع التلامذة كبارًا وصغارًا، رهبانًا ومبتدئين. وما كان يؤثر واحدًا منهم على آخر، إلا إذا كان أحدهم بحاجة إلى مساعدته، كما تقتضي وظيفته، لكونه راعيًا ومعلمًا، ولاسيما الصغار الذين كانوا يجدون صعوبة في التكلم بالفرنساوي، فكان يساعدهم ويشجعهم ويمرّنهم على ذلك، بلطف وطول أناة.

وبعد انقضاء النزهة، كان يدخل بنا إلى غرفة الدرس، ويتناول كتابًا روحيًّا، يتلو فيه فصلاً أو أكثر إلى نهاية الدرس. وإذا ساوره النعاس تناول كتاب صلوات صغير، وركع منتصبًا يصلي ليغلب النعاس، أو يذهب لزيارة القربان، ثم يعود إلى مكان الدرس، حتى إذا انتهى الوقت، دق الجرس الصغير ووزع التلاميذ صفوفًا إلى مدارسهم، وذهب بتلاميذه إلى مدرستهم الخاصة إن كان له صف، أو ذهب إلى الكنيسة لزيارة القربان وللصلاة.

وأخص كتبه الروحية التي كان يؤثر قراءتها، كتاب مرشد الكاهن، وروضة الواعظ، والكمال المسيحي، والاقتداء بالمسيح، والحرب الروحية، واحتقار أباطيل العالم، والاستعداد للموت، وأمجاد مريم وغيرها. والكتاب الأول منها كان رفيقه الدائم بعد رسامته، في المدرسة

ودير القمر وصيدا، وعاد به إلى دير المخلص، ولم يزل في غرفته بين مخلفاته ذخيرة كريمة.

وأخص كتب الصلوات، السواعية الكبيرة، والسواعية الصغيرة المعروفة بالسواعية المخلصية، وزيارة القربان، وغيرها، فكان يتلو يوميًا كل قوانين السواعية، وصلاة يوحنا الدمشقي التي أولها أيتها الفائقة المجد. والمسبحة. وكان يكرر تلاوة الصلاة الربية والسلام الملائكي، قدر ما يشاء. أو قدر ما يطلب منه أصحابه وتلاميذه. أو قدر ما يوجبه على نفسه، في سبيل عبادة الله ومساعدة القريب. وقصارى الكلام، كان يقضي يومه نهارًا وليلاً بالصلاة أينما كان، في الكنيسة أو في الدرس أو في ساحة المدرسة أو في غرفته أو في البريّة. وما كان يعمل عملاً من أعماله إلا مقرونًا بالصلاة، بأولها وفي خلالها، فكان يطيبها كلها بالصلاة، كما يطيَّب بالملح كل طعام .

وبعد صلاة النوم وفحص الضمير في الكنيسة، ينصرف التلاميذ استعدادًا للنوم، ويبقى هو مثابرًا على الصلاة فيها، نحو ربع ساعة، ثم يخرج ليدق الجرس الصغير للنوم أولاً وثانيًا، وهو لا يزال في صلاته يراقب ويناظر التلاميذ في ساحة المدرسة. وكانت هذه الساحة عرضة للبرد ولكل ريح، قبل تشييد القسم الشرقي والغربي والشمالي، ولاسيما الهواء الشمالي الشرقي السام في أيام الشتاء.

وبعد أن يقفل الأبواب ويطفئ الأنوار، يذهب يفتقد الأخوة في غرفهم، بلطفٍ ورفق، ويعنى بأمر من يجده محتاجًا إلى خدمة أو مساعدة، ثم يذهب إلى غرفته، ويدع بابها مفتوحًا. ويقضي ساعاتٍ بالصلاة والسهر على التلاميذ.

وإذا كان ينام في غرفته أحد، وشعر بأنه استيقظ من نومه على صلاته، يقول له معتذرًا: "نم يا أخي. عليّ صلاة صغيرة، وأنا رايح أخلص". وأما رفيقه فكان يسرّه هذا المنظر ويزيده اعتبارًا واحترامًا له، وهو ينظر إليه كمن ينظر إلى ملاك بجانبه، ولا يشك بأنه يخصّه بشيء من ثقته ومحبته بقبوله إياه في غرفته معه، ويخصّه بشيء من صلواته أيضًا، لأنه كان يقول أن المحبة الصادقة توجب على المحب أن يرغب في الخير، أولاً لنفس صاحبه ثم لجسده.

وما كان أحدٌ من أصحابه ومعارفه يطلب منه الصلاة، إلاّ أجابه إلى طلبه بصلاةٍ خاصة. و لم يكن يكتفي بكلمة الدعاء، بقوله له كعادة بعض الكهنة: الله يوفقك، الله يبارك عليك ويحفظك، وما شاكل. بل كان يبادر إلى تقديم صلاة خاصة لأجل الطالب حسب نيته، لأنه كان يرى أن الطالب ما التمس منه الصلاة إلا لأنه محتاج إلى نعمة الله، وأنه لا يجوز له أن يهمله بدون مساعدة بالصلاة، لنجاحه وخلاص نفسه.

﴿ الفصل الحادي والعشرون ﴾

أيام النزهة

في يومي الأحد والخميس، كان الأب بشارة يذهب بنا كعادة المدارس، إلى التنزه في البرية بعد الظهر. فكان غالبًا يسير متأخرًا عنَّا قليلاً، لتسهل عليه مناظرتنا ومراقبتنا، ولينفرد قليلاً للصلاة، بغير أن يشوش عليه صلاته أحدٌ. وكان عادة يلبس عباءة من الصوف الأسود البلدي المعروف، حتى في أيام الصيف الشديد الحرارة، بدل الصاكو الذي كان يلبسه الكهنة ولاسيما المعلمين، عند خروجهم من الدير لأجل التنزه. وكان غالبًا يحمل المسبحة في يده اليمين، ويحمل بالشمال حجرًا قدر رطل، يخفيه في كمّ العباءة العريض عن عيوب الإخوة التلاميذ.

ولم يكن يجلس ليأخذ راحةً في الطريق، مهما طال. ولا في مكان النزهة، مهما كان الحر شديدًا. ولم يكن يشرب شيئًا خارج بيت المائدة، لا في البرية ولا في المدرسة، مهما كان الحر شديدًا. وكذلك لم يكن يتناول شيئًا من المأكول، خارج بيت المائدة، لا في المدرسة ولا في البرية. وإذا اشترى لنا ما يتفق في وقته وموسمه، من العنب والتين والليمون وباقي الفواكه، التي كانت نادرة في ذلك العهد في دير المخلص قبل جر المياه إليه سنة ١٨٩٧، لم يكن يتناول من ذلك شيئًا.

ومتى بلغنا إلى المكان المعين لنزهتنا، كان غالبًا يتناول كتابًا روحيًّا صغيرًا، يتلو فيه فصلاً أو فصولاً، أو كتاب صلاة يتلو منها ما أراد، وهو يروح ويجيء لمراقبة التلاميذ ومناظرتهم، أو يتلو المسبحة.

ولم نكن نمرّ في نزهتنا على مقبرة إلا أوقفنا، حتى نصلّي لأجل راحة نفوس الأموات الذين دفنوا فيها، ثلاث مرات الصلاة الربية والسلام الملائكي والمجد، وهو يقول لنا: الأموات إخوتنا بالمسيح، يتعذبون في المطهر، ولا يقدرون أن يعملوا عملاً صالحًا، وفاءً لعدل الله عن ذنوبهم، وهم يطلبون مساعدتنا، ونحن لا نقدر أن نساعدهم لبعدهم عنا إلا بالصلاة، وفيهم المساكين المنقطعون، أو المهملون من أقاربهم ومن جميع الناس .

هذا كان قانون حياة الأب بشارة اليومية، في مجمل أعماله الظاهرة، التي كان يمارسها عادةً منذ عرفته سنة ١٨٨٥، وقد حافظ عليها إجمالاً بدون تغير إلى سنة ١٨٩١، حينما خرج من المدرسة إلى دير القمر. بل قد ثبت على ممارسته أعمال التقوى والصلاة، إلى آخر أيام حياته، بأكثر انصباب وبأتم حرية وعبادة. ولا محالة أنه كان معتادًا عليها قبل أن أعرفه، كما يشهد على صحة قولي كل رفاقه الرهبان، وكثيرون من العلمانيين.

﴿ الفصل الثاني والعشرون ﴾

من دير المخلص إلى دير القمر

في سنة ١٨٨٧، انتقل المطران باسيليوس حجار الزائر الرسولي، من كرسي حوران إلى صيدا، بانتخاب الأبرشية الصيداوية له، باتفاق تام أجازه الطيب الذكر البابا لاون الثالث عشر، بعد أن ارتضى به البطريرك غريغوريوس يوسف وكل المطارنة. فأخذ المطران المذكور يُعنى بأمر ترقية الأبرشية وتحسين مدارسها ولاسيما في صيدا ودير القمر. فسعى بمشترى دار المعلم بطرس كرامة، الذي كان مديرًا لأمور لبنان، في عهد الامير بشير الشهابي الكبير في دير القمر، وجعلها مدرسة تحت مشارفة وكيله في دير القمر الأب، اثناسيوس صبَّاغ، الذي صار فيما بعد مطرانًا على عكا. وجعل مديرًا لها ومساعدًا له الأب اكلمنضوس معلوف، (سيادة مطران بانياس حاليًّا) مع الأب اغناطيوس رزق، والأب ملاتيوس حجار، وغيره من رهبان دير المخلص ومن العلمانيين.

وإذ نجحت المدرسة المذكورة، بهمة هؤلاء الآباء، وكثر فيها عدد تلاميذها، اقتضى زيادة عدد المعلمين فيها، فتمنى رئيسها على المطران الاتيان بالأب بشارة، بعدما علم أنه ترك رعاية تلاميذ المدرسة الرهبانية. فاستصعب المطران أن يقبل الأب بشارة الخروج من الدير، لِما كان عليه من شدة الورع، وحبّ العزلة عن الناس والاختلاء مع الله بالعبادة، ولعلمه بأنه ما خرج من المدرسة إلى الدير إلا ليكون منصرفًا بكليته إلى ذلك، لأنه كان يقضي في الدير أكثر أوقاته بالصلوات في الكنيسة، حتى كان لا يخرج منها إلا إذا كانت قوانين الدير الاجتماعية تقضي بذلك.

وكان المطران احترامًا لفضيلته، يكره أن يأمره بعملٍ لا يتفق مع ورعه أو لا طاقة له عليه، حذرًا من أن يكون مظلومًا به. فقال للأب اثناسيوس: اكتب له أولاً، وجسَّ الأرض، إذا كان يقبل أن يخرج من الدير، واسترضه بوعدك له بما يحب، بإطلاق الحرية له بممارسة الصلوات والتأملات وأعمال التقوى. وبعد ذلك نتدبر معه بما نرى.

فكتب إليه الأب اثناسيوس صبَّاغ رسالة لطيفة، بتاريخ ٢٥ تشرين الأول سنة ١٨٩١، وجدناها محفوظة بين أوراقه، يلتمس بها منه بحب ورجاء الحضور إلى دير القمر، ليعلّم الأولاد الصغار في المدرسة الأسقفية، ويرغّبه بذلك بجميل الأجر من الله، وإرضاء خاطره بما يحب ويرغب، بممارسة العبادة والصلوات. ويخبره بطلب المطران له من الأب العام. وقد نقلنا صورة هذه الرسالة على أصلها بخط يد كاتبها رحمه الله، ليقف القراء على ما كان للأب بشارة في نفسه من الاعتبار لتقواه، وعلى ما كان من الحب المتبادل بين الاثنين. ونرجّح أن الأب بشارة لم يكتب له جوابًا على رسالته هذه لا سلبًا ولا إيجابًا، لأنه كان مسلّمًا أمره دائمًا لرؤسائه، ولم يكن يطلب منهم شيئًا يرغبه لنفسه.

وما طال الأمر، حتى أوعز المطران إلى الرئيس العام الخوري غريغوريوس نعمة، أن يُرسل الأب بشارة بأمر الطاعة إلى دير القمر، معلمًا في المدرسة. فكتب له الأب العام أمر الطاعة القانوني، وسلّمه بيده، وشجَّعه ورغَّبه بإتمامه، والسفر إلى محله. فاستلم الأب بشارة أمر الطاعة، وقبَّله وقبَّل يد الأب العام. وما قال له كلمة سوى قوله: "أمركم".

وثاني يوم بعد صلاة الفرض والقداس، سافر إلى دير القمر، حيث قضى نحو ٣٢ سنة، بالعمل بخدمة النفوس وخدمة الكنيسة، بنشاط وغيرة رسولية نادرة، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

ولا يخفى على من يعرف الأب بشارة، أن قبوله الأمر بترك دير المخلص لمخالطة أهل العالم، كان صعبًا عليه وأليمًا جدًّا. ولولا أنه كان يعد الطاعة قبل كل شيء، لما خرج أبدًا من دير المخلص. وقد كان من قبل في المدرسة لشدة ورعه لا يكلم إنسانًا علمانيًا، ولا ينظر إلى امرأة إلا ما ندر.

فأخذ في أول الأمر يعلّم الأولاد الصغار، مبادئ القراءة العربية والفرنساوية، ومبادئ التعليم المسيحي، وبعض الصلوات، بصبر وطول أناةٍ. بل كان فرحًا جذلاً بذلك، لإتمام أمر الطاعة، ومرضاة الله بتعليم الأولاد الصغار واجباتهم نحو الله، حتى يعرفوه ويعبدوه حقَّ عبادته، ويرثوا سعادته أجر عبادتهم له.

وإذ كان الخوري اثناسيوس مُصرّفًا وحده بسماع الاعترافات، فلم يكن بوسعه أن يسمع اعترافات كل من كان يتقدم إليه، أيام الآحاد والأعياد قبل القداس، لأجل مناولة القربان الأقدس في وقته، ولاسيما في فصل الصيف، إذ كان يكثر عدد المصطافين في الدير من أهلها. وكان بعض النساء يذهبن إلى كنيسة الموارنة يعترفن، ويعدن إلى كنيسة مار إلياس لسماع القداس والمناولة على طقسنا. ولا يخفى ما في هذا الأمر من المشقة عليهنَّ. فشكون من هذا إلى المطران باسيليوس. فاقتضى الحال أن صرّف المطران في وقت واحد الأب بشارة والأب اكلمنضوس، بسماع الاعتراف لمن يطلب ذلك منهما. فلم يكن بوسع الأب بشارة أن يرفض قبول سماع الاعتراف لمن يطلب ذلك منه، سواء كان من الرجال أو النساء. نعم إن الحياء والورع الشديد كان يمنعه عن مكالمة النساء، ولكن الطاعة لأمر الرؤساء ولاسيما في ما فيه خلاص النفوس، سهّل عليه كل صعوبة في هذا الأمر وغيره، كما كان دأبه في كل أموره.

﴿ الفصل الثالث والعشرون ﴾

وادي الدير

قبل أن تنقضي عليه السنة الأولى في دير القمر بتعليم هؤلاء الصغار صار الخوري اثناسيوس صبّاغ رئيسًا عامًا على الرهبانية المخلصية في أول أيلول سنة ١٨٩٢ فخلفه في وظيفته بالنيابة الأسقفية ورئاسة المدرسة في دير القمر الأب اكلمنضوس المعلوف. وإذ كان هذا يذهب أيام الآحاد والأعياد، ليقدس في وادي الدير والمزارع التي بجواره تعذر عليه هذا الأمر حينئذٍ، وصارت هذه الرعية بلا راعٍ.

وكان المطران باسيليوس، يقضي فصل الصيف في دير القمر، كعادة أسلافه. وإذ كان ذات مرة على الغداء مع الكهنة، قال لهم بسمع الجميع: عيّنا الخوري اكلمنضوس رئيسًا للمدرسة، فانحرمت الوادي من الخوارنة. وصارت الرعية بلا راع يخدمها. وصار الشيطان يسرح ويمرح فيها ويقول: أين راح الخوري بشارة لينزل إلى الميدان...

فقال له الخوري بشارة، وقد فهم مراده وقصده وخفض رأسه وصوته: أنا تحت أمر سيادتك، وأنا مستعد لأن أنزل إلى الوادي، وأحارب الشيطان بأمرك وبركة سيادتك. ونهار الأحد التالي، نزل الأب بشارة إلى وادي الدير، وقدس هناك أول قداس، في شهر أيلول سنة ١٨٩٢. وقد فوّض إليه المطران سماع الاعترافات، وتوزيع باقي أسرار الكنيسة لكل طالب. ومن ثم أخذ الأب بشارة يحارب الشيطان بأقواله وأعماله، حتى غلبه وقهره بنعمة الله.

﴿ الفصل الرابع والعشرون ﴾

بدء سيرته في الوادي

منذ تعين الأب بشارة لخدمة نفوس أهل هذا الوادي الجميل، جعل لنفسه سُنّة، لم يخالفها إلا إذا كان مضطرًا إلى ذلك بقوة قاهرة أو لضرورة خارقة. فكان يغدو صباحًا، حتى كان يصل إلى هناك قبل شروق الشمس، بعد أن يكون قضى صلاته الفرضية في كنيسة الدير أمام القربان، حيث كان يجد كل الكتب اللازمة لذلك. وكان في طريقه يرفع عقله وقلبه إلى الله، ويرفع يديه إلى السماء كعادته بصلاة حارة متصلة، لا يراه ولا يسمعه أحد غير الله تعالى وملائكته إلا نادرًا. ولم يكن يصده شيء عن ذلك، مهما كانت الأمطار غزيرة ومهما كان البرد شديدًا.

وحين يبلغ البيت الذي يجب أن يقام فيه القداس، كان ينظر في ما يحتاج إليه المذبح، لإقامة القداس الإلهي بشكل لائق. وكان يقوم دائمًا بوظيفة قندلفت، في كل الكنائس التي كان يقدس فيها كما قلنا. ثم يأخذ بسماع اعترافات من كان يتقدم إليه لذلك، إلى أن ينتهي منها. ويكون قد حان الوقت المعيّن للقداس، فيبدأ فيه كعادته بخشوع وتقوى. وفي آخره كان يعظ الحاضرين بكلامه الحي، على مقتضى أحوالهم بكل بساطة. ولم يكن يهمه بوعظه إلا إفادة النفوس وخلاصها. وبالحقيقة لم يكن وعظه إلا تنبيهات وجيزة متقطعة، لكن بليغة لا تخلو من الفائدة، وجميل الأثر في نفوس سامعيها. لكونها صادرة عن نفس بارة وغيرة شديدة. وكان يقويّها ويعضدها بمثله الصالح، في قداسه وصلواته في

الكنيسة، وفي خارجها بسلوكه مع الجميع. ولاسيما في زيارته للمرضى في البيوت، واهتمامه بخلاص نفوسهم، ومساعدتهم على ذلك بكل الوسائط التي في طاقته، بدون أن يبتغي عن ذلك منهم نفعًا. وفي الاخير كان ينبّه عليهم بأنّ القداس التالي سيكون في بيت فلان، بعد أن يكون اتفق عليه مع أصحابه، حتى يُعدُّوه وينصبوا فيه مذبحًا لائقًا، ويتفرغوا له عنه لأجل سماع الاعترافات، وحتى يعرف ذلك الجميع، ويأتوا إليه رأسًا بدون حاجة إلى تنبيه آخر، إذ لم يكن لهم جرس ولا ناقوس.

وبعد القداس، كان يذهب يتفقد المرضى ويصلي عليهم، ويحرّضهم على الصبر وتسليم أمرهم لإرادة الله في مرضهم. ويحثهم على الاعتراف، ولو كانوا في مرض غير ثقيل. وكذلك كان يتفقد كل من كان يتخلّف عن سماع القداس. وإذا عرف أن أحدهم ترك القداس لإهمال أو لكسل، أخذ يوضح له واجبات الإنسان نحو الله خالقه بالعبادة له، ولاسيما بسماع القداس، الذي هو أكمل وأفضل طرق العبادة. وإن الإنسان لا يقدر أن يستغني عن الله، الذي منه كل خير في هذه الدنيا والآخرة. ولا يزال به على مثل هذه الأقوال البسيطة البليغة، حتى يأخذ منه وعدًا ثابتًا، بأن لا يعود يتخلف عن حضوره القداس مرة ثانية.

وإذا عرف أن أحدهم ذهب وقت القداس إلى الشغل في أرضه، ذكّره بكلام السيد المسيح لمرتا، بأن مريم اختارت لنفسها حظًا صالحًا لا ينزع منها، بسماعها كلام الله. ثم يقول له إن القداس لا يقتضي له أكثر من نصف ساعة، يجب أن تصرفها في سبيل عبادة الله وخير نفسك. والباقي من يوم الأحد وكل الأسبوع، أنت حرٌ فيه، وكله لك، وإذا كنا لا نصرف نصف ساعة في الأسبوع لعبادة الله، فلسنا نحن عبيدًا لله حقيقة، بل نحن عبيد أجسادنا، مع انه يجب أن نعبده تعالى دائمًا،

ونحبه فوق كل شيء، من كل قلوبنا ونفوسنا. ولا يزال يخاطبه بمثل هذا، حتى يعده الرجل وعدًا صادقًا بما يطلب منه.

وإذا عرف أن أحدهم يترك القداس يوم الأحد والعيد، ليذهب يشتغل عند الدروز لسد حاجته لفقره، دفع له أجرة يوم أو أكثر وقال له: الله كريم ويدبر الجميع، فاتّكل عليه فلا يهملك. ولا يهمل أحدًا. وهو يعوّض عليك أضعافًا في هذه الدنيا، وفي الآخرة ملكوت السماوات. فيخجل منه الرجل حياءً. والحياء من الدين، فيعده بالتوبة.

وإذا اعتذرت إليه امرأة أو ابنة، بأن ليس عندها فسطان تلبسه بنوع لائق أمام الناس في الكنيسة، دفع لها ثمن فسطان مما يتيسر له من أهل الخير. وقال لها: "الله كريم الله يرزق الجميع". وإذا أجابه أحدهم بأنه حضر القداس في دير القمر، استتلى عليه السؤال: "أي كاهن قدّس؟ وماذا قال الإنجيل؟...

وإذا كان أحدهم مريضًا مرضًا يضطره إلى ملازمة الفراش، فلا يكتفي بأن يعوده مرة في الأسبوع حينما يأتي للقداس، بل كان يأتي لزيارته مرارًا، وخصيصًا من الدير. ولا فرق بأن يكون المريض من طائفته، أو من طائفة الموارنة، إذ لم يكن ينظر إلى هذا الفرق، بل كان منصرفًا في كل أعماله إلى خير النفوس، وإلى ما يريده الله منه. وكان على لسانه وفي قلبه قول الله لنبيه: "إني أقمتك رقيبًا لهذا الشعب، وكل نفسٍ تهلك اطلب نفسك عوضها". وكان المرحوم المطران بطرس البستاني، وخلفه المرحوم المطران بولس بصبوص، وسيادة المطران أوغسطين البستاني، فوضّوا إليه خدمة نفوس الموارنة الذين في وادي الدير وجواره، حيث لم يكن لهم كاهن من طائفتهم. ولم يكن يأخذ منهم شيئًا. بل لم يكن يثقّل عليهم بأمرٍ، كما كان هذا من شأنه مع أبناء طائفته، سواء كانوا فقراء أو من ذوي اليسار.

وإذا دُعي من دير القمر، إلى زيارة مريض بمرض ثقيل من أهل الوادي وسواهم، بادر إليه بسرعةٍ، لا يمنعه عن ذلك ظلام الليل، ولا وحشة الطريق، ولا شدة الحر في الصيف، ولا شدة الأمطار والبرد في الشتاء، مهما كان بيته بعيدًا، لاعتقاده أن مساعدة المدنف أهم من كل شيء. وإن عذاب الجسد مهما كان حتى الموت، هو يسير، بل هو خير وسعادة في سبيل خلاص النفس، في المعركة الأخيرة في ساعة الموت. ولذلك لم يكن ينام البتة على فراشٍ الليل كله، إذا دعي لمساعدة مدنف. بل كان يحيي الليل كله بالصلاة لأجله، إما وحده، أو بالاشتراك مع الآخرين. وقد أكّد لي غير واحد منهم، أنه لم يَمُت أحد من رعيته إلا كان على استعداد تام للقاء ربه، مزودًا بكل أسرار الكنيسة، التي فيها قوة ونعمة للانتصار في الساعة الأخيرة على الشيطان.

﴿ الفصل الخامس والعشرون ﴾

العَود أحمد

أسرة أبي رجيلي أسرة كبيرة، ذات فروع جمّة، وأفرادها متفرقون في قرى الشوف والعرقوب والمناصف، والمتن والجرود والبقاع وبيروت. وفريق كبير منهم يتبع طائفة الروم الكاثوليك، ومنهم جماعة يتبعون طائفة الروم الغير الكاثوليك، ومن هؤلاء سيادة المطران ثاوضوسيوس أبو رجيلي المولود في بيروت.

وكان الذين يسكنون منهم في مقاطعة المناصف من أبرشية صيدا، تابعين المذهب الكاثوليكي من أول القرن الثامن عشر، بفضل غيرة الطيب الذكر المطران افتيميوس الصيفي، وتلاميذه رهبان دير المخلص. إلا أن بشير بك أبا نكد وأخاه قاسم بك، أتباعًا لسياسة الدروز العامة، وعملاً بمشورة الانكليز أنصارهم، كانوا يُكرِهون الروم الكاثوليك منهم على ترك مذهبهم الكاثوليكي، وإتباع مَذهب الروم الأرثوذكس، ليقطعوا كل علاقة لهم مع قناصل فرنسا. فاضطرّ كثيرون من المذكورين أن يتبعوا مذهب الرّوم الأرثوذكس، منذ حوادث سنة ١٨٤٥، مكرهين على ذلك بالقوة القاهرة، من قبل مواليهم بيت أبي نكد أصحاب المقاطعة، وجعلوهم يسيرون أمامهم بحملاتهم، على قتال دير القمر وغيرها من قرى النصارى سنة ١٨٦٠.

ولبثوا هكذا إلى عهد الأب بشارة، مهملين بأمور دينهم، كالرعية السائمة بدون راع. غير أنه كان يزورهم مرة في السنة، خوري كفرمتّى، وإذا دعاه أحد منهم إلى عماد أو إكليل أو جنازة.

وكان كثيرون منهم، لجهلهم وتعصبهم في مذهبهم، يأنفون الاشتراك مع إخوانهم الروم الكاثوليك بسماع القداس أيام الآحاد والأعياد، عندما كان يأتي لهذا الغرض الأب اكلمنضوس معلوف وخلفه الأب بشارة. بل كانوا في أول الأمر، يرفضون قبول الأب بشارة في بيوتهم، إذا أراد زيارة مرضاهم. وكذلك كانوا يرفضون قبول كل مساعدة أو إحسان منه. وكان البعض منهم يقولون له بوجهه: "مرادك أن تبرطلنا، لنصير كواتلة تبَّاع البابا، مثلكم ومثل الموارنة. لا نقبل ولا نرضى. نعم أنتم بالظاهر مثلنا بالطقس، لكن أنتم تعبدوا البابا مثل الموارنة، لا نتبع البابا، ولا نعبده، والسما زرقا".

فكان الأب بشارة يضحك لهذا الكلام، ويقول لصاحبه: "الله يساعدك. نحن لا نعبد البابا. ولا نعبد غير الله تعالى، لكن عبادتنا لله أفضل لأنها بالطاعة. والدين بلا طاعة ناقص لا ينفع".

وكان الروم الكاثوليك إذا بلغهم مثل هذا يغضبون، ويؤنبون الأب بشارة ويقولون له: "لا تذهب إلى بيت أحد منهم إلا إذا كلفوك. يجب أن تحافظ على شرفك وشرف طائفتك، وإلا فنحن نزعل ولا نعود نحضر قداسك. وهؤلاء روم عنيدين. ويشوفون حالهم كثيرًا. ويعدّون نفوسهم أفضل منَّا، وأفضل من كل الكاثوليك، واشرف من البابا ولو كانوا فقراء نظيرنا".

فكان الأب بشارة يكسر شوكة غضبهم، بقوله لهم: "هؤلاء مساكين. غشماء. الله يساعدهم. الله يهديهم. كلامهم هذا عن بساطة قلب.وهم إخوتنا في المسيح وأقاربكم، وهم أقرب كل الأمم إلينا في الدين. وطقسنا مثل طقسهم. يجب أن نحبهم، ونرغب الخير لنفوسهم، ونصلي من شأنهم كل يوم، لأننا نشاهدهم كل يوم في بيوتكم، وهم جيرانكم. وتتعاملون معهم بالأكل والشرب والشغل والبيع والشراء.

وعندهم قداس وكهنوت ومعمودية وكل الأسرار. ويحبون العذراء والقديسين والصليب الخ...."

وكان يجيب من يقول له منهم: خورينا يكفينا أن يزورنا بالسنة مرة بقوله: "الدين ما فيه خسارة. تفضلوا اسمعوا كلام الله والإنجيل وكلام القديسين، عندما لا يكون عندكم قداس ولا خوري. صلاتنا مثل صلاتكم. وما في هذا خسارة عليكم ولا ضرر. تفضلوا. جرّبوا. أهلاً وسهلاً بكم". ثم صار يزورهم، ويقدم لهم المساعدات المادية ويرشدهم، فبدأوا يحضرون القداس. ثم صاروا يستدعونه لزيارة مرضاهم وبيوتهم.

ومازال مثابرًا على ذلك ومواصلاً الصلاة من أجلهم، حتى ربحهم للكنيسة وربح نفوسهم لله، وأخضعوا عقولهم وقلوبهم لطاعة الله والبابا. وصاروا يجدون في ذلك سعادة وغبطةً لهم، بعد أن تحققوا عن خبرةٍ، أنَّ هذا الأب الفاضل هو الراعي الصالح، الذي يبذل نفسه في سبيل رعيته، لأجل الله. ولا يبتغي من الرعية لا حليبًا ولا صوفًا ولا لحمًا. ولا يرجو شيئًا منها لنفسه، بل كل عمله لأجل رضى الله، وخير نفوسها. ومن ثم، بعد جهاد وتعب جزيل، انتصر الأب بشارة على روح الشقاق وقهر الشيطان.

والذي حملهم أخيرًا إلى إجابة دعوته بالعودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية، إن مرض رجل اسمه جرجس ذيب الحداد من كفرمتّى، مرضًا ثقيلاً اشرف على أبواب المنون، فاستُدعِيَ له خورى كفرمتّى كالعادة. إلا أن الخوري المذكور لم يحضر إلا بعد أن فارق المريض الحياة. لكن حالما علم الأب بشارة بمرضه، أخذ يزوره ويهتم بأمره كعادته مع الجميع. وإذ ثقل المرض عليه، أبى أن يفارقه، حتى سمع اعترافه ومنحه سر المسحة والزاد الأخير، وقضى عنده ثلاثة أيام بلياليها ساهرًا عليه، حتى فارق هذه الدنيا على أتم استعداد للقاء ربه. ولَّما بلغ

خبر موته خوري كفرمتّى، بادر مع أهل الميت إلى الوادي لجنازه ودفنه، قبل أن يسبقه إلى ذلك الخوري بشارة. لكن الأب بشارة لم يكن يبالي بمثل هذه المزاحمة، إذ كان يقول له البعض: سبقك خوري كفرمتّى ومات الرجل وأخذه الروم، وذهب كل تعبك باطلاً. فكان يقول لهم الأب بشارة: "لا بأس في هذا، لأن الجثة بعد مفارقة النفس لها بالموت، لا قيمة لها. فهي تراب وإلى التراب تعود. لكن المهم في الإنسان النفس، التي هي على صورة الله ومثاله، وهي الجوهرة الكريمة، فإذا انتقلت إلى الله بموتٍ صالحٍ ونالت سعادتها معه، فلا تعود تبالي بما يجري لهذا الجسد".

وقد وقع عمل الأب بشارة هذا وقعًا حسنًا في نفوس الجميع، ولاسيما عندما شاهدوا أن خوري كفرمتّى لم يرد أن يفارق الوادي إلا بعد أن جمع منهم رسم نورية المطران وأجرة الجناز له.

﴿ الفصل السادس والعشرون ﴾

الذين عادوا إلى الكنيسة الكاثوليكيّة

تتمة للفصل السابق، ينبغي لنا أن نذكر هنا مفصلاً، الذين عادوا إلى حضن الكنيسة الكاثوليكيّة، من أسرة أبي رجيلي السابق ذكرها، على يد الأب بشارة.

كان منها فرع نعوم أبي رجيلي فقط كاثوليكيًّا بكل أفراده، واشتهر من هذا الفرع عبد الله نعوم، وأولاده ديمتري وخليل وحسن والد رئيسنا العام سابقًا ومطران صور حاليًا، الذي ذُكر مرارًا في هذا الكتاب.وهذه الأسرة، مع أسرة بيت الحصروتي وأسرة جرجورة، كانوا يؤلفون كل طائفة الروم الكاثوليك في الوادي، وهم أصل رعية الأب بشارة في أول الأمر، عندما تعين كاهنًا لهم سنة ١٨٩٢. وكان فريق منهم يسكن في وادي الدير، وفريق آخر منهم يسكن في وادي بمحليه بجواره.

وأما باقي فروع هذه الأسرة (أبي رجيلي) من سكان مقاطعة المناصف، فكانوا منتشرين معهم، في وادي الدير، ووادي بمحليه، والجاهلية، وخلة قبال وسرجبال، وبنوييتي وغيرها[1]، وكانوا من عزوة

---

(1) ـ هذا جدول أسماء الضيع التي كان متقلدًا خدمة نفوس أهاليها من طائفة الروم الكاثوليك والموارنة:

(١) وادي الدير (٢) وادي بمحليه (٣) وادي أبو يوسف (٤) بنوييتي (٥) خلة قبال (٦) سرجبال (٧) البقيعة (٨) الدلهمية (٩) بعقلين (١٠) شمعرين (١١) الفخيته (١٢) بقعون (١٣) الجاهلية (١٤) الدبية (١٥) بكشتين (١٦) دردوريت.

بشير بك أبي نكد، من أكبر زعماء الدروز الذي اشتهر في حوادث سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٦٠. وكان أكثر أفرادهم يسكنون في سنة ١٨٩٢ ضيعة بنويتي، التي كانت من أملاكه الخاصة، وقد اشتراها من ورثته المرحوم سليمان خطار وأولاده، وهي اليوم ملكهم.

فقد ارتدّ سائر فروع هذه الأسرة بالتدريج على يد الأب بشارة، بكل أفرادهم ذكورًا وإناثًا كبارًا وصغارًا.

الفرع الأول منها وهو الأكثر عددًا يُقال له بيت عطا الله أبو رجيلي[1].

وفي بعض السنين كان يذهب إلى بعض القرى لإتمام الوصية الفصحية لأهلها إذا لم يكن فيها كاهن خاص مثل غريفة وعنبال وكفرقطرة وبطمة والمختارة وعين زحله والمعاصر والباروك وكفرنبرخ والخريبة وغيرها وكان يقضي في كل قرية منها أسبوعاً أو أكثر أو أقل لإتمام هذه الوصية العظيمة المهمة لكل أفرادهم بحيث لم يكن يتخلف عن ذلك أحد منهم. وفي أثناء السنة كان يفتقد مرضاهم حالما يعرف بمرض أحد منهم ولو كان مرضه خفيفًا.

(1) – أفراده:

سليم حنا محفوظ وأهل بيته
أخوه شاكر حنا محفوظ وابنه رشيد
محفوظ يونس محفوظ وكل أهل بيته
أخوه مخائيل يونس محفوظ وكل أهل بيته
أخوه أيضًا فارس يونس محفوظ
أسعد خليل مقصود وولاداه نمر وشهدان وكل أهل بيتهم
أمين خليل مقصود وأولاده سعيد وداود وأهل بيوتهم
حبيب داود وولداه يوسف وداود وأهل بيوتهما
نفّاع شاهين نفّاع وأولاده شاكر وملحم وشاهين وأهل بيوتهم
حنّا شاهين نفّاع وولداه منصور وجرجس وأهل بيوتهم

عطا الله أبو رجيلي

الفرع الثاني، يقال له بيت خليل أبي رجيلي[1].

الفرع الثالث، يقال له بيت ذيب إلياس أبي رجيلي[2].

نجم شاهين نفَّاع وابنه ضاهر وأهل بيتهما
يوسف شاهين نفاع وأولاده ذيب ونعمة وشاهين وفريد وأهل بيوتهم

(1) – أفراده:

أسعد سليمان أبو رجيلي

خليل أسعد سليمان وابنه أسعد
وكان خليل أهم مساعد للأب بشارة بعودة أقاربه
أخوه سليم أسعد سليمان وأولاده نجيب وسعيد وحليم وكل أهل بيوتهم

(2) – أفراده :

ذيب إلياس أبو رجيلي

نمر إلياس ذيب وأهل بيته وهو آخر من ارتد إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية قبل أن يموت إذ اعترف وتناول عن يد الأب بشارة
أخوه حنَّا إلياس ذيب وأهل بيته
عبد المسيح جبرائيل ذيب وأولاده سعيد ومخايل وأهل بيتهم
شاهين طانوس جبرائيل وأهل بيته
ملحم مخايل وأولاده مسعود وسعيد
وداود وأسعد وأهل بيوتهم
ناصيف مخايل وابنه ضاهر وأهل بيته
إبراهيم مخايل وولداه مخايل ويوسف وأهل بيوتهم

﴿ الفصل السابع والعشرون ﴾

شدّة الحاجة إلى الكنيسة

الكنيسة لفظة يونانية، تستعمل في لغات شتى بلفظها ومعناها، ويُراد بها أصلاً جماعة المؤمنين بالمسيح. وبالنقل صارت تدلّ على مكان اجتماعهم المعروف، لعبادة الله بوجه خاص، على نظام ثابت، معروف بطقوس الكنيسة.

كان يُعَدّ دائمًا قيام الكنائس من أجل أعمال التقوى، ومن أعظم أدلة الغيرة الدينية عند المسيحيين، لأنها مدعاة لاجتماع الناس فيها لعبادة الله، سواء كانوا صالحين أو خطأة. وقد جرت العادة منذ أول عهد النصرانية، أن يبارك المطران أو البطريرك الحجر الأول بأساسها، في حفلة دينية عظيمة، ويضع اسمه واسم الحاكم العام، مع بعض قطع ذهب وفضة مما يتعامل به الناس، في الحجر المذكور، دلالةً على أن أساس الكنيسة قام بهمة واتفاق أولي السلطتين الروحية والزمنية. وأنه لا يتم بنيانها وزينتها إلا بمساعدة أهل البر والإحسان والاشتراك به.

ولا حاجة بنا أن نوضح هنا بإسهاب، أن جمال الكنائس وحسنها وزينتها وعظمتها، يحبب إلى الناس الصلاة وعبادة الله فيها، ولاسيما إذا كان لهم آثار خير فيها. وهي تذكارات تقوية، لا ينساها أصحابها وأولادهم وأحفادهم، مهما طال أمرها، وهي عند الله أجمل وأبقى.

ومعلوم أن الإنسان الفرد، لا يستطيع أن يقوم بنفقة ما يلزم لقيام كنيسة، إلا إذا كان بمقام رهطٍ كبير بكرم نفسه وغناه. ومهما كان كريمًا وغنيًا، فلا مانع يصدّ أهل التقوى، عن تقديم ما يوجبون على

أنفسهم، من النذور والهدايا لزينتها وجمالها، وما يضمن دوام بقائها بوجهٍ لائقٍ لعبادة الله تعالى.

فلما تعين الأب بشارة، لخدمة نفوس الروم الكاثوليك، الذين في وادي الدير وجواره، لم يكونوا يتجاوزون عشرة بيوت، وأكثرهم أو كلهم شركاء مزارعين لأصحاب الأملاك فيها، من مشايخ الدروز النكديين وأهل دير القمر. وأصحاب الأملاك منهم لم يكونوا من ذوي اليسار. وليس بوسعهم القيام بمعاش كاهن يتخصص دائمًا لخدمتهم. وبالتالي لم يكونوا يستطيعون القيام بما يلزم للكنيسة. ولذلك تعين الأب بشارة، أن يذهب إليهم من دير القمر، كل يوم أحد وعيد، لخدمتهم الروحية، بدون أن يثقّل عليهم بشيء. وكانت الضرورة أيضًا، تقضي عليه أن يُقيم القداس في بعض البيوت.

وكان سابقًا كاهن قرية دردوريت من الرهبان الموارنة، يقوم بخدمة نفوسهم مع نفوس الموارنة الذين هناك، لأن دردوريت أقرب إليهم. ولكن اذ عاد الراهب المذكور إلى ديره، لبثوا كلهم مدة طويلة بدون كاهن خاص، ولكن كان يأتيهم أحد الكهنة من دير القمر عند الحاجة. وحينما أخذ الأب بشارة يقدّس في الوادي، صاروا كلهم يأتون إليه، ويسمعون قداسه، وأخذ على نفسه خدمة نفوسهم في كل أمر، بإذن مطرانهم كما قلنا.

وإذ كثر عدد نفوس هذه الرعية الصغيرة، بالموارنة وبالروم غير الكاثوليك، الذين أخذ بعضهم يأتون تباعًا وتدريجًا لسماع قداسه، مع إخوانهم الروم الكاثوليك، من سكان وادي الدير، ووادي بمحليه، وسرجبال، وبنوييتي، وغيرها، صار البيت يضيق بهم طبعًا لكثرتهم، ومن ثمّ صاروا كلهم أفرادًا وإجمالاً يطلبون قيام كنيسة. وقد جرى الحديث مرارًا بهذا الشأن فيما بينهم مع الأب بشارة. ولكن ما عسى أن يفعل،

وهو نظيرهم لا يملك شيئًا مما يلزم لذلك من النفقة، إلا الرجاء به تعالى، وما في قلبه من غيرة، لعبادة الله ومساعدة القريب في سبيل ذلك. ولابد أنه كان يقول في نجواه مع الله "غيرة بيتك أكلتني" (مز ٦٨: ١٠).

ولا ريب بأن هذا الأمر كان يجول مرارًا كثيرة في خاطره، وكاد يلازمه ويزعجه في صلاته. ولم يكن يدري ما يفعل في سبيل ذلك إلا ملازمة الصلاة، بتواضع وتذلل إلى الله تعالى، مصدر كل خير وتوفيق.

وإذ كان، على ما يعرفه كثيرون، شديد الحياء، كان هذا يمنعه أن يدخل باكرًا، إلى البيت المعدّ للقداس، على أصحابه، خشية أن يكون بعضهم نيامًا. وكان يلبث يصلّي خارجًا، إلى أن يفتحوا له الباب، ولو كان المطر نازلاً، والبرد والهواء شديدًا قارصًا. وما كان يبالي بهذا، ولم يكن يهتم براحة جسمه، إذا كان يجد في ذلك أدنى ثقلة على الناس.

وإذ كان قد اعتاد أن يسأل من أبصرهم بعد القداس، ممن لم يكن قد نظرهم فيه: "أين كنت؟ ولماذا لم تحضر القداس؟" وكان بعضهم يجيبه، معتذرًا بضيق المكان وأنه كان خارجًا، فكان هذا يزعجه ويمضّه كثيرًا، لعلمه أن هذا العذر لا يخلو من الصدق والحق، فكان يسلّم تدبير ذلك إلى الله كما يشاء تعالى، بصبرٍ ورجاء.

﴿ الفصل الثامن والعشرون ﴾

قيام الكنيسة

بينما كان أهل الوادي الكاثوليك مجتمعين ذات يوم سنة ١٨٩٤ بعد القداس، أمام بيت خليل جرجورة، حيث كان يحتفل بالقداس الأب بشارة، وجرى الحديث عن الكنيسة وطال، قال أحدهم بلهجة شديدة بعد سكوت طويل منه: "كفّوا عن مثل هذا الكلام الذي لا فائدة منه، فقد كفاكم ما مضى. الكنيسة لا تقوم بدون المطران. وماذا تترجون من الأب بشارة المسكين. فإذا أردتم أن تسمعوا مني، اذهبوا كلموا المطران، واطلبوا بركته ومساعدته وتدبيره. فهو أكبر عقلًا منَّا كلنا، وأوسع معرفة بالتدبير وأبواب الخير". فاستصوبوا كلهم رأيه، وقرروا أنه عندما يأتي المطران باسيليوس إلى دير القمر، لقضاء فصل الصيف كالعادة، يذهب كبارهم للسلام عليه ويكلمونه بهذا الشأن. واشترط بعضهم أن يكون معهم الأب بشارة. وأن يكون هو أول المتكلمين مع المطران.

وإذ بلغهم من الأب بشارة، أن المطران حضر إلى دير القمر، ذهبوا للسلام عليه وتخلّف عنهم الأب بشارة، ليزور المرضى والذين لم يحضروا القداس. ولما اجتمعوا بالمطران وقبّلوا يده، سألهم كيف حالكم مع الأب بشارة؟ وهل تسمعون كلكم قداسه في كل أحدٍ وعيد؟ فقال له أحدهم: الله يطوِّل عمرك وعمره يا سيدنا، نعم كلنا نسمع قداسه، حتى إنه ما عاد يسعنا البيت. وصرنا محتاجين إلى كنيسة. فأجال المطران نظره فيهم وبشّ لهم، بعدما رأى ابتسامة فرح تبدو على وجوههم كلهم. وأدرك مرادهم وقال لهم: طيّب، اعملوا إذًا همة بقيام الكنيسة.

فقال له غير واحد: الهمة همتك يا سيدنا. ولا تعْمَر كنيسة إلا بهمتك، وكلنا محتاجون إلى بركتك وهمتك. فقال المطران: طيّب أنا مستعد بكل طيبة خاطر إلى مساعدتكم. لكن ماذا عندكم الآن من رأس المال للنفقة؟ فقال أحدهم: نحن فقراء يا سيدنا، وليس عندنا مال، ولكن نقدّم ذواتنا للعمل والشغل، ونقدّم الأرض وكل الحجارة اللازمة.

فسأل المطران خليل جرجورة: ماذا تقدم أجرية ومساعدة؟ فقال له: يا سيدنا أقدّم الأرض اللازمة من رزقي، لكن لا أتجاسر أن أتقدم على سيادتك، لا أنا ولا غيري. لأن الكنيسة كنيستك، ونحن كلنا أولادك. والأولاد لا يتقدمون على والدهم في شيء.

فبشَّ المطران له، وأخذ يقول لكل واحد منهم. وأنت ماذا تقول وماذا تقدم؟ إلى أن انتهى منهم كلهم. وكان حينئذ قد حضر الأب بشارة من الوادي، فاستدعاه المطران، وبعد أن قبّل يده سأله: كيف رضاك عليهم؟ فأجابه المهم رضاك يا سيدنا. ومن أنا حتى يهتم الناس برضاي. فقال له المطران: ما قولك في طلبهم عمار كنيسة وليس عندهم خميرة؟ فأجابه: من أين عندهم الخميرة وكلهم مساكين. الله يساعدهم.

ثم سأله: هل يعرفون ويؤمنون، أن في عمار الكنيسة شرفية، وأجرية لهم في الدنيا والآخرة؟ فقال له: مساكين ناس ملاح. الله يساعدهم. ثم قال المطران: وهل تريد أن تساعدهم أنت؟ فضحك وأجابه: الله يساعدني ويساعدهم. ومن أنا حتى أقدر أن أساعدهم. لكنهم يرجون مساعدة سيادتك، وأنا مستعد أن أشتغل معهم مثل فاعل نظيرهم. وعندي كم قرش رزقها الله، أقدمّها في هذا السبيل، إذا أمرت سيادتك.

فالتفت المطران إليهم، وأجال نظره فيهم بابتسام، وقال لهم: اسمعوا مني، وسلموا هذا الأمر للأب بشارة، فتنجحوا وتتوفقوا، لأن ذمّته مليحة، وغيرته عليكم وعلى بيت الله أحسن وأحسن. واعملوا هذه الكنيسة على اسمه، سيدة البشارة، لتكون له ما دام حيًا، ومتى مات بعد عمر طويل يكون قبره فيها. فقالوا له: أمرك يكون يا سيدنا، ولكن مسكين الأب بشارة مثلنا.

فتبسّم الأب بشارة، وأطرق نظره في الأرض حياء، وسكت مليًّا، وقد علت وجهه حمرة الحياء والخجل من هذا المديح، حتى كاد يخرج منه الدم.

ثم قال لهم المطران أطيعوا، وتأكدوا أن الله يوفقه أكثر منكم، حتى يعمر بيتًا لله عندكم. فقالوا له: أمرك يكون يا سيدنا ثم دخل المطران بالأب بشارة في خلوة، وذكر له المحسن الكبير في ذلك العهد، المرحوم بشارة الخوري، وأوعز إليه أن يذهب إلى بيروت، ويطلب مساعدته للكنيسة، وأخذ يرغّبه في ذلك، بأنه رجل غني وتقي ويحب الخير، ويحسن كثيرًا إلى الفقراء والكنائس. فأجابه الأب بشارة: الله يعطيه خلاص نفسه، ويعوّض عليه. لكن من أنا حتى يعتبر كلامي يا سيدنا. بل أنت المعتبر عنده، وتعرفه ويعرفك ويحترمك، فاكتب له أنت بما تحب.

فقال له المطران: طيب أنا اكتب له، واستعد للسفر غدًا إلى بيروت، لتأخذ مكتوبي، وتوكّل على الله، وصلِّ للعذراء، حتى يلهمه الله ليعطيك مبلغ عشرين ليرة حتى تباشر بالشغل. فقبّل يده، وذهب توًا إلى الكنيسة ليصلي، وكله أمل ورجاء بالله وبوالدته. وكذلك الجماعة قبّلوا يد المطران، وعادوا إلى الوادي مسرورين، وهم يقولون فيما بينهم: إن شاء الله تكون هذه الخلوة فيها خير.

وثاني يوم صباحًا، سافر الأب بشارة إلى بيروت بالعربية، بعد صلاة الفرض والقداس، ومعه مكتوب المطران، متكلاً على الله. ولذلك قضى الطريق كله بالصلاة كعادته.

وكان المطران باسيليوس، من عادته أن يتودد إلى كبار الرجال، الذين كانوا يزورونه في دير القمر، ويعرّفهم بالأب بشارة، ويذكر لهم أعماله، ثم يستدعيه إلى مجلسه ليعرّفهم به شخصيًا. وعندما كانوا ينظرون إليه، بالحياء والحشمة وانخفاض النظر والسكوت، كان يزداد اعتبارهم له، ويتحققون صدق ما يقال عنه. ولعلَّ هذا وقع غير مرة، مع رجل الخير المذكور بشارة الخوري، أثناء زيارته للمطران. ولما وقف على مكتوب المطران، ونظر أن حامله الأب بشارة نفسه، أكرمه ودعاه لتناول الغذاء معه في داره، ليعرّف به أهله ويبارك أولاده. فشكره الأب بشارة، واعتذر بعدم إمكانه ذلك، لاضطراره أن يرجع في اليوم نفسه مع العربجي بعد الظهر بدون تأخير.

وكان الأب بشارة، بانخفاض نظره ورأسه وصوته في كلامه معه، كعادته مع جميع الناس، يجعل الإنسان يحترمه ولا يخالفه ولا يراجعه فيما يريد. ولذلك قصر معه الكلام بهذا الشأن بشارة الخوري، وقال له: كم ليرة تريد يا حضرة الأب المحترم؟ فأجابه قدر ما يسمح به خاطرك يا حضرة الخواجا. فقال له: بل قدر ما تأمر أنت؟ فقل إذن ولا تخش، لأن المسألة ترجع إلى أمرك فخجل الأب بشارة وأجاب: بل الأمر أمرك يا حضرة الخواجا، ونظر الخواجا بشارة إليه بعد سكوت طال، وادرك أنه يزعجه بمثل هذا السؤال، فقال له: هل يكفيك مبلغ عشرين ليرا؟ فأجابه: كثّر الله خيرك. ثم دفع له خمسًا وعشرين ليرا. وقال له: صلِّ لأجلي، وعندما تحتاج، تعالَ اطلب ما تريد والرب يوفقك. فدعا له الأب بشارة، وشكره كثيرًا، وودعه وعاد إلى دير القمر، وهو يشكر الله

تعالى، ويدعو بالخير لهذا المحسن الفاضل، الذي أثّر في نفسه كثيرًا كلامه، وما ظهر له من تواضعه وتقواه وإحسانه بهذا المبلغ من أول مرة. وكانت هذه الزيارة أول أسباب الصداقة الممتازة بين هذين الفاضلين، وقد تمكّنت فيما بعد، وزكت كثيرًا واتصلت إلى المرحومة امرأته وأولاده. وآخر مرة زاروه في دير المخلص سنة ١٩٢٩، وقد تكررت مساعداتهم له ولأعماله مرارًا.

ولَّما بلغ دير القمر، قابل المطران وأخبره بما كان، وأخذ يمدح تقوى صاحبه وتواضعه، وشكر المطران وقال له: هذا كان ببركة سيادتك وبقوة كتابتك له وأراد أن يدفع له المبلغ. فأبى المطران قبوله وقال له: احفظه عندك للمباشرة بالعمل، وسأزيده لك إن أراد الرب. وبعد قليل باشر بالعمل على يد المعلم جرجس سماحة من الخنشارة، الذي كان يقيم في دير القمر.

﴿ الفصل التاسع والعشرون ﴾

تمام الكنيسة ولوازمها

وإذ صار بيده هذا المبلغ، الذي هو كلّ رأس ماله، قوي أمله بنجاحه وإتمام عمله، لا اعتمادًا عليه بل اتكالاً على الله، وعلى وعد هذا المحسن الفاضل الكريم، وعلى بركة المطران ومساعدته الأدبية، التي كان يعدّها أفضل من مساعدته المالية. وبالحقيقة أن المطران باسيليوس رحمه الله، كان من أكبر دعاة الخير للأب بشارة، وأقوى المساعدين له على إتمام هذه الكنيسة، وتزيينها وتجهيزها بما يلزم، لها من الأواني والأيقونات والصلبان والستائر والمنجور وغير ذلك.

على أنه بعد وضع أساس الكنيسة، في الأرض التي قدّمها لهذا الغرض خليل جرجورة، وقبل أن يصرف هذا المبلغ، أخذت المساعدات المالية تأتيه تباعًا من أهل الخير، من أصحابه ومعارفه، ومن أناسٍ لم يكن له معرفة بهم من قبل، وليسوا من دير القمر ولا من طائفته ولا من الموارنة بل من البروتستانت والماسون. وبالتالي لم يكن يصرف ما يصل إلى يده من هذه المساعدات حتى يرسل الله له غيرها، على قدر حاجته وزيادة. ولم تكن تنقص عنه مساعدات الأهالي بعمل أيديهم. ولكنه لم يكن يستحلّ أجرة إنسان منهم، ولاسيما ممن كان يعرفه فقير الحال ومحتاجًا، ولو أراد أن يتبرع باجرة عمله لوجه الله تعالى في سبيل كنيسته. وقيل لي إنه عرض مرارًا على خليل جرجورة أن يدفع له ثمن الأرض التي قدمها لبناء الكنيسة. وكان خليل يرفض قبول ذلك، معتذرًا بأنه تبرع بها لوجه الله وإكرامًا للسيدة. وحرام عليه أن يرجع عن ذلك.

لكن الأب بشارة عوّض عليه ثمنها بطريقة لطيفة، بما كان يدفعه له أجرة لعمله بوجه مستمر.

وبعد أن تم بناء الكنيسة عقدًا، سعى بقصر جدرانها بالكلس، ورصف أرضها بالحجارة الصغيرة والكلس عدسة. ثم أقام لها قبة، وجعل فيها جرسًا يسمع صوته كل سكان تلك الجهات، واشترى صليبًا كبيرًا من فضة، ليسير مرفوعًا أمام الجميع في كل زياح. وذلك بطريقة اليانصيب اشترك به كثيرون. وقصارى الكلام، لم تكن كنيسته هذه تحتاج إلى شيء، من الأواني المقدسة وأواني الزينة التي عملها لها، لتكون لائقة بعبادة الله تعالى. وقد أخذني العجب إذ وجدت في هذه الكنيسة عندما زرتها لأول، مرة من ذخائر القديسين في بيوت لها من فضة، ما لا وجود له إلا في أكبر الكنائس عندنا.

وما كاد ينتهي من ذلك، حتى أنشأ بجوار الكنيسة، مدرسة لتعليم الأولاد الصغار، مبادئ القراءة والكتابة والحساب والتعليم المسيحي، قام بنفقتها. وكان يقوم بأجرة المعلم، إلى أن وقعت الحرب العامة، فأقفلت المدرسة. وبعد نهاية الحرب، عاد ففتحها على نفقته، إلى أن خرج من دير القمر وانتقل إلى صيدا سنة ١٩٢٢. وكان يوزّع على الأولاد برسم جوائز، صورًا وصلبانًا ومسابح عدا بعض الكتب. وما كان أهالي الأولاد يعرفون بذلك، ولا من أين يأتيه المال لذلك.

وكان الآباء العازاريون، بواسطة سعي المطران باسيليوس، يساعدونه مع حسنة قداسه، بدفع ليرا فرنساوية في كل شهر من أجرة معلم للمدرسة، أسوةً بكثيرين من الكهنة، الذين كانوا يتخذون على نفوسهم تعليم الأولاد وخدمة النفوس في قرى لبنان.

ولا يسعنا هنا ذكر كل المساعدين له من أهل الخير، ما لم نسيء إلى كثيرين منهم لا نعرفهم. لكن لا يسوغ لنا إهمال ذكر من نعرفهم منهم، الذين اعتادوا عمل الخير على يده مرارًا، وبمبالغ ذات شان، مثل المطران باسيليوس حجار، وبشارة الخوري، وامرأة نعوم باشا، ممن تقدم ذكرهم. فنذكر منهم حضرة الأب افرام البستاني رئيس انطوش سيدة التلة في دير القمر، وحضرة الأب بشارة غفري رئيس انطوش المخلصية في مدينة رومة. ومن النساء، السيدة عفيفة بدورة أرملة المرحوم سليمان خطار، وأرملة المرحوم بشارة الخوري وبناتها، والدكتور أسعد عطية أحد أعضاء مجلس الأعيان المصري، وصهره شاهين بك جرجس كاتم أسرار حاكم السودان. ونعدل عن ذكر إخوانه الرهبان المخلصين.

وقال لي أحدهم إنه يؤثر أن يكون إحسانه على يد الأب بشارة، لأنه يعرفه أنه لا يبقي في جيبه شيئًا، بل يوزعه كله بسرعة على من يعرفهم، أكثر منه بأنهم محتاجون.

﴿ الفصل الثلاثون ﴾

تذكارات ومشاهدات خاصة

في سنة ١٨٩٣، ذهبت إلى دير القمر لزيارة الأب بشارة، لأكشف له ما في نفسي، بشان ما كنت فيه من الحيرة بأمر قبولي رسامة الكهنوت. وكنت قد خرجت من المدرسة الرهبانية، مع رفاقي الذين ارتسموا كهنة دوني. لأني كنت أخشى أن يكون تقدمي إلى الكهنوت، بدون أن أتحقق دعوة الله لي، جرأة على الله. وكان وصولي إلى الدير قبل الظهر في ١٣ أيلول. ولما جلسنا على المائدة لتناول الغذاء، جلس معنا الأب بشارة. إلا أنه قام قبل الجميع إلى الكنيسة لزيارة القربان المقدس كعادته، فلحقت به. وبعد أن أتمّ صلاته في مدة ساعة، قام بتنظيف الكنيسة وزينتها، استعدادًا للاحتفال بعيد رفع الصليب الكريم في اليوم التالي. فطلبت إليه أن يسمع اعترافي، فأقبل بي حالاً إلى كرسي الاعتراف. وما أنجزت اعترافي إلا شاهدت الناس تُقبل على الكنيسة، للاعتراف إليه بدون انقطاع. ولبث في كرسي الاعتراف، من نحو الساعة السابعة نهارًا إلى نحو الساعة الرابعة ليلاً، يسمع اعتراف كل من كان يأتي إليه، من الرجال والنساء والأولاد والبنات من طائفتنا ومن الموارنة. وأقمنا صلاة الغروب الاحتفالية ترتيلاً، مع صلاة الاغربنية إكرامًا للعيد، ثم تعشّينا وخرجنا ليلاً غلى السطوح، لنرى زينة أنوار هذه البلدة المسيحية العامرة وزينة ضواحيها، إكرامًا للعيد. وقضينا هناك مدة، حتى طفئت أنوار الزينة، وذهبنا ننام، والأب بشارة لم يزل في كرسي الاعتراف، ولم يخرج من الكنيسة لتناول العشاء، ولا شرب كأس ماء، ولا أخذ راحة.

وقد جرى الحديث في تلك الليلة المباركة، مع من كان معنا من الكهنة والعالميين، عن الأب بشارة، وأعماله في الدير وضواحيه، وكان الحديث لا محالة ذا شجون.

ومما أذكره من ذلك إلى اليوم، أن متصرف لبنان نعوم باشا، مرض ابنه الوحيد سعيد بك، مرضًا ثقيلاً أزعج والديه، وكان قد بلغهما من كثيرين خبر رجل الله الأب بشارة، وما كان عليه من التقوى وحرارة العبادة بصلواته، فأرسلا إليه نعمان بك المعلوف، الذي كان يومئذ عضوًا في مجلس الإدارة اللبناني، يطلبانه ليصلّي على المريض. فذهب الأب بشارة إلى دار المتصرف، وزار المريض وصلّى عليه، وعاد إلى دير القمر، وأقام مع الكهنة وبعض الناس صلاة الباراكليسي في كنيسة السيدة لهذا الغرض. فشفى الله المريض تمامًا. ونسب ذلك الأب بشارة، إلى قوة صلاة الجمهور في الكنيسة، وإلى قوة شفاعة السيدة. واتخذ من ذلك سبيلاً، لأن يتردد على بيت الدين، لزيارة المسجونين بجرأة ليسمع اعتراف الكاثوليك منهم، ويوزع عليهم وعلى سواهم الحسنات التي كانت تصل إلى يده. ولم يكن يجد أدنى معارضة في سبيل ذلك، من قبل مدير السجن ولا من الجند الحرس على المسجونين. بل كانوا كلهم على اختلاف مذاهبهم يجلّون قدره لأعماله هذه، ولعدم مداخلته معهم في غير ذلك، وكان يذكر الأب بشارة لأصحابه بسرور، إحاطة الجند له بالإكرام والإجلال، عندما كان يأتي إلى السجن ليناول القربان المقدس للمسجونين.

وقد تكرر هذا الحادث فيما بعد، مع شيء من الاختلاف في بعض ظروفه، كما روى لنا هذا حضرة الأب ملاتيوس خوري إذ صار رئيسًا ووكيلاً للمطران في دير القمر، وهو شاهد عيان وله فيه شأن، قال: "كنت ذات يوم ذاهبًا إلى بيت الدين لشغلٍ، فقابلني في الطريق حضرة

السيدة الفاضلة امرأة نعوم باشا، في عربية وأمامها فارس ياور المتصرف. ولما صرت مقابلها، وقفت قليلاً للسلام عليها باحترام كالعادة، فوجدتُها قد أوقفت العربية، وأوعزت إليّ أن أدنو. ثم قالت لي: أرجو منك أن ترسل لنا حضرة الأب بشارة، ليصلي على رأس ولدنا سعيد بك فإنه مريض. ولما عدت إلى دير القمر بلّغت ذلك إلى الأب بشارة، فذهب حالاً، ولما عاد، سألته عن المريض، فأجابني: هو بخير ما عليه شر. ثم قلت له: وهل جادت لك والدته التقية الكريمة بشيء، كعادتها إلى الفقراء وكنيسة الوادي؟ فقال كثّر خير الله وخيرها. فأدركت من هذا، أنها قالت له: أن لا يعلم أحدًا بذلك".

وقد ذكر حضرة الأب نقولا أبي هنا، في سيرة الأب بشارة التي نشرها في مجلة المسرة، مثل هذا الحادث مع شيء من الاختلاف عن الأول والثاني، بأن المتصرف نعوم باشا ذاته، أرسل إليه مع حوذيه بطاقة، يستدعيه للصلاة لابنه الوحيد، ويأتي به بعربيته. لكن الأب بشارة أبى الركوب فيها، وسار على قدميه في طريق مختصر، بدون علم الحوذي الذي بقي ينتظره خارجًا. وإذ طال انتظاره له، سأل عنه، فقيل له: سبقك ماشيًا. وعاد الحوذي وحده، لعله يجده في الطريق فخاب ظنه. وإذ بلغ الأب بشارة بيت الدين، مسح وجهه من العرق ودخل على المتصرف في داره، فلحظ هذا من لون وجهه أنه أتى ماشيًا. فقال له غاضبًا متعجبًا: ألم يقُل لك الحوذي لتركب العربية التي أرسلتُها لك معه. فأجابه: بلى، ولكن أنا أفضل المشي، وقد أخذت طريقًا أقرب من طريق العربية بدوراته الكثيرة. وبعد أن صلّى على المريض، دفع له والده عشر ليرات ذهب، خصّها الأب بشارة بكنيسة الوادي.

ولسنا بحاجة لأن نقول إنه في كل زياراته إلى بيت الدين وغيرها، كان يسير دائمًا على قدميه. وإذا دعاه أحد من أصحاب الشأن ليركب

معه في عربيةٍ أو على دابة، كان يرفض ذلك، معتذرًا بأن السير على الأقدام أفضل له وأكثر إفادة لصحته. وإنما قصده بهذا أن يكون وحده في الطريق بأكثر حرية، لممارسة صلواته بدون مانع ولا تشويش، وبدون أن يثقّل بذلك على أحد، لأنه كان يقضي الطريق بالصلاة، ولا يدع الوقت يذهب سدى.

ومن هذا القبيل، ما جرى له بعد ذلك مع الدكتور يوسف البستاني، في طريقه من الوادي إلى دير القمر في سنة ١٩٢١، كما سيأتي الكلام عنه مفصلاً في محله، إن شاء الله تعالى.

﴿ الفصل الحادي والثلاثون ﴾

أعماله الكهنوتية في دير القمر وجوارها

كان يقيم عادة في دير القمر، وله فيها غرفة خاصة، في الانطوش التابع لكنيسة مار إلياس، ينام فيها ولا ينام في سواها، ولو غاب النهار والليل في خدمة النفوس في دير القمر أو القرى المجاورة. ولم يكن في هذه الغرفة صندوق، أو خزانة ولا ديوان، ولا شيء من الفرش، إلا طرّاحة صغيرة، وحصيرة من القش، وتخت عليه فراش ومخدة ولحاف لمنامه، وسحّارة من سحاحير زيت الكاز المعروفة، يضم فيها ثيابه، وفوقها صليب مع بعض كتب روحية وكتب صلواته المعروفة.

وقلّما كان يكون في غرفته، لأن أكثر أوقاته كان يقضيها بالصلوات أمام القربان الطاهر، في كنيسة مار إلياس، حيث كان يقدّس غالبًا، ويسمع اعترافات من كان يأتي إليه لذلك، من أهل دير القمر وغيرهم، لأنه كان يقصده لهذا الغرض كثيرون من أماكن شتى وبعيدة. ويوم السبت كان يقدّس غالبًا في كنيسة السيدة التي بجوار مار إلياس. وفي أيام الآحاد والأعياد، كان يقدّس في كنيسة الوادي التي أنشأها هناك، أو في كنيسة الموارنة في وادي بمحليه بجوارها وفي العشر السنين الأخيرة من حياته هناك، كان بعد قداسه في الوادي، وزيارة من يجب أن يزوره من المرضى فيها وبجوارها، يذهب يقدّس قدّاسًا ثانيًا في كنيسة كفرقطرة، ومسافة الطريق بين البلدين تقتضي ثلاث ساعات على الماشي، المُجِدّ صعدًا في طريقٍ صعب خشن.

ولم يكن يهمل زيارة المرضى، أو يتأخر عن ذلك، حالما يعرف، ولم يكن ينتظر أن يُدعى لذلك من المريض أو من أهله، سواء كان المريض في دير القمر، أو في إحدى القرى التي كان متقلدًا خدمة نفوس أهاليها، من الروم الكاثوليك أو سواهم، وسواء كان المرض ثقيلاً، أو خفيفًا عارضًا. بل كان يزور المريض مرارًا، إذا طال مرضه. فيسلّم أولاً عليه، ويسأله بلطف واهتمام عن صحته وحال مرضه، ثم يصلّي عليه صلاة المرضى، ويحضّه بلطف ورفق على احتمال مرضه بالصبر الجميل، وعلى الاعتراف. وكان بلطفه وغيرته على خلاص النفوس، يتغلّب على موانع جمّة يجدها الكهنةُ غالبًا من قِبل المريض وأقاربه، بإهمال هذا الواجب المفيد العظيم الشأن في الحياة المسيحية.

وإذا اقتضى الحال أن يقدّس في قرية، ليس فيها كنيسة للروم الكاثوليك ولا الموارنة، فكان يقدّس في أحد بيوت الخاصة من أهلها، وكان يحضر معه كل ما يحتاج إليه لذلك، من الأواني المقدسة والبدلات والستارات والكتب، ويجعلها على دابّة، ويحضر معه من يحسن خدمة القداس بنوع لائق، حتى لا يشوش عليه قداسه أحد لا يعرف خدمة القداس، وكان يدفع له أجرته، ويعتني بأمره أكثر من عنايته بنفسه، فكان الخادم يركب غالبًا على الدابّة، والأب بشارة يسير خلفه على رجليه، الطريق كله. وإذا تناول حسنة أو تقدمة مالية، من أهل البلد أو ممن كلّفه منهم بهذه الخدمة، أخذها ودفعها إلى الخادم رفيقه، ولا يُبقي شيئًا لنفسه، حتى أن القربانة التي كان يشيل منها شيلة القداس، كان يوزعها كلها، ولا يبقي لنفسه منها شيئًا، لأنه كان قد عوّد نفسه من أول عهده بالرهبانية، أن لا يتناول شيئًا من الطعام صباحًا. وإذا لزم الحال أن يبقى هناك إلى ما بعد الظهر، وشدد عليه أحدهم بالعزيمة له إلى تناول الغذاء، تغدّى، أو أخذ ما يُقدّم له من المأكول ووضعه في منديل

أو فوطة، وتقاسمه مع من يتفق أن يجده في طريقه، من الفقراء وأبناء السبيل.

وكان يضع عادة في جيبه بعض النقولات، ليوزعها على الأولاد والفقراء، الذين يصادفهم في طريقه في دير القمر وغيرها، حتى قال لي أحد رفاقه بزيارته، كانت جيابه لا تفرغ أبدًا، كأنها نبع لا ينضب أصلاً. وذلك أنه كان إذا زار بيتًا من أهل اليسار، وقدّم له أصحابه ما يُقدم من الحلو أو النقل مما يقدّم عادة لإكرام الزائر، كان يأخذه ويضعه في ورقة بجيبه، ليعطيه لأول من يتفق له من الأولاد والفقراء. وهكذا كان يفعل في حصّته، التي تقدم له على المائدة في الانطوش من الحلو والنقل، فيحفظه ليوزعه على أصحابه الذين تعودوا ذلك منه. ومرارًا كثيرة كان يشتري من السوق إذا لم يكن في حوزته شيّء من ذلك، ويوزّعه عليهم، وهو يسرّ بهذا لأنه كان يعتقد بأنه يعمل بذلك خيرًا مع أخوة المسيح الفقراء، وهو يرجو أن ينال عن ذلك أجرًا عظيمًا في السماء، أعظم من أجر من يسقي كأس ماء باسمه تعالى.

﴿ الفصل الثاني والثلاثون ﴾

الأب بشارة، وأبو مراد الحاج

ذكرنا في فصل سابق صفحة ١٣ إن قد قُتل سنة ١٨٦٠ في بيروت، رجلٌ مسلم لم يُعرف قاتله. وقد أهاج قتله حينئذ عامة المسلمين على النصارى، في تلك الأيام الكثيرة الاضطراب، وأنه قد أُتهم بقتله رجلٌ من بكاسين اسمه بطرس بن يوسف أبي مرعي، حوكم وحُكم عليه ونُفّذ الحكم في تلك الليلة نفسها.

وقد طالعنا هذه الرواية، في عدة كتب مطبوعة بالعربي وفي غيرها عدا المخطوطة، لم يُذكر أحد أصحابها اسم القاتل الحقيقي، الذي بقي مجهولاً منهم ومن هذا العاجز، إلى أن زرت دير القمر سنة ١٩٣١، فتحققت حينئذ أنه حبيب الحاج أبو مراد، المذكور في عنوان هذا الفصل بكنيته لابنه الأكبر مراد، الذي قتل سنة ١٨٦٠.

كان حبيب المذكور في عنفوان شبابه، معتدل القامة ملآن الجسم، شديد البأس وقوي العزم، شجاعًا لا يهاب الموت. وكان في تلك الاضطرابات، يسطو مع رفاقٍ له على شاكلته من دير القمر، على قرى الدروز، ويقطع عليهم الطرقاتٍ، ويفاجئهم في بيوتهم وحقولهم، ويُعمل بهم قتلاً ونهبًا وسلبًا كما شاء القدر، انتقامًا لما فعلوا في النصارى، ولاسيما أهل بلدته دير القمر، حتى قيل إنه قتل منهم بيده مئة نفس.

وعندما تمّت مذبحة أهل دير القمر في سرايا الحكومة، باتفاق الجند التركي والدروز، كان حبيب المذكور في خارج البلد، إذ أبى أن يُسلّم نفسه وسلاحه إلى ذمة الأتراك والدروز. ولم يَغترّ بأقوالهم مثل زعماء

وعامة أهل الدير. بل خرج مع رفاقه إلى البرّية، يقطع الطرقات على الدروز، وينتظر العاقبة والأخبار عن أهل بيته. ولما علم أن امرأته ذهبت إلى بيروت، مع باقي النساء والأولاد بعد ذبح الرجال في الدير، قصد بيروت. وأوّل ما وقعت عينه على امرأته، سألها أين مراد؟ فكان جوابها له دمعة سخية وشهقة بكاء قوية. وما استطاعت أن تقول له سوى: أعطاك عمره. فثار ثأره وجنّ جنونه، وسار على وجهه في طريقه، فوجد رجلاً لحّامًا حاملاً على ظهره ذبيحة فيها سكين، وعرف أنه مسلم، فتناول السكّين وضربه بها على رقبته ضربة، ذبحه بها من الوريد إلى الوريد، وطار بسرعة ما بين سمع الأرض وبصرها، ولم يستطع أحد أن يهتدي إليه ولا عَرَف به أحد.

وبقي مدة طويلة مع رفاقه على هذه الأعمال التي ذكرنا، إلى أن سكنت تلك الاضطرابات وكفّت الفتن، وخيّم الأمن والسلام فوق البلاد، فعاد أبو مراد إلى رشده، ولزم ديره ومنزله، لا يأكل خبزه إلاّ من عمل يديه وعرق جبينه. إلا أنه بقي فخورًا بأعماله السابقة، فكان يقصّها على أصحابه، وما كان يكتمها بعض الأحيان عن نفس أخصامه الدروز، إذا اتفق أن تجمعهم به الصدف. وكان الناس بالإجماع يحبّون الاجتماع به، ويأنسون بلطف حديثه الذي كان فكهًا ومنزهًا عن كل سفاهة أو تحقير.

وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته، إذ شعر في نفسه بثقل ما كانت تحمل ذمته من عاقبة أعماله السابقة، وبشدة وخز ضميره منها أمام الله، وأنه لابد له من المسألة والحساب والعقاب عليها، انقلب تمامًا عمَّا كان عليه، وتنزه عن كل شيء في هذه الدنيا، وترك بيته وأولاده، وحبس نفسه في غرفة صغيرة حقيرة بجوار كنيسة مار إلياس في دير القمر، تحت الغرف التي يسكن فيها الكهنة، لا تصلح للسكن ولم تزل

معروفة إلى اليوم. ولم يكن يخرج منها إلا إلى الكنيسة، التي كان يقضي فيها أكثر أوقاته بالصلوات المتصلة الحارة، إمَّا وحده أو مع الأب بشارة، الذي اتخذه أستاذه ورفيقه في الصلوات ومعلم اعترافه. وإذ لم يكن يُحسن القراءة، ولا يعرف من الصلوات إلا الصلاة الربية وسلام الملاك وارحمني يا الله، كان غالبًا على لسانه قوله يا ربي اغفر لي أنا الخاطئ. وهو يقرع صدره بيده بشدة وقوة، كان يسمع صوت الضربة كل الذين في ساحة الكنيسة خارجًا. وكان منظره في صلاته، منتصبًا أو ساجدًا يعمل المطانيات، قارعًا صدره، مشهدًا جليلاً يجلب الخشوع في نفس كل من كان يراه.

وقد شاع بين الناس خبر توبته الشاقة إلى أماكن بعيدة، حتى كان كثيرون من قرى لبنان وبيروت وصيدا وغيرها، يأتون إلى دير القمر لزيارة كنيسة مار إلياس، ليشاهدوه فيها، يُصلي راكعًا أو ساجدًا يقرع صدره، ويقول يا ربي اغفر لي أنا الخاطئ. وكان قد جلله بياض الشيب في شيخوخته، وترك شعر رأسه ولحيته، وهزل جسمه كثيرًا. لكن بقيت ضربة يده على صدره الصحيح القوي قوية وشديدة. ولم يكن يتناول في اليوم إلا وقعة واحدة من الطعام، وبقى على هذه السيرة الشاقة، نحو عشر سنوات إلى أن فارق هذه الحياة الشقية نحو سنة ١٩٠٠، على أتم الاستعداد للقاء ربه التوّاب على عباده، على يد رفيقه الأب بشارة الذي كان دائمًا بخدمته، وشاهدًا على فضل وسعة نعمة الله، ورحمته التي تدعو الخطأة إلى التوبة، وتغّير قلوبهم مهما كانت قاسية. سبحانه ما أعظم رحمته.

﴿ الفصل الثالث والثلاثون ﴾

الأب بشارة والجمعيات الخيرية والأخويات التقوية

لا خفاء أن الجمعيات الخيرية والأخويات التقوية، عنصر مهم في الكنيسة الكاثوليكية. ولها شان عظيم بظهور الحياة المسيحية فيها بوجه جميل بارز، لأن أفرادها نخبة من الشعب المسيحي، في كل مدينة وبلدة، انضموا إلى بعضهم لتوثيق عرى المحبة المسيحية، بأعمال التقوى والإحسان إلى الفقير ومساعدته لوجه الله تعالى، ولرفع شأن كنيسته وأولادها إخوتهم بالمسيح.

وتتألف الجمعيات الخيرية غالبًا من الرجال، القادرين على عمل الخير، ببذل الإحسان، والسعي بجمع المال من أهله لمساعدة الغير. وتتألف الأخويات التقوية غالبًا من النساء، ويغلب فيها الخير بطريق العبادة، والصلاة، والعمل لزينة الكنائس، ومساعدة أهل العرض، بالنفقة على زواج البنات المستورات.

ولا تخلو اليوم بلدة كاثوليكية، من أخوية تقوية ولا من جمعية خيرية. بل قد يكون في بعض المدن عدة جمعيات وأخويات، يشترك بها كثيرون، من كل الطوائف الكاثوليكية التي فيها. وقد يكون بعضها خاصًا بطائفة واحدة دون سواها.

وكان في دير القمر على عهد الأب بشارة، عدة جمعيات وأخويات، أهمّها وأخصّها جمعية سيدة التلة، وهي تنسب إلى مركزها كنيسة سيدة التلة المعروفة هنا لطائفة الموارنة. وأفرادها من طائفة الموارنة وطائفة الروم الكاثوليك، من أهل الدير الساكنين فيها والنازحين عنها.

ولها فرع مهم في بيروت لكثرتهم فيها. وغاية هذه الجمعية، بذل الإحسان في سبيل مساعدة الفقراء، ودفن الموتى منهم، بوجه لائق بشرف الاسم المسيحي.

ومنها أخوية الاتحاد المسيحي، ولها مركز خاص معروف هناك. وغايتها توحيد كلمة أفراد الشعب من أهل الدير، والتعاون على عمل الخير، والصالح العام لأهل البلد. وأفرادها من الطائفتين على السواء.

ومنها أخوية سيدة الحبل بلا دنس، وهي تقوية خاصة بالنساء، ومركزها كنيسة سيدة الدلغانة المعروفة هناك، خاصة طائفة الموارنة. وأعضاؤها من نساء الطائفتين على السواء.

ومنها أخوية سيدة البشارة، ومركزها كنيسة سيدة النياح للروم الكاثوليك. وهي خاصة بالنساء. وأفرادها من كلا الطائفتين المشار إليهما، كالأخوية السابق ذكرها.

ومعلوم أن لكل جمعية وأخوية مسيحية قانونًا أو نظامًا، يسير بموجبه أفرادها، يكفل لها البقاء، ويكفل لأفرادها العمل بنجاح، لبلوغ غرضهم وغايتهم المسيحية منها. ولذلك كان لا بدّ لها من كاهن فاضل غيور على نجاحها، يتولى تدبيرها، وإرشاد أفرادها بالوعظ في اجتماعاتهم العامة والخاصة، وسماع اعترافاتهم، ولإصلاح كل خلل يقع منهم، بسلطانه الكهنوتي لكونه العضو العامل الأشرف في الكنيسة.

على أن الأب بشارة، لم يكن يعدّ نفسه أهلاً، لأن يكون مرشدًا رسميًا أو رئيسًا لواحدة من هذه الجمعيات أو الأخويات، لأنه كان يتجنب قدر طاقته، الظهور بين الناس بشيء من مظاهر الرياسة. إلا أنه كان بالحقيقة والفعل، المرشد العام لأفراد هذه الجمعيات والأخويات، ومن أكبر دعاة الخير لها. لأن أكثر أفرادها، كانوا يعترفون إليه،

ويقدرّون عمله حق قدره، في ما يعمل لمساعدتهم، بجمع الإحسان من أهل الخير، وتوزيعه على المحتاجين بأمانة وسرعة. ولم يكن يجد أحد سبيلاً للشكوى منه بأمر يعاب به، أو ما يشعر بعدم الثقة المتبادلة.

ومنذ أخذ يَشيع عنه بين الناس حُبه للفقراء، وغيرته على مساعدة المحتاجين، صار الفقراء يقصدونه كأنه رئيس جمعية خيرية أو أمين صندوقها. ولذلك صار أهل الخير، يفوّضون إليه توزيع ما تجود به نفوسهم من الحسنات المالية، لعلمهم أنه أكثر معرفة بالمحتاجين ولا شكّ بأمانته. ومن ثمّ، صار بمقام جمعية خيرية خاصة، لدى أصحابه.

وإذ كان أكثر الفقراء، الذين كانوا يترددون إليه، يجدونه غالبًا بالصلاة في الكنيسة، فكانوا يجدون الخير في مشاركته بالصلاة حينئذٍ، حتى كانت تتألف منهم أخوية تقوية، ليس لها قانون إلا المثال الصالح، الذي كانوا يجدونه فيه مجسمًا أمامهم، بصلواته الحارة بكل تقوى وخشوع.

ومعلوم أن الفقير، يرى نفسه دائمًا في حاجة إلى المال. وصاحب الحاجة، كما يقول المثل، أرعَن لا يريد إلا قضاءها. وقد تفضي به الحاجة إلى أن يشكو غالبًا من الناس، حتى لا يَسلم منه رجال الجمعيات الخيرية، فيصمهم بالبخل والميل مع الهوى إلى أصحابهم وذويهم، وقد يكون هذا غالبًا بدون حق. والدالتهم على الأب بشارة، ما كانوا يكتمون عنه هذه الشكوى. وإذ كثروا عليه، وكثر ترددهم إليه لطلب الإحسان، وأصبح ما يصل إلى يده من أهل الخير لا يفي بالحاجة الكافية لهم، رأى أن يؤلف جمعية خيرية خاصة، تكون أوفى بالغرض، وأكثر مناسبة لما يقصد من الخير الشامل، وأعلن ذلك في نشرة طبعها ووزعها على أصحابه من أهل الخير سنة ١٩٠٢، وقفنا على عدة نسخ منها، ننقلها هنا ليقف القارئ عليها بنصها، فيعلم من ذلك أنه كان رئيسها،

ومدير أشغالها ومرشدها، والجابي لأموالها والموزع لها، والرسول الداعي إلى الاشتراك بها. وما كان ينقصها شيء عن الجمعيات الخيرية إلا صندوق لأموالها ودفاتر لحساباتها، التي لا يعلم بها إلا الله، العالم بأصحابها ونواياهم وأعمالهم، التي سيكافئهم عنها في الآخرة بإضعاف ذلك. ونجد فيها إيضاح أمر خفي من أسرار حياة الأب بشارة، لم يبح به إلا مضطرًا لفائدة وخير الفقراء. وهو أمر صيامه إلى غياب الشمس، في كل أول يوم من كل شهر، لأجل المشتركين بهذه الجمعية، مع تقدمة ذبيحة القداس والصلوات المذكورة هناك.

صورة
دعوة الاشتراك في الجمعية الخيرية باسم سيدة البشارة
في دير القمر سنة ١٩٠٢

إخوتي الأعزاء، فلنفتحّ باب الشفقة والرحمة، لإخوتنا الفقراء والمساكين، حتى يفتح لنا يسوع المسيح في الآخرة باب السماء، لأنه قال سبحانه وتعالى: "الذي تصنعونه بإخوتي هؤلاء الفقراء والمساكين، فبي تفعلونه". والذي يزرعه الإنسان في هذه الدنيا يحصده في الآخرة.

فالذي يريد أن يشترك في هذه الجمعية، يدفع كل شهر غرشًا أو نصف غرش. والدفع يكون إما شهريًا، أو سنويًا مسبقًا. والذي يريد أن يتكرم بزيادة عن المرسوم، فله الأجر الزائد. وأنا العبد البطال الموضوع اسمي أدناه، أقدّم كل أول شهر قداسًا، وأربعة وعشرين بيت المديح صلاةً لسيدة البشارة، مع الصيام الطبيعي لغياب الشمس دون أكل وشرب، على نية المشتركين في هذه الجمعية الخيرية، وأذكرهم يوميًا في الذبيحة الإلهية، وكذلك أتلو الجناز كل نهار سبت، على نية أنفس موتاهم ما لم يحدث لي مانع عن ذلك. والذي يريد الاشتراك يذكر لي اسمه، حتى أحرره في دفتر الاشتراك، من أي جنس كان. والله أمين في مواعيده لا يضيع عنده شيء.

كاتبه الخوري
بشارة أبو مراد
خادم دير القمر

﴿ الفصل الرابع والثلاثون ﴾

الأب بشارة في أيام الحرب العامة

يُقال في الحِكَم المأثورة المشهورة: عند الشدة يعرف الإخوان. وعند الامتحان يُكرم المرء أو يهان. فإنها تنطبق تمام الانطباق على الأب بشارة أيام الحرب. ومعلوم أن تلك الأيام، كانت شديدة البؤس على جميع الناس، من كل طبقة، في كل بلاد الله، ولاسيما في لبنان، وقَلّ فيها جدًا أهلُ الخير، إذ كان كل واحد منهم مشغولًا بأمر نفسه وأهله، للحصول على رغيف خبز يقتات به هو وأهله. وهو الحاجة الكلية الشاملة لجميع الناس. وقَلّ من كان منهم يستطيع إعالة فقير برغيف خبز. فكان الأب بشارة، والحالة هذه، أكثر اهتمامًا بالفقراء من ذي قبل. بل كان اهتمامه بهم أكثر من اهتمامه بنفسه، في تلك الأيام السوء، كما يعرف هذا كثيرون من أصحابه الاغنياء والفقراء، مما يذكرونه به إلى اليوم.

فقد كان من قبل، يمنع نفسه مرارًا عن بعض المأكولات، ليُحسن بها إلى أول فقير يجده أمامه. إلا أنه في أيام الحرب، قد اتخذ بهذا الشأن سُنّة على نفسه، لم يكن يحيد عنها. وهي أنه كان يُحسن إلى الفقراء، بمعظم ما كان يُقدّم له لأجل قوته الضروري لحياته، من الخبز وسواه على مائدة الكهنة الخاصة، وما كان يُقدّم له من أهل الخير من أصحابه لقوته، علاوةً على ما كان يُعطى له برسم الفقراء. فما كان يذوق شيئًا من ذلك أمامهم. بل كان يأخذه كله، ويحفظه ليحسن به وهو يقول لهم معتذرًا كعادته، بكلام مجمّل قصدًا، لا يريد به الكذب مثل قوله: لا أقدر الآن أو لا أحتاج الآن للأكل. أو لست الآن جوعان.

وإذ طال به الأمر هكذا عدة سنين، أعياه الجوع، وهزل جسمه كثيرًا، وتغيّر لون وجهه، حتى كان لا يستطيع بعض الأحيان السير على قدميه، لزيارة المرضى والفقراء كعادته.

وإذ بلغ به الحال إلى هذا الحد، وهو لا يبيح ذلك لأحد، استدعى له الأب ملاتيوس خوري، الذي كان رفيقه ورئيس انطوش دير القمر، الدكتور سليمان مشاقة رحمه الله، ليشاهده ويصف له العلاج المناسب، فلما عاينه، قرّر أنه مريض بمرض الجوع، وأن ليس له دواء إلا الأكل بالقدر الكافي. فاقتضى أن يُعنى الأب المذكور به وبأكله عناية خاصة، ليأكل كلّ ما يقدم له أمامه وعلى نظره، لأنه كان يعرف جيدًا أن قلة الاكل هي السبب لهذا العياء له. لكن ما طال الأمر كثيرًا، حتى عاد الأب بشارة يغافله، ويأخذ حصته من الخبز والطعام ويعطيها للفقراء كعادته السابقة، حتى عاد إليه العياء السابق بأشدّ مما كان. فاستدعى له الأب المذكور الدكتور سليمان مشاقة، ولم يكن في دير القمر سواه من الأطباء، لأنهم أُخذوا كلهم لخدمة الجيشٍ في الحرب اضطرارًا. وإذ زاره وفحصه، قرر بشأن مرضه ما قرر سابقًا، وإنه ليس له علاج سوى الأكل بالقدر الكافي. وإلا مات عاجلاً. وقد تكررّ هذا مرارًا، حتى أعيا أمره الأب ملاتيوس والطبيب المشار إليه. فكان الأب بشارة يسمع كلامهما، ويشكر لهما عنايتهما، ويبسم لهما، كأن ليس به عياء، ويقول لهما: "عمّال آكل كل يومٍ". وحقيقة الواقع أنه كان يأكل كل يوم شيئًا زهيدًا حتى لا يموت عاجلاً بالجوع.

وكان يعرف بهذا كثيرون من أصحابه، ويلومونه على عمله، بحرمانه نفسه القوت الذي لابد منه للحياة، حتى لم يكن يستطيع أن يعتذر إليهم بعض الأحيان، إلا بمثل قوله: فلان مسكين، يحتاج أكثر مني

لإعالة أهل بيته، وكلهم فقراء ما عندهم شيء يأكلونه، وحرام أن يموتوا كلهم هكذا. وأما أنا فالله يدبّرني.

ولم يقتصر أمره بهذا الشأن على الطعام، بل كان يتناول كل ما يصل إلى يده من المال، والثياب، حتى الحذاء. وكثيرًا ما عرّى نفسه من ثيابه، ليكسو بها بعض الفقراء. ومن ذلك، أن السيدة عفيفة أرملة سليمان خطار، إذ أبصرته لابسًا حذاءً عتيقًا مهريًا تمامًا، قالت له، وكانت تحترمه كثيرًا ولا تبخل عليه بشيء: هذا غير لائق بمقامك الكهنوتي، وحرام أن تكون هكذا في الكنيسة أمام الناس. وإذ كانت تخاف إن أعطته نقدًا ثمن لستيك، أن يوزّعه على الفقراء، أوصت له على لستيك، وأعطته له، وقالت له: "احتفظ به لذاتك، كرامة لمقامك أمام الناس. وإن كنت تعطيه لأحد، تزعلني كثيرًا، حتى لا أعود أذهب إلى الكنيسة للصلاة، لا أنا ولا أولادي، ولا أعود أعطيك شيئًا". وما مضى أسبوع، إلا أن أعطاه لفقير كان حافيًا، التمسه منه بالتلميح دون تصريح.

وفي الأحد التالي ذهب إلى الوادي للقداس، فأبصرته السيدة المذكورة لابسًا الحذاء العتيق المهتري ويكاد يكون حافيًا، فأدركت ما فعل، وقالت له: إنك تضرّ نفسك ضررًا باهظًا، وتجعل الناس الذين يكرمونك لا يعطونك شيئًا، إذ تعطيه لأناس لا يعرفونهم، في هذه الأيام الشديدة على جميع الناس، الذين لا يكفيهم إلا الله.

﴿ الفصل الخامس والثلاثون ﴾

انتقاله من دير القمر إلى صيدا

لا ريب، أن المجاعة العامة التي وقعت في لبنان أيام الحرب العامة، قد أضرّت ضررًا قتالاً بصحة أكثر الناس من أهله. فَمَن نجا من الموت جوعًا، لم يَسلم من مرضٍ عُضال، أفضى به إلى الموت عاجلاً، أو آجلاً بعد انقضاء الحرب. لأن هذه المجاعة، بعد أن طال أمرها عدة سنين، أفسدت الصحة العامة، ولاسيما الأولاد والشيوخ الضعاف الأبدان، بقطع النظر عن الفقراء، الذين يحتاجون إلى الغذاء الكافي، تعويضًا عمّا تخسره أبدانهم في الفتوة والشيخوخة، مثل الأب بشارة الذي كان قارب السبعين من عمره سنة ١٩٢١.

نعم، إنه لسببِ ما كان قد اعتاد من العيشة القشفة، كان أكثر صبرًا، وأقوى جَلَدًا على الجوع، من الذين كانوا قد اعتادوا أن يأكلوا كل ما طاب لهم. إلاّ أنه حسب نظام الحياة، الذي رتّبه الخلاّق الحكيم، لابد من القوت لكل حيّ، بالقدر الكافي حفظًا لحياته. وإلا فقدتْ الحياة، وزالت وزال أصحابها معها من هذا الوجود. على أن الأب بشارة لم يكن يتبلغ في أيام الحرب، بقدر ما كان يتناوله قبلاً وهو في عنفوان شبابه. بل زاد على ذلك إمساكًا، أفضى به إلى الموت مرارًا، لولا عناية الله به، وعناية الأب ملاتيوس. ولا بدع بعناية الله به، وهي عربون لما أعده الله تعالى له من المكافأة في الآخرة، على حبه لإخوته الفقراء، الذين كان يُؤثرهم على نفسه. "وأي حب أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه على أحبائه".

وإذا تكلمنا بشريًّا، وصرفنا النظر عن عناية الله به، نقول: إن حالته الصحية والأمر كما ذكرنا، لم يكن يستطيع معها مواصلة أعماله الكهنوتية، بعد نهاية الحرب كالسابق، مع انه ازداد تعبًا ومشقة، لأنه بعد وقوع الصلح، أخذت الإحسانات ترد إلى لبنان من كل صوب، لتدارك الموت الذي كان يتهدد البقية الباقية من أهله. وكان يرد من ذلك شيء كثير على يده، ليوزعه على المحتاجين من رعيته، لثقة الناس بأمانته، ولاشتهاره بمحبة الفقراء، فكانت هذه الإحسانات سببًا لزيادة التعب عليه، بتوزيعها على المحتاجين، بالسرعة اللازمة، تداركًا لموت كثيرين.

فقد روى لنا أحد الثقاة، أنه وصل ليده في تلك الأيام من الدكتور أسعد عطية، مبلغ عشرين ليرة مصرية، ليوزعها على الفقراء فلم يَدَعْ شمس ذلك النهار تغيب قبل أن صرف هذا المبلغ بقطع صغيرة، ووزّعه كله على المحتاجين، وهو لا يبالي بتعب ولا بمشقة.

ومن ذلك أيضًا أن الأب ملاتيوس الخوري الذي تقدم ذكره مرارًا، أراد أن يُداعبه ذات مرة على العشاء، فقال له، وهو يضحك بكل فمه: أعطاني رجل عشر ليرات ذهبية، لتوزعها على المحتاجين. فصدّق ذلك الأب بشارة، وسُرّ به، وأسرع بعشائه ما أمكن. وذهب إلى الكنيسة لزيارة القربان المقدس ليشكر الله. وعاد إلى الأب ملاتيوس يطلب منه المبلغ. فدفعه له، لتمام المزاح. وما وصل ليده، حتى لبس جبته، وهمّ بالخروج ليوزعه حالاً. فأوقفه الأب المذكور، بعدم المناسبة لخروجه ليلاً. وحينئذٍ استرجع منه المبلغ. فأطاع له الأب بشارة بدون تردد.

وفي ١٤ آذار سنة ١٩٢٠، ارتسم مطرانًا على صيدا ودير القمر الخوري اثناسيوس خرياطي، خلفًا للطيب الذكر المطران باسيليوس حجار، الذي توفاه الله في أيام الحرب. وفي تلك السنة، ذهب المطران

الجديد إلى دير القمر، لقضاء فصل الصيف، ولافتقاد رعيته فيها وفي قرى الشوف، لأول زيارة جريًا على عادة أسلافه. ولاحظ هزال جسم الأب بشارة، وكثرة أتعابه، فقصد أن ينقله إلى صيدا، حيث يجد مجالاً واسعًا لأعماله الكهنوتية، مع شيء من الراحة، مما لا سبيل إليه إذا بقي مكانه، ورعيته منتشرة في عدة قرى متفرقة كما سبقنا. وإذ كان أمر نقله ليس بالأمر السهل، بدون أن يُغضب الرعية، التي كان يشملها الأب بشارة بحبه وعنايته الأبوية، منذ ثلاثين سنة، وقد تعلقوا به طبيعيًا ودينيًا، ترك المطران هذا الأمر لفرصة أكثر مناسبة، حتى لا يُزعجهم في أول أسقفيته.

فإنه بعد أن أتمّ زيارته لقرى الشوف وإقليم جزين المرة الثانية، عاد إلى دير القمر في سنة ١٩٢٢، ليرتاح فيها. وكان أكثر أهل دير القمر من طائفتنا، بارحوا بلدتهم إلى بيروت وصيدا وبلاد مصر وأميركا، طلبًا للرزق، وهربًا من برد الشتاء القادم في الدير، ومن ضيق العيش، ومن المخاوف التي كانت تقلق البال في الشوف بأول سني الاحتلال، فرأى المطران أن يأخذ معه الأب بشارة إلى صيدا ليرتاح فيها مدة الشتاء. وكان قد شاع ما وقع له في الطريق مع الدكتور يوسف البستاني.

وهو أنه اتفق له ذات مرة في سنة ١٩٢١، أن شاهده الدكتور يوسف البستاني، سائرًا على قدميه في طريق صعب المرتقى، وقت الظهر من أيام الصيف، وهو عائد من الوادي إلى دير القمر، ولحظ الدكتور أنه قد أعياه كثيرًا تعب الطريق، والحر والجوع والعطش والشيخوخة، وكان حينئذٍ يناهز السبعين سنة من عمره، فأراد الدكتور بكل عزيمة أن يُركبه على فرسه، شفقة عليه. فرفض ذلك الأب بشارة، وشكر واعتذر كعادته. إلا أن الدكتور نزل حالاً عن فرسه، وأبى إلاّ أن يركب عليها رفيقه، ولو مسافةً من الطريق. وبقي الاثنان مدة في جدال، تارةً يسيران

وتارةً يقفان، والفرس لا راكب عليها، حتى استولى التعب على الدكتور، وفاز عليه الأب بشارة، كعادته مع الجميع. وقصّ الدكتور المذكور هذا الحادث على كثيرين، منهم سيادة المطران أوغسطين البستاني، كما أشار إلى ذلك في رسالته التي سيأتي ذكرها. وقد سمعته أنا أيضًا من فم الدكتور المذكور في زيارتي له سنة ١٩٣١.

إذًا في ٤ كانون الأول، ذهب به المطران من دير القمر إلى صيدا، وأطلق له الأمر بسماع الاعتراف. فأقبل الناس عليه وعلى الكنيسة، من جميع الطوائف الكاثوليكية، التي في صيدا، والقرى المجاورة، من إقليم التفاح وإقليم جزين وإقليم الخرنوب، لحضور الاحتفالات العظيمة، التي كان يقوم بها المطران الجديد مع اكليروسه في الأعياد الكبيرة، بتقوى ومهابة وإتقان، وأولها عيد القديس نقولاوس صاحب الكنيسة الكاتدرائية، ثم عيد الميلاد وعيد رأس السنة إلى الغطاس، وعيد المطران وشفيعه القديس اثناسيوس الكبير، إلى الصيام الكبير، وما كان فيه من الرياضات الروحية، إلى جمعة الآلام الخلاصية المقدسة، إلى العيد الكبير. وكانت الكنيسة تزدحم غالبًا بكثرة المصلين. فكان الأب بشارة يرى ذلك ويسرّ به كثيرًا، حتى إنه لم يكن يقدر أن يكتم عن المطران سروره، بإقبال الناس، ولاسيما الرجال منهم، على الصلوات والاعترافات والمناولات، فكان هذا طبق رغبة المطران، بإبقائه في صيدا إلى أمد بعيد. وكان ذلك فعلاً.

﴿ الفصل السادس والثلاثون ﴾

أعماله الكهنوتية في صيدا

لشهرة الأب بشارة، بعظم تقواه وحسن إرشاداته في اعترافاته، وكانت قد سبقته إلى صيدا، صار الناس يُؤثرون الاعتراف إليه. وما طال الأمر به في صيدا، حتى صار فيها ملء العين والآذان، عند الجميع. ومن ثمّ تعين بشكل خاص معلم اعتراف أعضاء الأخوية الكاثوليكية في صيدا، التي مركزها في كنيسة مار نقولا الكاتدرائية. وكذلك تعين معلم الاعتراف لتلاميذ المدرسة الأسقفية، ولتلاميذ مدرسة الأخوة المريميين، ولتلميذات راهبات مار يوسف. فكان كل نهار سبت، يذهب إلى كنيسة الدير وكنيسة المدرسة المذكورة، يقضي عدة ساعات في منبر التوبة، لسماع اعترافات عدة مئات من الناس، من أبناء طائفة الروم الكاثوليك وسواهم، في الثلاث الكنائس المعروفة في صيدا، أو في المدارس الثلاث التابعة لها. وصار أكثر الناس إذا لم نقل كلهم، يؤثرون الاعتراف لديه على كل كاهن، حتى كان لا يجد وقتًا كافيًا لإتمام صلواته، التي اعتاد أن يصلّيها كل يوم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ولهذا السبب جعل إقامته، أو كما يقال جعل منامته في غرفة، ضمن الكنيسة الكاتدرائية، في إحدى زواياها، بحجة حراسة الكنيسة ليلاً، والسهر على قنديل القربان حتى يوقده إذا طفئ. وحقيقة قصده، لكي يكون له السبيل إلى مناجاة الله في القربان، ليلاً، في أي وقت أراد.

ومع هذا كان يقوم بكل واجباته الكهنوتية، نظرًا لكونه خوري الطائفة في صيدا، إذ كان عليه أن يمنح سر العماد وبركة إكليل الزواج،

لكل من يأتي إليه لذلك، من أهل صيدا والقرى المجاورة، بعد إتمام المعاملة القانونية المقتضية لعقد الإكليل. وكان يزور المرضى، ويسمع اعترافاتهم في منازلهم، ويعزيهم في إمراضهم، ويهتم كثيرًا بالمنازعين منهم، ليزودهم الزاد الأخير من أسرار الكنيسة، ليكونوا على استعداد حسن للقاء ربهم بموت صالح، بعد مصالحتهم له بالتوبة الصادقة. وكان فيهم أناس غرباء ليسوا من صيدا ولا من طائفته. وفيهم أناس كانوا قد قضوا عدة سنين بحال الخطيئة بدون اعتراف، كما هو شأن من يسكن المدن، ولاسيما أيام الحرب العامة وما وليها في أول أيام الاحتلال. فكان الأب بشارة، بكلامه اللطيف وبشاشة وجهه وخلقه الوديع، يُسهّل لهم كل صعوبة للاعتراف بخطاياهم والندامة عليها، بعد أن تحجّرت قلوبهم وضمائرهم بالعادة على الخطيئة، عدة سنين.

ويحسن بنا أن نذكر هنا، ما رواه لي أحد الشبان عن نفسه، مما جرى له معه بهذا الشأن. وكان هذا الشاب قد قضى قبل الحرب مدة طويلة، في مدرسة دير المخلص، بقصد الدخول في الرهبانية. وإذ اتصل الأب بشارة به في صيدا، بجوار الكنيسة، وقد عرَّفه به أحد الكهنة الذي كان معه، أخذ الأب بشارة يسأله، كعادته مع أكثر الناس الذين كان يجد منهم أنسًا به وميلاً إلى الحديث معه، عما إذا كان يسمع القداس ويداوم على الاعتراف والمناولة. فأجابه الشاب باحترام وكان كل من يعرفه يحترمه: نعم اسمع القداس أيام الآحاد والأعياد، إذا لم يكن لي مانع يصدني أو يشغلني عن ذلك، أما الاعتراف، فشأني شأن أكثر الشبان، لم أباشره من عدة سنين. فقال له الأب بشارة: لماذا كل هذا الإهمال، وأنت مربّى في دير المخلص، وأنت من أشراف الناس في طائفتنا الكاثوليكية. فأجابه الشاب: الحق معك أيها الأب المحترم، لكن نحن دائمًا في شغل وهمّ. وما عندنا وقت لأعمال التقوى. فقال له الأب بشارة:

ماذا ينفع الإنسان في هذه الحياة، لو ربح العالم كله وخسر نفسه. كل شيء زائل، سوى الله وعمل الصلاح لأجله. يجب أن تعترف، وتتكل على الله، حتى يوفقك في هذه الدنيا وفي الآخرة. وما أحد من الناس، له غنى عن الله. وكان هذا على سمع ونظر الكاهن صديق الاثنين، فتوسط الأمر بين الاثنين، وانتهى بكلامه مع الشاب: اذهب اعترف عنده، وهو يساعدك بذلك، حتى تجد راحة ضمير تامة. فالتفت الشاب إلى الأب بشارة، وأبصر وجهه منبسطًا بابتسامة القداسة، فأراد أن يباسطه وقال له: أنا مستعد أن أعترف حسب أمرك وأمر الأب، لكن أنا شاب بعنفوان عمري، ولا بدّ لي من أن أعود إلى الخطيئة، فإن كنت تحلني من كل خطاياي الماضية والمستقبلة، أذهب واعترف عندك بكل خطاياي. فأدرك الأب بشارة قصده بكلامه، وقال له: لا باس إن شاء الله . تفضل معي إلى الكنيسة. وهناك نرى ما يوفقنا الله إليه.

وما كاد يستقر مقامه في صيدا، حتى ثارت فتنة دهمآء في الشوف، بين الدروز والنصارى، بسبب قتل ثلاثة رجال (هم ملحم افرام البستاني، ونخلة شكري، ومارون بيرم) من شباب دير القمر، غدرًا بطريقهم إلى بيروت، بيد عصابة من الدروز، في ١٦ كانون الثاني سنة ١٩٢٣، وهم في سيارة قرب قرية سرجبال، بمكان معروف هناك، يقال له بيدر الرمل. وعقب ذلك عدة حوادث قتلٍ من الفريقين طال أمرها، مما لا يسعنا تفصيله هنا، ولا يزال ذكره عالقًا بذهن كثيرين. فاستولى بسبب ذلك القلق والاضطراب، في دير القمر وجوارها. وشاع الاعتقاد فيهم، بأن الله أهمل دير القمر، لأن أهلها تركوا الأب بشارة يخرج منها، وقد شعروا كلهم لأول مرة بذلك، في الصيام الكبير والفصح المجيد. فإن هذه المواسم انقضت تلك السنة، على غير ما كانت عليه في السابق، من شعائر التقوى التي هي بهجة الأعياد المسيحية. ومن ثمّ اجمع

رأيهم باتفاق تام، بعد عيد الفصح حالاً، على تقديم عريضة إلى السيد اثناسيوس خرياطي مطران صيدا ودير القمر، يلتمسون بها منه إرجاع الأب بشارة إليهم كما كان سابقًا، شفقة عليهم وحبًا بخير نفوسهم. وقد وقفنا على هذه العريضة، بتاريخ ذلك اليوم في أول نيسان سنة ١٩٢٣، بامضاوات أعيان دير القمر من طائفة الروم الكاثوليك وطائفة الموارنة، ولاسيما أعضاء أخوية الاتحاد المسيحي منهم. وقدمّوها له مع تهاني العيد، صحبة وفد منهم، فأكرمهم المطران ولاطفهم، واعتذر لهم بوجوب مراعاة صحة الأب بشارة، التي لم تعد تسمح له بمواصلة أعماله السابقة في دير القمر وجوارها، ووعدهم مع ذلك خيرًا إلى الصيف القادم القريب.

وبعد أن ذهب المطران إلى دير القمر في الصيف كعادة أسلافه، طالبوه كلهم بإنجاز وعده لهم، بإحضار الأب بشارة، فاعتذر لهم أيضًا بضعف صحته، ومناسبة صيدا له أكثر من الدير. ومع هذا، عاد الأب بشارة في آخر الصيف إلى دير القمر، وقضى فيها مدة من الزمان كان فيها عند الجميع ملء القلب والنظر .

وقد وقع له في ذلك الحين، أنه خرج ذات يوم صحبة الأرشمندريت كيرلس قروشان ب م إلى زيارة، فصادفا في طريقهما امرأة عاقلة تقية محترمة، فسلّمت عليهما وقبلّت يد الأب بشارة بشوق واحترام، وقالت له: ما نظرتْ دير القمر بعد خروجك منها يومًا مليحًا، يا أبانا بشارة. فأثّر هذا الكلام منها في نفسه، وأزعجه كثيرًا، لمنزلتها واعتبارها. وقال لرفيقه تفضّل يا حضرة الأب، لنرجع إلى الكنيسة، إذ أريد أن اعترف. فأجابه: لا بأس بذلك الآن. فعند عودتنا تعترف. لكن مازال به حتى عاد واعترف إليه. وهذا يدلّنا على شدة تيقظه، بأن يكون دائمًا بنجوة من كل مجد باطل.

رسالة أعيان دير القمر إلى مطران صيدا، بطلب إعادة الأب بشارة إليهم

قدس السيّد الجليل الكلي الشرف والسامي الاحترام

بعد لثم يديكم الطاهرتين، والتماس البركة الرسولية، نعرض أنه لَمَّا كان أمر الدين أول شيء يهم أخويتنا، التي اتخذت شعارها "التمسك بعروة الدين الوثقى هي تمام الألفة والاتحاد"، وتأكدت تأكيدًا تامًا، بأنه من حين بارح حضرة الأب التقي الغيور الخوري بشارة أبر مراد بلدتنا دير القمر، قد نجم خسائر روحية بهذه البلدة ليست بقليلة، عدا عن الفوائد الأدبية التي كان يبثها حضرة الأب المشار إليه في البلدة ونواحيها، رأت هذه الأخوية إن واجبها الوطني ومبدأها الديني، يقضيان عليها أن تفرغ كنانة جهدها لتعويض هذه الخسائر، بعود حضرة الخوري المحرر إلى هذه البلدة، التي لم تعد تعرف حضرته إلا وطنيًا صميمًا بل أفضل من وطني. ولَمَّا كان هذا الأمر منوطًا بإرادة سيادتكم، وكلنا نعلم أن سيادتكم تتفانون بحب هذا البلد، الذي يحفظ لشخصكم الوقور منزلة عالية من الحب والاعتبار بقلوب أهليه عمومًا، تجاسرنا بتقديم عريضتنا هذه، وكلنا أمل بأنها تصادف قبولاً عندكم، وتكون كافية لإجابة ملتمسنا بعود حضرة الأب المذكور، وسلفًا نشكر غيرتكم الأبوية، سائلين الله أن يحفظ لنا حياتكم الثمينة إلى أمد طويل، مثلاً للفضل وعضدًا للفضيلة، مكررين بالختام لثم يديكم.

(ويتبع ذلك امضاوات كثيرين) رئيس وعمدة وأعضاء

أخوية الاتحاد الخيرية المسيحية

بدير القمر

دير القمر، أوّل نيسان سنة ١٩٢٣

﴿ الفصل السابع والثلاثون ﴾

العودة إلى دير المخلص

كان المطران اثناسيوس رحمه الله، يظن أن الأب بشارة يجد راحة لجسمه، بإقامته في صيدا. مع انه كان يعلم تمام العلم، بأنه لم يكن يبتغي راحة في هذه الحياة. ولا سبيل له إلى ذلك، في مدينة نظير صيدا، فيها أكثر من ألفين نفسًا من الكاثوليك، لا يؤثرون باعترافاتهم أحدًا عليه. حتى أنه في أواخر سنة ١٩٢٦، استولى عليه مرض شديد، بانحطاط عام في جسمه وقلبه، لسبب التعب بمواصلة، لإتمام واجباته الكهنوتية، ولبقائه على ممارسة التقشفات، التي اعتادها من ريعان شبابه. ومن ثمّ، أخذت تنتابه بسبب ذلك نوبات قلبية شديدة. وضعف بصره، لإدمانه على تلاوة صلواته، ساعات طويلة في الليل، على ضوء شمعة ضئيل، وهو لا يبالي بذلك. بل لم يكن يشكو من شيء لأحد أصلاً، لا لكاهن ولا لطبيب ولا صديق ولا رئيس، بل كان مسلّمًا أمره كله لله وحده في كل حال، حتى تغلّب عليه مرضه، ولم يعد يستطيع زيارة المرضى، ولا إقامة القداس، ولا الصعود إلى غرفته العالية، واقتضى الحال أن ينتقل إلى غرفة واطئة مناسبة له في الأنطوش، ولزم فراشه هكذا مدة، لا يستطيع الخروج منها.

وكان حينئذٍ المطران اثناسيوس في فرنسا، يقاسي آلامًا مبرحة من جراء عملية جراحية صعبة جدًا، أخرج له فيها الطبيب بضع عشرة حصاة من بيت الكلى. وكان مع هذا يوصي وكيله من هناك، ببذل كل عناية بالأب بشارة وعلاجه بمرضه. وكان أيضًا شديد الحرص عل إبقائه في صيدا، ولم يكن يدعه يعود إلى دير المخلص، كما كان يرغب وكما

كان يرغب أيضًا كل رؤسائه القانونيين، لأجل راحته من عناء أعماله الكهنوتية، وانتجاع الصحة بهواء لبنان الطيب المعتدل، في دير المخلص. وكان المطران يرى أن أسباب العناية متوفرة في صيدا أكثر من الدير، بوجود الأطباء والأدوية اللازمة لذلك، بسهولة وسرعة في كل وقت. ودُعي حينئذٍ لعلاجه الدكتور سليم الخوري، المشهور بآدابه وتقواه كشهرته ببراعته بالطب. فلم يكن الأب بشارة يَدَعه في أول الأمر يفحص جسمه، الفحص اللازم لمعرفة مرضه، حياءً وحشمة، وهو يتجلد بصبر على ما يقاسي من ألم مرضه بدون شكوى، على ما روى لنا الدكتور المذكور. إلا أنه رضخ بعد ذلك لأمر الطبيب ولوكيل المطران، حتى صار لا يخالفه في شيء، إلى أن زال الخطر، وأخذ يعود تدريجيًا إلى العافية، ثم عاد إلى إقامة القداس، وممارسة صلواته وسائر واجباته الكهنوتية نحو رعيته. لكن هيهات أن تعود صحته إليه تمامًا، كما كانت سابقًا.

ولما عاد المطران من فرنسا إلى صيدا معافى من مرضه، وجد الأب بشارة يشكو جد الشكوى من ضعف بصره، لنزول مياه زرقاء على عينيه. وكان هذا يصده طبعًا عن الخروج من الكنيسة، والسير في الطرقات، لإتمام واجباته الكهنوتية نحو أفراد رعيته، ولاسيما المرضى منهم في جهات شتى من المدينة، مما يوقعه في أخطار جمّة ومهمّة، من قبل السيارات الهوجاء في سيرها، وهي كثيرة في شوارع صيدا. فسمح له المطران أن يذهب إلى دير المخلص، إجابة لطلبه، ليرتاح فيه مدة، ولإجراء عملية جراحية في عينيه لا بدّ منها، ثم يعود بعد هذا إلى صيدا لعمله، كما يصرّح كتاب المطران بهذا الشأن، في تاريخ ٢٦ شباط سنة ١٩٢٧ إلى نائب الرئاسة العامة حينئذٍ، الارشمندريت اندراوس خرياطي.

وبموجبه عاد الأب بشارة إلى دير المخلص، كما كان يرغب ذلك. ولبث فيه إلى أن قضى أَجَلَهِ بحضور المطران المذكور كما سيأتي بيانه.

وينبغي أن نذكر هنا أمرًا مهمًا في حياته الرهبانية، إذ كان خارج الدير، وهو أنه كان يُظهر دائمًا رغبته الشديدة الصادقة بالعودة إلى دير المخلص، من حين خروجه منه إلى العالم للرسالة الكهنوتية، ليتسنى له فيه الاختلاءِ التام مع الله. وكان كذلك كل رؤسائه القانونيين يرغبون أن يعودوا به إلى مدرسة دير المخلص، مناظرًا لتلاميذها كما كان سابقًا. إلا أن إرادة المطران باسيليوس، الذي كان زائرًا باباويًّا على الرهبانية بسلطة مطلقة، فوق سلطة الأب العام، كانت تحول دون ذلك. لأنه كان يحبّ مراعاة خاطر أولاده، أهل دير القمر وأهل الضيع المجاورة لها، الذين كانوا شديدي التعلق بالأب بشارة، لتقواه الممتازة ولغيرته نحو الجميع، ولاسيما حبّه للفقراء. ومع هذا لم يكن هذا الأب الصالح يَدَع أن تفوته زيارة دير المخلص، في كل عام، حتى في أيام الحرب الكبرى.

﴿ الفصل الثامن والثلاثون ﴾

الإقامة في دير المخلص

حضر الأب بشارة إلى دير المخلص، للراحة فيه من عناء الأعمال في الظاهر. وإنما جلّ ما كان يتوخاه بذلك، إتمام ما كان قد سبق فرغب فيه، حين حضر إلى هذا الدير الشريف سنة ١٨٧٤، وإتمام قصده الجوهري السابق في الرهبانية، باعتزاله في الدير عن العالم وأهله، والاختلاء التام مع الله، في الصلوات والتأملات الروحية، استعدادًا للقاء ربه، بموت صالح لخلاص نفسه، على أكمل وآمن وجه، كما كان يقول. وهذا ما كنا نشاهده منه، نحن وكثيرون من الرهبان وسواهم، إذ كان يقوم بفرائض العبادة ونوافلها أتمّ القيام، بكل ثبات ونشاط، دون أدنى ملل أو ضجر أو فتور. فلم نكن نشاهده كل هذه المدة، إلى أن قضى أَجَله، إلا في الكنيسة، بالصلوات الفرضية والعقلية مع جمهور الرهبان، أو منفردًا فيها مع الله، أمام القربان الطاهر، بصلوات حارة، تكاد تكون متصلة، كان يفرضها على نفسه، لأغراض شتى، لخير الكنيسة وأولادها كما تقدمت الإشارة سابقًا إليها. ولم يكن ينقطع عن صلواته هذه، إلا لسماع اعتراف من يريد ذلك منه، أو لسماع القراءة الروحية مع جمهور الرهبان، أو لتناول الغداء معهم في وقته على المائدة العامة. وقلّما كان يوجد في غرفته. وأقل من هذا أن يشاهد بين الرهبان، في نزهتم العامة بعد الغداء والعشاء، في ساحة الدير أو على السطح. ولم يكن يخرج أصلاً خارج الدير، لنزهة كل هذه المدة، لا وحده، ولا مع إخوانه الرهبان.

وفي أول الأمر، أُعطي له غرفة مجاورة للكنيسة، لا تبعد عنها أكثر من ثلاثة أمتار. وما كان أحد يطلبه أو يسأل عنه، إلا وجده في الكنيسة، ليلاً أو نهارًا. وبعد صلاة النوم، كان يأخذ مفتاحها ويجعله في غرفته، بحجة أن يسهر على دوام نور قنديل القربان وينيره، إذا طفي ليلاً، لكن كان جلّ قصده، أن يزور القربان الطاهر ليلاً، كما يشاء بكل حريته. فكان ينهض من النوم، عادة قبل الساعة الثالثة بعد نصف الليل، ويفتح أبواب الكنيسة، ويبدأ بصلواته، استعدادًا للقداس الإلهي، الذي كان يقوم به غالبًا قبل صلاة الفرض، مع بعض الرهبان أصحاب الأشغال، أو الذين تقتضي أشغالهم أن ينصرفوا إليها باكرًا. فكان يقدّس معهم، أو يخدم لهم قداسهم، وفيما بعد يقدّس مع جمهور الرهبان، على المذبح الكبير، بعد إتمام الصلوات الفرضية. إلا أنه لسبب ضعف بصره، وثقل سمعه، وضعف ذاكرته، امتنع عن القداس من أول سنة ١٩٢٩، إذ لم يعد يستطيع أن يتلو غيبًا، بالتمام والتدقيق كما ينبغي، كل الصلوات المختصة بالقداس. ومن ثمّ، كان يكتفي بمناولة القربان الطاهر كل يوم، وحضور أو سماع قداسين أو ثلاثة، على قدر ما يتفق له. وغالبًا كان يخدم القداس بصوته الهادي، بدون ترتيل، في القداسات السرّية غير الاحتفالية.

وفي أول الأمر، كان يذهب بالطاعة إلى دير الراهبات، لسماع اعترافهن. وكذلك كان يذهب إلى دير السيدة، لسماع اعتراف المبتدئين فيه، تارة يكون راكبًا على دابّة وفي بعض الأحيان كان يذهب ويعود ماشيًا على قدميه. إلا أن الأب العام منعه عن ذلك بعد قليل، عندما عرف أن نور الشمس يؤذي عينيه في ذهابه وإيابه. ثم أوعز إلى أحد أطباء العيون، أن يختار له عوينات ذات زجاج ملون، تقي عينيه من أذى

نور الشمس، إذا أراد أن يمشي قليلاً بعد الغداء، أمام باب غرفته أو أمام الكنيسة، لأجل التدفئة بنور الشمس في أيام الشتاء.

وقد أوجب عليه الطبيب أن يمشي، ولو قليلاً بعد الأكل، في الهواء الطلق، لمساعدة معدته بالحركة، على إتمام هضم الأكل. إذ كان قد استولى عليه إمساك شديد، كاد يكون مستمرًّا، لفتور معدته، ولامتناعه عن استعمال الرياضات الجسدية.

وقد كانت غرفته، السابق ذكرها، في دار الرئاسة، مجاورة لغرفة الرئيس العام، وأمامها سطح واسع فسيح، يكشف بمنظره غربًا وشمالاً وجنوبًا على بعض القرى المجاورة، وعلى كثير من الجبال والوهاد إلى البحر، حيث يقضي الرهبان كل يوم، نصف ساعة للنزهة، وللتدفية بعد الغداء في أيام الشتاء بنور الشمس الساطع، وفي أيام الصيف، يقضون سهرتهم بعد العشاء، بنور القمر والنجوم في الهواء الطلق. أما الأب بشارة، فلم يكن يحفل كثيرًا ولا قليلاً بهذا المنظر الجميل، ولم يكن يبالي بشدة حاجته إلى مثل هذه النزهة هناك، ولا إلى شيء من الراحة مع إخوته الرهبان، الذين كانوا يحبّونه، ويجلّون قدره كثيرًا، كما انه كان هو يحبهم حبًا متبادلًا، وفيهم شيوخ قد عاشوا معه عدة سنين، في دير الابتداء وفي المدرسة ودير القمر وغيرها. فكان يؤثر الاختلاء مع الله، بالصلاة والعبادة فكان بعد الأكل، وزيارة القربان مع جمهور الرهبان، يمشي أمام باب الكنيسة شتاءً، وفي القاعة المجاورة صيفًا، قدر عشر دقائق، ملازمًا صلواته الخاصة، ثم يدخل الكنيسة لزيارة القربان والصلاة، ولا يخرج منها إلاّ إذا دعته الطاعة لأمر، أو إذا اقتضى ذلك نظام الدير العام. ومن ثمّ، كان يقضي كل أوقاته في عبادة الله، لا يشغله عن ذلك أمر، سوى أمر الطاعة، لأجل الله، أو خدمة القريب الروحية في سبيل الله.

وإذ كان الرئيس العام شديد الاهتمام به، وكثير الملاحظة له، شفق عليه من ملازمته الكنيسة، وإدمانه على الصلاة فيها بلا فترة، حتى في أشد أيام الشتاء بردًا، وفي أشد أيام الصيف حرًا، وقال له ذات يوم: لماذا لا تستريح مع الرهبان قبل صلاة النوم، وتتنزه معهم على السطح في ليالي الحر؟ فسكت الأب بشارة، واعتبر هذا الكلام منه أمرًا محضًا، ومن ثمّ أخذ يجالس الرهبان على السطح في الوقت المذكور. لكن إذ كانت نفسه تنزع به إلى زيارة القربان، ومداومة الصلاة في الكنيسة، ذهب بعد مدّة إلى الأب العام، وسأله: يا أبانا العام، قلتم لي من مدة لأتنزه على السطح مع الرهبان. فإذا لم يكن لي رغبة بذلك، وفضّلت الذهاب إلى الكنيسة، فهل هذا خطيئة علي؟ فضحك له الأب العام، وأجابه: بل كنْ حيث تريد وتحبّ. ومن ذلك الحين، لم يعد يسهر معنا على السطح.

وفي ١٩ أيار سنة ١٩٢٩، أتى وفد كبير من النادي الكاثوليكي في دمشق، لزيارة دير المخلص. وبينما كان جميع الرهبان مع سيادة الأب العام والمدبرين يرحبون بهم، ويؤانسونهم في سهرة جميلة، على السطح السابق ذكره، في ضوء القمر، كان الأب بشارة منعكفًا على صلاته، كعادته في الكنيسة، ولم يُرد أن يخرج منها، كأن ليس في الدير أحد يحفل به، أفضل من يسوع المسيح في القربان الأقدس، حتى طلب بعض أصحابه ومعارفه من الكهنة الأفاضل، أن يشاهدوه، بين جمهور من الشبان الكاثوليك الأتقياء، ليسلموا عليه، ويقبّلوا يديه وينالوا بركته. فحضر إليهم، إجابة لطلبهم، لكنه لم يلبث معهم أكثر من عشر دقائق، وعاد إلى الكنيسة لصلاته كشأنه.

وفي كل مدة إقامته الأخيرة في دير المخلص، لم يكن يهتم بشيء من أمور العالم وأهله، إلاّ أن تكون زيارة الزوار تقوية دينية، بالتقدم إلى سر الاعتراف، ومناولة القربان القدس، وحضور القداس الإلهي كما ينبغي.

ولم يكن يغفل عن أن ينبه خاطر الأب وكيل الضيوف إلى هذا الأمر، لكي يبذل جهده بالنصح لهم، لإتمام هذا الواجب المقدس الخلاصي. وحقيقة الواقع، أن الزوار الكاثوليك الذين لم يكونوا يعرفونه من قبل إلا بالاسم، لم يكونوا يتخلفون عن التقدم إلى الاعتراف إليه، بعد أن تمّ لهم أن يشاهدوه في الكنيسة بالخشوع التام، غارقًا في صلواته، لا يشغله عنها شيء، وقد سطع على وجهه من نفسه الطاهرة نور القداسة، وجلال كمال الرهبان الأولين، مكللاً بشيبة كاملة ناصعة البياض، زادته، مع حسن سمته وبسطة وجهه، جمالاً وجلالاً، في نفس كل من كان يشاهده بهذا الوقار. وكذلك كان الزوار أصحابه ومعارفه، فلم يكونوا يؤثرون عليه أحدًا باعترافهم، إلا ما ندر. وإذا دعاه أحد منهم، للسلام عليه أو لمشاهدته أو لطلب صلاته وبركته، بواسطة الأب وكيل الضيوف، كان يتأفف إليه من ذلك لاضطراره أن يترك صلاته، وكان يقول له: ماذا يريدون مني (شو بدهم مني)؟ بخلاف ما إذا كان يُدعى إلى ذلك من قبل الأب العام. وفي كل حال، متى قابلهم قابلهم، كلهم على السواء بوجه باش، بكل إمارات المحبة. إلا أنه كان قليل الكلام مع الجميع. وبعد السلام الموجز، لم يكن يتكلم مع أحد، إلاّ إذا دعاه إلى ذلك مقتضى الحال. بل يبقى صامتًا، إلى أن تحين له فرصة مناسبة للانصراف، فينسلّ راجعًا إلى الكنيسة للصلاة.

﴿ الفصل التاسع والثلاثون ﴾

عودة المرض إليه

لا بدّ أن قد تحسنت صحته بعض الشيء، في دير المخلص، لطيب الهواء واعتداله، فيه مما كان يبذل له أصحاب الشأن في سبيل ذلك، من العناية والاهتمام، ولاسيما في أيام الربيع والصيف، من سنة ١٩٢٨. لكن هيهات أن تعود إليه صحته تمامًا، إلى ما كانت عليه سابقًا . وهل يعود الشباب بعد تمام الشيب، وبعد انقضاء سبعين عامًا وأكثر من العمر بالعمل، والتعب الشاق، بدون راحة ولا فترة، بعيشة خشنة قشفة، بطواعية تامة، بل برغبة شديدة صادقة لا فتور فيها، بحال الصحة وبحال المرض على السواء.

ولعناية الأب العام الخاصة به، أوجب عليه أكل الزفر والامتناع عن أكل الزيت، منعًا تامًّا، حتى في أيام الصيام والقطاعة، المفروضة بوصية الكنيسة المقدسة على جميع المسيحيين. وألزمه أيضًا بتناول الحليب، كل يوم صباحًا مرتين، لأجل لين معدته، إذ كان قد استولى عليه كما قلنا سابقًا إمساكٌ شديد يكاد يكون مستمرًا. ولذلك كان يضطّر بعض الأحيان، أن يتخذ علاجًا لهذا الإمساك، حبوب الحياة المعروفة. ومرارًا كان يوصيه الأب العام أن يطلب من الأب الكلارجي أو وكيل المطبخ، ما يحب من الطعام ليعدّه له بوجه خاص. إلا أنه لم يكن يطلب شيئًا أصلاً. بل كان يكتفي غالبًا بصحن الشوربة، قد لا يكون فيه شيء من اللحم، ويضع عليه ماء باردًا، ليزيل بذلك طيب طعمه وكل لذة. كعادته التي ألفها من أول عهده بالرهبانية. وإذا سئل عن سبب ذلك،

كان يقول إنه يفعل ذلك تبريدًا للطعام إذا كان سخنًا، أو تخفيفًا لدسمه إذا كان زفرًا، لأجل معدته الضعيفة.

ولما اشتد برد الشتاء، بأواخر سنة ١٩٢٧، وأوائل سنة ١٩٢٨، انزعج من ذلك كثيرًا، وإن لم يظهر شيئًا من الشكوى لأحد مطلقًا، صابرًا على ذلك، كعادته في كل أمر. وكانت غرفته السابق ذكرها معرضة للهواء الغربي الرطب البارد، وهي فوق بئر قديم لحفظ المياه! ولم يكن يلبس في أيام الشتاء للتدفئة سوى صاكو من الصوف التيبت الخفيف، مع العباءة الرهبانية السوداء. ولم يكن له سوى صاية واحدة من الصوف المذكور، كان يلبسها صيفًا وشتاء. ولسبب اشتداد البرد الذي كان والحالة هذه معرضًا لأذاه هناك، عاد إليه مرضه السابق. واضطرّ أن يلزم فراشه. فاحضر له الطبيب ليعتني بأمر علاجه، فأوجب عليه الراحة التامة في فراشه. وبناء على هذا منعه الأب العام من الذهاب إلى الكنيسة بتاتًا. ولئلا يكدّره ويزعجه بهذا المنع، أفهمه برفق ولطف، أن هذا المنع موقت لأجل راحته وصحته. وأنه متى تحسنت صحته ولو قليلاً، يسمح له بالعودة إلى عبادته، بكل حريته كشأنه السابق. ومن ثم امتنع مدة عن القداس وحضوره، وحضور كل الصلوات الفرضية، والاجتماعات الرهبانية، بصبر جميل. وما طال الأمر حتى تحسنت صحته قليلاً، فخاطب الأب العام، واستأذنه بالذهاب إلى الكنيسة وحضور الصلوات الفرضية والقداس، فسمح له بذلك. وما لبث طويلاً حتى صار يقدّس مع جمهور الرهبان. وفي أثناء ذلك، نُقل من غرفته السابق ذكرها إلى غرفة في الممشى الشرقي، في قلب الدير، بدروة من الهواء الشرقي وغيره، وفيها قضى أجله، كما سيأتي بيانه، ولذلك صارت تعرف من ذلك اليوم إلى الآن بغرفة الأب بشارة. وهي لم تزل مقفلة على ما كانت عليه، يوم توقاه الله تعالى إلى رحمته، وفيها مخلفاته،

أو الأشياء التي كان يستعملها في حياته، من ثياب وكتب صلوات وكتب روحية وغيرها.

ولا يخفى، أنه مع الأيام، صار بصره يزداد ضعفًا، مع ضعف جسمه وضعف ذاكرته. وكان هذا الأمر يزعجه ويمضّه، طبعًا، إلا أنه كان يُظهر التجلد والصبر كعادته. لأنه منعه عن القداس، وتلاوة صلوات كثيرة كان قد ألف تلاوتها من زمان طويل، وحرمه لذّة مطالعات كثيرة في الكتب الروحية، التي كان قد اتخذها سميرًا له، وقائدًا أمينًا لسيرته الروحية، قد اضطر أن يتركها كرهًا، ويكتفي بالقليل منها. وما هذا الحرمان بالأمر اليسير الهين عليه، لولا تمسكه بالصبر الجميل التام، على ما يكره وعما يحب بالسواء. وهذا لا محالة، دليل واضح كل الوضوح، على شدة تمكنه بالعبادة الحقيقية، بالرضوخ التام لإرادته تعالى، في كل الأحوال. وهذا الرضوخ، كما لا يخفى، هو روح العبادة الصادقة وجوهرها، وهو مبدأها وغايتها.

ولرغبة الأب العام أن يعزيّه في محنته هذه، رام أن يُرسله إلى بيروت، مع أحد الآباء، ليشاهده أحد أطباء العيون فيها، ويعمل له عملية جراحية، يرتدّ بها إليه بصره ولو قليلاً، ليستطيع أن يعود إلى تلاوة صلواته وقداسه نظير السابق، مما يخفف عنه شدة هذه المحنة، ويعزّيه تعزية روحية عظيمة، كما لا يخفى، فقال له ذات يوم: استعدّ يا أبانا بشارة، لتذهب إلى بيروت صحبة الأب فلان، ليرى عيونك أحد أطباء العيون فيها، ويعمل لك عملية جراحية، فيعود إليك بصرك وتعود إلى تلاوة صلواتك، وقداسك كالسابق. فسكت قليلاً، ثم قال له: "أمرك. لكن ما عادت تحرز" فأجاب: كيف لا تحرز، وأنت بركة لنا. فسكت الأب بشارة. وبعد قليل عاد إلى الأب العام، وقال له: يا أبانا العام، أتريدون أن أقول لكم الحقيقة. أنا طلبت من يسوع أن يعمي عينّي، لأميت

نظري. فقال له الأب العام: كيف تطلب هذا، ولماذا. فأجابه: الخطايا. الخطايا. خطايا النظر. فتأثر الأب العام من هذا الكلام، وقال له: أنت ابن ثمانين سنة، وتخاف من خطايا النظر، وقد مات جسمك. فأجابه: "الشيطان لا يموت". فقال له الأب العام: هل نظرك لك، وكيف هذا. فأجابه قائلاً: أنا أخطئت بهذا الطلب؟ فأجابه الأب العام: "لا أعرف" ثم قال له الأب بشارة: "وكيف استجاب المخلص طلبي؟" أجابه الأب العام: أنه جاراك على عقلك. فسأله الأب بشارة: فإذًا أنا أخطئت. أجابه الأب العام، وقد رأى أنه أزعجه واقلق ضميره، فأراد أن يريحه: لا. لأن غايتك صالحة. وأنا الآن، أترك لك الحرية التامة، بإجراء العملية أوعدمها. فأجابه الأب بشارة: يا أبانا العام: "ما عادت تحرز، وأنا صرت لا أنفع شيئًا، وليس عندي نظر ولا سمع ولا عقل". ومراده بالعقل الذاكرة. وانتهى الأمر معه بهذا الشأن، كما أراد الله، صابرًا على محنته هذه إلى المنتهى.

ولا غرابة بهذا الطلب منه، وكم من مرة سمعناه وسمعه كثيرون نظيرنا. يقول: "الموت ولا الخطيئة". ولا غرابة كذلك باستجابة الله له طلبته، في هذه الأيام التي كثر فيها الفساد بين الناس، عن طريق النظر. وقلّ فيها أمثال أيوب البار، القائل لله: "عاهدتُ عينّي ألا أنظر إلى امرأة". (أيوب ٣١: ١)

﴿ الفصل الأربعون ﴾

مرضه الأخير وموته

في أواخر سنة ١٩٢٩، لسبب اشتداد البرد في إبان الشتاء، ولسبب الضعف الذي كان قد تغلّب على جسمه سابقًا، كما تقدم، أخذت تعاوده نوبات قلبية، بقوة أكثر من السابق، كانت تضطره طبعًا إلى لزوم فراشه بضعة أيام، وتمنعه عن الذهاب إلى الكنيسة، وعن الاشتراك بالصلوات الفرضية فيها، مع جمهور الرهبان. لكن ما كانت تعود إليه صحته ولو قليلاً، حتى يعود إلى الكنيسة كشأنه السابق، كأن لم يكن به مرض ولا علة.

ولكثرة معاودة هذه النوبات عليه بشدة، أخذ القلق يستولي على قلوب كل إخوانه الرهبان، وكلهم محبون له، وصاروا يخافون عليه من نوبة شديدة، إذا طالت يقضي بها أجله. ولذلك أخذوا يهتمون بأمره، ويسهرون على خدمته، بعناية أكثر من ذي قبل، ولم يكونوا يَدَعُونه يعمل شيئًا من الأمور التي يحتاج إليها، مهما كان خفيفًا، إلاّ أن يسترق ذلك بدون علم منهم.

وكانت قد استولت عليّ في تلك الأيام، نُوَبٌ شديدة، من جراء مرض في الكلى اشتد عليّ. فكان الأب بشارة، يزورني كثيرًا في غرفتي، ويعرض نفسه لخدمتي بما احتاج إليه، ويحثّني على الصبر، واحتمال مرضي، مطابقة لإرادة الله، طاعة له في كل حال، واشتراكًا بآلام المسيح مخلصنا، بكلام تقوي رقيق ووجه باش، كعادته في زيارة المرضى، مما

تطيب به النفس، ولو كان الإنسان في أشدّ ما يكون من البحران في مرضه.

وبعد أن تعافيت قليلاً، أردت السفر إلى مصر، لأقضي المدة الباقية من فصل الشتاء، ولقضاء بعض الأعمال لي هناك. وبعد أن سمح لي الرؤساء بالسفر وأعدوت الأمر لذلك، ذهبت لوداعه في غرفته، فوجدته على بابها. وأخبرته بعزمي، وقبّلت يده، وطلبت بركته وصلاته، لتوفيقي في سفري. وقد شعرت حينئذٍ باطنًا في نفسي، إني أودّعه الوداع الأخير. ولذلك تفرّستُ بوجهه، محدقًا إليه مليًا باحترام ولهفة، مع كآبة، ما كنت أشعر بها سابقًا في وداعي له، في أسفاري الماضية. ومن ثمّ ثارت في عيوني دمعة سخية، من ألم هذا الفراق. وبَانَ لي أنه شعر بذلك نظيري، ولهذا السبب أعطاني يَده لأقبلها بدون ممانعة، على غير عادته معي ومع سائر الكهنة. وكأنه شعر بدنو أجله، وأنه لا يعود يراني، ولا أراه في هذه الدنيا. ومن ثم استودعني الله بقوله لي: الله يكون معك.

وإذ اشتد عليه مرضه في ٣ شباط. وأخذت تنتابه نوبات شديدة بتواتر، قلق عليه كل إخوانه الرهبان، وأخذوا يلازمون غرفته. فكان حينئذٍ على سريره، مثالاً كاملاً للصبر الجميل، ومشهدًا لتقوى القديسين. وصارت غرفته أشبه بكنيسة، تقام فيها الصلوات الفرضية كاملة في أوقاتها، يشترك فيها معه كثيرون منهم، ولم يكونوا يفارقون غرفته ليلاً ولا نهارًا، لخدمته والسهر عليه، والصلاة معه بالصلوات الفرضية وغير فرضية، لأنهم كانوا إذا انتهوا من الصلوات الفرضية، يصلّون له قوانين كتاب السواعي المعروفة، وسبع مزمورات التوبة والمسبحة. بل كانوا يكررون هذه مرارًا، مع كثير من الصلوات السهمية، التي كانوا يسمعونها منه. وكان قد اعتادها من قبل. بل كان يكررها، بأشد حرارة وأكثر عبادة إذا اشتد عليه مرضه، وأخص منها

بالذكر قوله: أُشرك آلامي مع آلامك يا يسوع. يا يسوع مخلصي، خلصني. لتكن إرادتك يا رب. يا عذراء أعينيني. يا يسوع، في يديك استودع روحي. هذا قليل على خطيئتي. اقبله يا رب، وفاء عن خطاياي الكثيرة.

ولمعرفتهم بشغفه بالصلاة، وشدة رغبته بممارستها، كانوا وفقًا لذلك يتسابقون إلى الاشتراك معه بهذه الصلوات، ولاسيما عندما يرونه تنتعش روحه، ويستريح من أوجاعه وقت الصلاة، كأن ليس به مرض ولا وجع، مع ملاحظتهم أنهم إذا توقفوا قليلاً للراحة أو لغرض آخر، كانت تعود إليه أوجاعه، حتى لم يكن يستطيع أن يخفيها عنهم لشدتها. ويظهر من هذا، أن نفسه كانت تطيب حقيقة بالصلاة ومناجاة الله. وكان على تمام الانتباه فيها، حتى كانت تستغرق نفسه وكل قواها، وجسده وكل جوارحه، ويسلو أوجاعه. ولعلّه كان يسرّ حينئذٍ بدنو أجله للقاء ربه، كقول المرتل: "فرحتُ بالقائلين لي هلم نذهب إلى بيت الرب".

ومن أول ما شعر بشدة وطأة مرضه الأخير، طلب أن يعترف، وأن تعطى له الحلة الأخيرة، مع الغفران الكامل الخاص بالمدنفين في ساعة الموت، كما أنه طلب سر المسحة الأخيرة. ولما كان الكهنة يصلّون له على زيت المسحة، كان يصغي إلى ذلك بتمام الانتباه والخشوع، بل بانبساط وسرور بدون شيء من القلق أو الانزعاج. ولما أتموا ذلك، قال لهم: اعملوا كل ما يلزم للمنازعين، ولا تنسوا شيئًا. وكان يكرر لهم كثيرًا قوله: أتعبتكم كثيرًا. الله يؤاجركم. الله يردّ عنكم. الله يكافيكم.

وإذ بلغه من احدهم، أنهم استدعوا له من صيدا، الدكتور حنا نعمان الحداد، قال لهم: لا لزوم له، لأن ما عادت تحرز. وما عدت أنفع. ولما حضر الدكتور المذكور نصف الليل وشاهده، قال له: أتعبوكم في

هذا الليل، يا حضرة الدكتور. الله يسامحهم ويؤاجركم ويرد عنكم. ثم قال لهم: خذوه وعشوه وخلوه ينام، مسكين تعبان. وأعطاه الدكتور حينئذٍ دواءً، وحقنًا تحت الجلد لإنعاش القلب، فنجح وزالت هذه الشدة عن المريض، وابتعد عنه خطر الموت القريب، واطمئن بال الجميع عليه بعض الاطمئنان، ودام على هذه الحال بشيء من الراحة نحو أربعة أيام، لكن بقي موضوع عناية واهتمام الجميع كالسابق.

وفي ٧ شباط، عاودته النوبات القلبية بشدة أكثر من ذي قبل. وبالتالي عاد فاشتدّ القلق عليه أكثر فأكثر. وصارت الصلوات الفرضية وغير الفرضية لا تنقطع من غرفته، كما أنه كان يجد بها راحة لنفسه وجسمه معًا. ومعما كان عليه، من قوة النفس والتجلد والصبر على ألم مرضه، اضّطرّ أن يقول مرة للأب انطون كيورك، وكان وحده معه في غرفته: "أشعر بأن قلبي كلهيب النار" فقال له الأب المذكور: "هذا من اضطرام قلبك بمحبة الله". فأدار الأب بشارة وجهه عنه حالاً، وتغيّرت سحنته. ولعلّه ندم على ما قال. وكان يكرّر لمادحيه حينئذٍ أكثر من ذي قبل: أين نحن من أعمال وفضائل القديسين العظام مثل باسيليوس وانطونيوس وباخوميوس..

وكان يقول للآباء المدبرين: إذا مت، إياكم أن تخبروا أحدًا بموتي، لئلا يظن الناس أني شيء مهم معتبر، وأنا أكبر الخطأة. ويقول الكتاب: "الويل لكم إذا قال الناس عنكم قولاً حسنًا وأنتم لستم كذلك". لكن كان يتمنى عليهم أن يكون حاضرًا في الدير، الأب العام، لينال بركته قبل موته، لأن الأب العام كان حينئذٍ في بيروت. ولما بلغه ذلك، عاد إلى الدير، وأخذ يلازم غرفة المريض ويهتم بأمره.

وكذلك حضر إلى الدير من صيدا، المطران اثناسيوس لزيارته، عندما بلغه اشتداد مرضه، وأخذ يلازم غرفته. وأرسل تلغرافًا إلى رومية، باسم

نيافة الكردينال رئيس مجمع الكنائس الشرقية، يلتمس بواسطته من الحبر الأعظم البابا بيوس الحادي عشر، البركة البابوية للمريض، مع الغفران الكامل الخاص بالمدنفين في ساعة الموت، فورد له الجواب بالإيجاب وهذا نصه:

Citta vaticano 2/22 Radio
Monsignore Khoriaty vescovo Saïda Libano,
Santo padre in via infermo padre Bichara Abu Mourade implorata Benedizione apostolica.
Cardinale Pacelli

(تعريبها)

حاضرة الفاتيكان ٢٢ شباط سنة ١٩٣٠

السيّد خرياطي مطران صيدا (لبنان)

الأب الأقدس يمنح المريض الأب بشارة أبو مراد البركة الرسولية المطلوبة.

الكردينال
باتشلي

ومن العادة المقررة، أن هذه البركة التي يمنحها الحبر الأعظم، لبعض المرضى عن طلب ذويهم، يمنح لهم معها الغفران الكامل، بشرط أن يكونوا قد اعترفوا بخطاياهم وندموا عليها.

وما زالت تشتد عليه وطأة المرض، حتى لم يعد يستطيع أن يتناول شيئًا من الطعام حتى الحليب. بل قضى الخمسة الأيام الأخيرة من حياته، لم يكن يستطيع فيها أن يبلع الماء مهما كان قدره. ولذلك كانوا يبلّون

له اسفنجة بماء، ويضعونها على طرف لسانه لترطّبه. ومع هذا، كان كل يوم يتناول القربانة المقدسة بسهولة. وكذلك كان يتناول بسهولة الماء، الذي يُغسل به حق القربان مرة ومرتين. وأراد أحد الكهنة ذات مرة أن يناوله جزءًا صغيرًا جدًّا من القربان المقدس، لظنه أنه لا يستطيع أن يأكله ولا يبلعه، إذا كان كبيرًا كالعادة. فطلب إليه أن يناوله مرة ثانية جزءًا أكبر.

وفي ليل ٢١ شباط، كان ساهرًا عليه الخوري غريغوريوس أبو سمراء، في دوره بعد نصف الليل. وقد ذهب الرهبان الذين كانوا يسهرون عنده ليناموا، وبقي وحده. وهو من الذين دخلوا الرهبانية وأتوا إلى دير المخلص، بإرشاد الأب بشارة وبإيعازه. وبينما كان يصلّي له المسبحة، سأله الأب بشارة: كم الساعة الآن. فأجابه: الساعة واحدة ونصف. فتململ قليلاً، وتقلّب على فراشه، ثم رفع عينيه إلى السماء، متهللاً مسروراً، ثم رفع كلتا يديه، كأنه يهمّ برفع جسمه كله. ثم أنزلها، وعاد يشارك الأب المذكور بصلاة المسبحة. وبعد نصف ساعة سأله السؤال نفسه، فأجاب الأب غريغوريوس: الساعة الثانية. وأعاد الأب بشارة الحركات السابقة تمامًا. وبعد مدة، أعاد عليه السؤال نفسه ثالث مرة، وأعاد الحركات السابق وصفها. وبعد قليل قال له: كلف خاطرك، اذهب قدّس، وأحضر لي القربان المقدس لأتناول. فخرج الأب غريغوريوس، واستدعى الأب بولس غطاس، ليسهر عليه مكانه. ثم ذهب يقدّس مع بعض الآباء الذين كانوا سهرانين، ولم يستطيعوا النوم لشدة قلقهم عليه.

وبينما كان الأب بولس غطاس يصلي له قانون المطالبسي، استعدادًا للمناولة، قال له الأب بشارة: أريد أن أغسل وجهي. ولظنه أنه لا يستطيع ذلك بذاته، بللّ منشفة بالماء والصابون وهمّ أن يغسل له بها

وجهه.فابى ذلك الأب بشارة، وقال له: اعطني الابريق وأنا اغسل. ففعل. فجلس الأب بشارة قاعدًا في سريره، وتناول إبريق الماء، وغسل فمه ثلاث مرات، ثم تناول المنشفة المبللة، وغسل بها وجهه ونشّفه ونشّف لحيته، وسرّح شعره، واهتم بهندام ثيابه. فسرّ الأب بولس من هذا النشاط، الذي يدلّ على انتعاش الحياة فيه. ثم عاد إلى الصلاة.

وبعد قليل، حضر الدكتور حنا الحداد من صيدا، وأخذ يراقب المريض بانتباه، ولم يحبّ أن يقطع عليه صلاته بالسؤال عن صحته. وكان كذلك الأب بولس يلاحظه بنظره، وهو يتلو له الصلاة في كتاب السواعي، إذ كان يردد نظره بين الكتاب والمريض معًا.

وبعد قليل، رأى الاثنان أن المريض نزع عن رأسه عرقيته، ثم ضمّ يديه إلى صدره، وأخذ يُبدي إمارات العبادة والخشوع، باهتمام زائد. وبينما كان الاثنان يتبادلان النظر ببهتة وتعجّب، أقبل أحد الرهبان، وبيده شمعة أمام القربان المقدس، الذي كان يحمله الأب موسى الكايد، وهو يقول بصوت خافت: قدوس الله الخ. فأدركا حينئذٍ سبب اهتمام المريض كل هذا الاهتمام، إنما هو استعداده لاقتباله المسيح، آتيًا إليه بالقربان المقدس. وقد شعر بخروج الكاهن من باب الكنيسة دونهما، مع ضعف سمعه، والمسافة بين باب الكنيسة وسريره في غرفته قدر خمسين مترًا، ولا سبيل للمريض أن يشعر بوطأة أقدام الكاهن، ولا بصوته الخافت، دون أن يسمع أحدهما ذلك، إلا إذا كان قد عرف ذلك باطنًا، بوجدانه الخفي اللطيف.

ثم تناول المريض القربان المقدس، كعادته بكل خشوع وعبادة، وأخذ الأب بولس يتلو له صلاة الشكر، بكتاب السواعي. وبعد ذلك، عاد إليه الأب غريغوريوس أبو سمراء، وأخذ يتلو معه المسبحة، ثم صلاة الفرض ليوم السبت. ولما بلغ بالصلاة إلى التبريكات المختصة بسبت

الأموات، التي أولها مصاف القديسين... التفت نحو الأب بشارة، وقال له: اليوم سبت الأموات. فتبسّم الأب بشارة، وهز رأسه مظهرًا سروره بذلك، وكأنه يقول له: كن براحة، أنا لا أخاف من ذكر الموت. ثم أخذ يكررّ له السؤال: كم الساعة؟ ثم يتململ ويرفع نظره ويديه، كمن يهم أن يرفع جسده كالسابق، إلى أن قرع جرس الكنيسة الكبير، الساعة الرابعة والنصف بعد نصف الليل، ونهض جمهور الرهبان من النوم، لصلاة الفرض في الكنيسة، وذهب الأب غريغوريوس ليستريح أو ينام، وأتى مكانه عدة كهنة، إلى أن حان وقت القداس، فذهبوا إلى الكنيسة ليقدّسوا، وبقي واحد منهم فقط وهو الأب مخائيل مقدسي.

فأخذ هذا يصلي له أبيات مديح العذراء، وأقبل حينئذٍ عليه المطران اثناسيوس بعد أن اتم قداسه، وسأله عن صحته، فلم يستطع المريض أن يجيبه بكلمة. وإنما أومى إليه برسم إشارة الصليب على صدره، ليصلي عليه، وكأنه يقول له: باركني أو أعطني الحلّة الأخيرة. وكان الوقت حينئذٍ، الساعة السادسة وثلاثون دقيقة، وأدرك المطران مراده، فأخذ يصلّي له بيوت المديح. وإذ أبصره بشدة على آخر رمق، قال له: إني أعطيك الآن الغفران الكامل. فأشار إليه المريض بالإيجاب والقبول. وكان قد ذهب الأب مخائيل إلى الكنيسة، يستدعي الأب العام بسرعة، فأتى إليه حالاً. وبعد دقيقتين أو أكثر، تنفّس المريض الصعداء طويلاً، تنفُّس النزاع، فقال الأب العام لسيادته: خلص انتهى الأمر. فأجابه المطران: أسرع وأعطه الحلة الأخيرة. ولم يكَد الأب العام يختم صلاة الحلّة، حتى شَخَص المريض ببصره إلى فوق، وجَمَد، وشهق شهقة ثم ثانية، وأسلم روحه الزكية بيد خالقها، بهدوء وسلام، الساعة السادسة والنصف بعد نصف الليل، قبل القداس ببضع دقائق. فرشّ سيادة المطران غرفته بالماء المبارك، وأطبق له عينيه، ثم ألبسه الرهبان ثيابه الرهبانية،

وأخذ المصوّر رسمه بالتصوير الشمسي، وهو على سريره، وقرع جرس الكنيسة بدقة الحزن تنذر بوفاته. ثم أقبل الرهبان من الكنيسة إلى غرفته، يقبلّون يديه، ويودعونه الوداع الأخير. وكذلك أتى رئيس المدرسة ومعلموها وتلاميذها، ونقلوا جثته بزياح حافل إلى الكنيسة. وتَقدّم حينئذٍ القداس منهم جميعًا لراحة نفسه. وبعد القداس تُليت عليه صلاة النياحة.

وبعد الظهر، اجتمع كل الرهبان من دير المخلص والأديرة المجاورة له، وجمهور من الشعب من القرى المجاورة، وصلّوا على جثمانه صلاة جناز الرهبان. وبقي مصمودًا في الكنيسة، وحواليه الشموع، ليتبرك به المؤمنون بقبلة يديه، والصلاة لأجل راحة نفسه، وهم على يقين تام بأنه عاش عيشة صالحة مقدسة، ومات ميتة صالحة مقدسة، يتمناها لنفسه كل إنسان مسيحي، وبالتالي كان الحزن العام عليه ممزوجًا بالعزاء التام، برجاء أن الميت البار قد نال من ربه المكافأة العادلة.

وأما غرفته، التي قضى فيها أجَلَه، فإنها قُفلت، واستلم مفتاحها الأب العام، وبقيت على حالها السابق كيوم وفاته، وفيها ثيابه، وكل ما كان يستعمله من الثياب والحوايج في حياته، إلا ما توزّع منها بركة على الطالبين، بإذن الأب العام وبأمره وصارت غرفته مشهدًا لكل زائريها، وشاهدًا صادقًا على زهده التام بكل خيرات هذا العالم، لأجل الله، واقتداءً بفقر المخلص له المجد.

﴿ الفصل الحادي والأربعون ﴾

في مأتمه والاحتفال بجنازه

بعد موته، طيَّر الأب العام منعاه، إلى السادة المطارنة المخلصيين والمجاورين، وإلى بعض أصحاب المراكز المهمة، يدعوهم إلى دير المخلص، للاحتفال بصلاة الجناز، على نفس الراقد البار، وعيّن وقت الجناز، يوم الأحد الساعة الثانية بعد الظهر. وكذلك نعاه أيضًا إلى غبطة البطريرك كيرلس المغبغب، إذ كان يومئذٍ في مصر القاهرة. وأوعز إلى الدكتور حنا الحداد بتجويف الميت وتحنيطه، ليصبر على البقاء في الكنيسة إلى يوم الجناز. وبعد الكشف عليه، قرر الدكتور أن لا حاجة إلى تجويفه ولا تحنيطه، إذ وجده طاوي الحشا تمامًا، إذ لم يتناول طعامًا منذ خمسة أيام قبل موته.

ثم أوعز الأب العام بخرق حائط الكنيسة الجنوبي، إلى الغرفة التي بجانبها وجعل له تحت هذه الغرفة قبرًا خاصًا، يكون مدخله من الكنيسة، ليوضع على هذا المدخل بعد الدفن بلاطة من رخام، يحفر عليها اسم الراقد وتاريخ ميلاده وتاريخ وفاته. وكان كذلك.

ثم أوعز بعمل تابوت متقن الصناعة، ليوضع فيه الراقد بثوبه الرهباني، وأن يكون غطاه النصف الأعلى من زجاج، ليسهل على الناس مشاهدته والتبرك بقبلة يديه. فعمل التابوت وفقًا لذلك. وجُعل فيه الراقد على منصة عالية من الكنيسة، كان عرضة لأنظار الناس فيها يوم السبت والأحد.

ويوم السبت مساء، أقبل إلى دير المخلص، الحبر الجليل كيريوس اكلمنضوس معلوف مطران بانياس، أكبر المطارنة المخلصيين سنًّا ورسامة، إجابة لطلب الأب العام، مع الأب اثناسيوس قسيس ب.م، وأخبر أنه رأى في الحلم، أنه في كنيسة عظيمة مع أربعة من المطارنة بأثوابهم الحبرية، وحواليهم عدد جزيل من الكهنة، رافعين أيديهم جميعًا بالصلاة إلى السماء. وقد ترك هذا المنام في نفسه أثرًا بهيجًا جدًا. ولما بلغته برقية الأب العام يوم السبت بعد الظهر، أدرك تفسيره وتحقيقه بجناز الأب بشارة الاحتفالي.

ويوم الأحد منذ الصباح، أخذت جماهير المؤمنين تُقبل إلى دير المخلص، من القرى المجاورة، ومن صيدا وبيروت، ودير القمر، ليودّعوا الوداع الأخير الأب بشارة، مرشدهم والمحسن إليهم. وحضر أيضًا الحبر الجليل افتيميوس يواكيم مطران زحلة، مع وفد من أعيان أهلها، وأخيه الأب فيلبوس يواكيم. ثم السيد مكسيموس صائغ مطران صور، صحبة الأب يوسف زهار، مع الأستاذ جورج يعقوب نائب الجنوب في مجلس النواب.

وبعد الظهر، حضر من صيدا وفد من الرهبان الأخوة المريميين، وأعضاء أخوية الميتة الصالحة، وسواهم، ومعهم عدة أكاليل، حتى كانت الكنيسة تزدحم بالناس، وهم بكل وقار أمام جثمان الفقيد، وكل نواظرهم متجهة إليه على منصة عالية، يرون وجهه من خلال زجاج التابوت، الذي جُعل خصيصًا لذلك.

وقبل المباشرة بصلاة الجناز، حضر أيضًا من صيدا الحبر الجليل المطران بولس عقل، النائب البطريركي الماروني العام، وكان في صيدا بمهمة خاصة من قبل غبطة البطريرك إلياس الحويك، وإذ سمع الناس على

اختلاف طوائفهم وطبقاتهم يتحدثون بفضائل الأب بشارة الفائقة، أحبّ أن يشترك بالصلاة عليه، وأتى بصحبته اثنان من الكهنة الموارنة.

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر، بدأ الطيب الذكر مطران صيدا بصلاة الجناز الاحتفالية، مع السادة المطارنة الذين تقدم ذكرهم، ومعهم نحو مئتين من الكهنة والرهبان والراهبات، وجمع غفير من المؤمنين، حتى كانت الكنيسة تزدحم أي ازدحام مع سعتها، وهي من أكبر الكنائس الشرقية سعة.

وكان يقوم بترتيل صلوات الجناز في الخورص، تلاميذ المدرسة الرهبانية، بإدارة رئيسهم الخوري افثيميوس سابا، وأستاذهم البارع الأب كيرلس حداد. ثم أعطي الإنجيل المقدس إلى المطران بولس عقل، فتلاه في وقته من الجناز، وبعده قُرئت البركية من رومية، التي يمنح بها الحبر الأعظم للراقد البركة البابوية مع الغفران الكامل. ثم ارتجل المطران بولس عقل خطابًا جميلاً، تناول موضوعه مما عرفه وشاهده في ذلك اليوم عن الراقد القديس، في جوهر القداسة في كنيسة الله المقدسة، بوجه عام، ثم قداسة الفقيد البار، وعمّا سمعه عنه من هذا القبيل بوجه خاص. فكان لكلامه أثر جميل في النفوس، لانطباقه تمامًا على مقتضى الحال، البارزة بحياة وموت الراقد البار.

ثم عَقِبَه الحبر العلامة المطران اثناسيوس خرياطي مطران الأبرشية، بخطاب نفيس، أتى به على موجز سيرة الفقيد، منذ نشأته إلى آخر ساعة من حياته.

ثم وليَهُ السيد افثيميوس يواكيم مطران زحلة، بكلمة وداع جميلة، بالأصالة عن نفسه، وبالنيابة عن أهل زحلة مسقط رأس الفقيد.

ثم علا منبر الكنيسة حضرة الأب الفاضل الخوري نقولا أبي هنا الخطيب المفوه، بإيعاز الأب العام، وألقى تأبينًا جميلاً، أجاد فيه تمام الإجادة. وقد طبعه ووزعه على أصحابه. وسنذكر منه شيئًا في آخر كتابنا أو في محله المناسب له.

وبعد تقبيل الإنجيل ويد الراقد بالرب، أثناء ترانيم الوداع الأخيرة من الجناز، وضع السادة المطارنة في التابوت، زجاجة بيضاء مختومة بشمع احمر، عليها ختم الرئاسة العامة، وفي داخلها ملف ورق كُتب عليه موجز حياة الراقد البار، موقّعًا بإمضاء السادة المطارنة والرئيس العام والزائر الباباوي وسمّروا التابوت بأياديهم، وحمله الكهنة على أكتافهم، وطافوا به في الكنيسة بالترتيل والبخور، إلى ان بلغوا الضريح المعد له، كما نوّهنا عنه، تحت أيقونة المخلص الكبيرة، فواروه فيه. وقد حفر على بلاطة من الرخام وضعت على مدخل قبره، هذا التاريخ:

"هنا يستريح على رجاء القيامة الأخيرة، المثلث الرحمات الأب بشارة أبو مراد، الراهب المخلصي. مثال الحياة الرهبانية العالية، والكمال الكهنوتي السامي. سنة ١٨٥٣-١٩٣٠".

وقصارى الكلام، أن يومي السبت والأحد كان الحزن العام ممزوجًا بالعزاء الجميل، على رجاء الحياة الأبدية السعيدة، التي انتقل إليها الراقد البار، لأن موته كان بنظر الجميع بدء حياة سعيدة، ويوم فوز، وانتصار له على أعداء خلاصه، أو يوم إكليله في السماء، وقد ناله من عدل الله بثباته في الصلاح إلى النفَسَ الأخير من حياته على الأرض، وفقًا لقول المخلص: "من يصبر إلى المنتهى يخلص".

﴿ الفصل الثاني والأربعون ﴾

في فضائله السامية

الفضائل جمع فضيلة، وهي صفة ثابتة في نفس صاحبها، تصدر عنها منه أفعالٌ صالحة تظهر فضله. واسمها مشتق من الفضل، بمعنى الزيادة والإحسان. وفي اليونانية واللاتينية virtus من القوة، لأنها تَصدر عن قوى الإنسان العاقل بحزمه وعزمه، أي بعقله وإرادته. وهي بالحقيقة تدل بذات طبعها، أن صاحبها ذو نفس كبيرة قوية، يتغلب بها على كل صعوبة، لبلوغ مقاصده، التي يرى فيها كمال سعادته.

وقد تكون الفضائل نفسية محضًا كالفهم والذكاء، وليس عليها كلامنا هنا. بل مدار كلامنا على الفضائل الأدبية، التي تقتضيها طبيعة المجتمع الإنساني، وتوجبها الشرائع العادلة على كل إنسان، لخيره ولخير الناس عامة، في هذه الدنيا والأخيرة.

وقد تكون مكتسبة بتكرار الأفعال الخاصة بها، والاعتياد على ممارستها. وقد تكون غريزية في خلق صاحبها، فتزداد بممارسة أفعالها قوة "وسهولة" وثباتًا.

وقد تكون مُفاضة في نفسه، بفضل من الله أو بنعمة منه، يختص الله بها مَن يشاء من خلقه، بقدر ما يشاء، والله جوّاد كريم.

فتكون بهذا الاعتبار، مواهب خاصة وزيادة فضل منه تعالى، فوق طبع الإنسان.

وأما الفضائل المسيحية منها، فهي الفضائل التي علَّمها السيد المسيح، لتلاميذه وأتباعه، بأقواله وأعماله، وهم يمارسونها لوجه الله، وطاعةً له، واقتداءً به. وبهذا الاعتبار، تكون سامية فائقة.

وينبغي أن نعلم، بأن ممارسة هذه الفضائل لا تكون ذات قيمة فائقة عند الله، أو ذات استحقاق في الآخرة، إلا إذا كان صاحبها يقصد بها وجه الله، ورضاه، أو طاعته. وإلاّ فلا تخرج عن كونها إنسانية محضة، لا شأن لها، والحالة هذه، بالآخرة. وبالتالي، لا تستحق المكافأة الفائقة من الله بالسعادة الأبدية، التي هي فوق طبع الإنسان، وفوق استحقاقه بأعماله الإنسانية، إذا كانت بدون قصد رضا الله.

وهي بالحقيقة والفعل، لا تكون منفردة في إنسان. بل لا بدّ أن تكون مجتمعة مع سواها من الفضائل، سواء كانت غريزية أو مُكتسبة أو مُفاضة. فإنها تُلازم بعضها، ويتولد بعضها من بعض فتتعزز كل واحدة منها بصاحبتها أو بصواحبها، لما بينها من شدة الارتباط والاتحاد في مصدرها ومبداها، الذي هو الله والإنسان، وفي غايتها التي يتوخاها الإنسان عادة، ويقصدها بأعماله.

ثم يجب أن نميّز هنا بين هذه الفضائل والأفعال الصالحة. فإن الفضائل ملكات راسخة في النفس، تصدر عنها هذه الأفعال بسهولة، على وجه ثابت. والأعمال الصالحة، لا تستحق اسم الفضيلة إلا إذا كانت تصدر عن ملكة، راسخة في نفس صاحبها، لا لسبب طارئي قد يعود عنها صاحبُها إلى ما يخالفها، أو يُضادها وينقضها كما يشاء، أو كما يدعوه الهوى.

ومرادنا بفضائل الأب بشارة في هذا الفصل، فضائله المسيحية السامية، خاصة البارزة بأعماله الصالحة، بثبات عجيب، من أول حياته

المسيحية أو الرهبانية إلى النفس الأخير، مما لا ريب بأنها صادرة عن نفس بارة، كريمة عند الله، مُعززة بنعمة منه فائقة، بإيمان حيّ، ورجاء عظيم، ومحبة فائقة كل محبّة، لا يشوبها شائبة زغل أو غرض بشري.

ولا نحاول أن نعدد هنا هذه الفضائل واحدة واحدة، ولا أن نأتي على وصفها بالتمام كما ينبغي، إذ لا يسعنا ذلك في هذا الفصل. وإنما نخص بالذكر منها أمهاتِها، أو السامية منها، الدالّة على غزارة نعمة الله، في هذه النفس الكريمة. وقد قال فيه بهذا الصدد، أحدُ رفاقه في حياته الرهبانية شابًا وشيخًا، حضرةُ الأب الجليل الارشمندريت بطرس الخرياطي ب . م، كلمةً موجزة ما أصدقها وما أحلاها في موضعها هنا. وهذه هي: أية فضيلة مارسها القديسون و لم يمارسها الأب بشارة؟

وأول هذه الفضائل فضيلة الإيمان، التي هي الركن الأول والأساس لكل فضيلة، وقد أفاضها الله في نفسه منذ صغره، بسر العماد المقدس الذي ناله بكفالة والديه. ثم نَمَت هذه الفضيلة وتعززت فيه مع الأيام، بفضل عنايتهما به وتربيتهما له تربية مسيحية كما ينبغي، على ممارسة أسرار الكنيسة، وأعمال التقوى التي تزكي النعمة وتقويها، حتى شبّ وثبت عليها إلى أن شاخ، ومات وانتقل إلى الحياة الأبدية الفضلى.

على أن الإيمان الصحيح الصادق، لا يكون إلا مع الرجاء برحمته تعالى، والاتكال عليه، وعلى صدق وعده بالخيرات الأبدية. وكذلك لا يكون هذا ألإيمان صحيحًا أو حيًا بدون أعمال التقوى، ومحبة الله، ومحبة القريب لأجل الله. لأن الإيمان، مهما كان قويًا ومعززًا بالرجاء، فلا فائدة فيه لصاحبه بدون أعمال التقوى، إذ يكون حينئذ هذا الإيمان في نفسه كالميت، لا يتحرك لعمل مفيد يدل على حياة صاحبه، حياة إيمان ودين. بل لا يدلّ إلا على فساده.

نعم إن نعمة الإيمان أفاضها الله على جميع المسيحيين بالسواء، في سرّ العماد، الذي فيه إعادة ولادتنا الدينية بالمسيح، والإيمان به. إلا أن استخفاف كثيرين بهذه النعمة، وإهمالهم ممارسة الأعمال الصالحة، التي يوجبها هذا الإيمان، جعل إيمانهم كالميت، لا يزكو ولا ينمو ولا يتحرك صاحُبه بعمل صالح، أو بفضيلة حميدة تدل على وجود هذا الإيمان في نفسه.

وأما الأب بشارة، فكان الإيمان يستغرق كل أعماله ويستوعبها كلها، وكأنه ما كان يحيا إلا بالإيمان، أو كأن الإيمان المسيحي مبدأ ومصدر لكل أعماله وفضائله. وأي دليل أظهر وأوضح على إيمانه الحي، من دوام مثابرته على عبادة الله، بأعمال التقوى، ومحبة الله فوق كل شيء، وعلى محبة القريب لأجل الله، كل مدة حياته، بدون ملل ولا ضجر ولا فتور؟

لا ريب، بأن الملل والضجر والفتور الذي يستولي علينا عادة، في كثير من أعمالنا المختلفة، ولاسيما إذا طال أمدها، إنما هو من لوازم ضعف عقيدتنا بصحة مبدانا في هذه الأعمال، وضعف أملنا بنجاحنا فيها، لبلوغ غايتنا التي نتوخاها منها. فإن ثباتنا فيها، هو الدليل الصادق على ذلك، ومقدار ثباتنا فيها هو القياس الصحيح على ما في نفسنا من ذلك. وبناءً على هذا الاعتبار الصادق الذي لاشك فيه، نستدل من هذا الثبات العجيب، الذي ظهر لنا من الأب بشارة، ومثابرته على الأعمال الصالحة كل حياته، بلا ملل ولا ضجر ولا فتور، على أنها صادرة عن إيمان حي، مقرون برجاء وطيدٍ في الله وبمواعيده، وأنها نتيجة قوة الله الفائقة، التي اختصها الله به، نعمةً منه وتفضّلاً عليه.

وبالتالي يصحّ بل يحق لنا أن نقول عنه، بكل حق وصدق بدون مبالغة، إنه قضى حياته بعبادة الله بالروح والحق كما ينبغي، بصلواته

المتواصلة، التي هي جوهر العبادة الحقيقية، وفي الأعمال الصالحة لخير القريب، الذي هو صورة الله وعمل يديه، كما يعلم حقيقة ذلك كل الذين كان لهم معرفة به، ولاسيما الذين عرفوه شابًا وشيخًا.

وكانت محبته للقريب، تظهر مجسّمة بأعماله، وانعطافه القلبي، بنوع واضح على وجهه الباش مع الجميع، حتى كان يُخيل إلى كثيرين من أصحابه، أنه كان يحبهم محبة خصوصية ممتازة، أفضل وأكثر من سواهم، بحب منزّه عن كل غرض ونفع ذاتي.

وحقيقة الواقع أنه كان يحب الجميع على السواء، بانعطاف وإخلاص، لأجل الله، الذي يستحق أن يُحَب في خلقه، ولاسيما الإنسان، الذي خلقه على صورته ومثاله، وافتداه بدمه الكريم. ومن ثمّ كانت محبة القريب من فيض وفضل محبة الله عنده، وهي بالحقيقة الدليل الصادق عليها في أعماله مع الناس، ولاسيما الفقراء، والمرضى، والخطأة المحتاجين إلى مساعدته، بغيرة خالصة لوجه الله. فوق محبته لنفسه، وهي أعظم أنواع المحبة.

وهذه الفضائل الثلاث، يقال لها إلهية، لأن الله مصدرها ومبدأها، لأنها نعمة منه تعالى، وهو غايتها وموضوعها الخاص، ومنها تتولد فضيلة التقوى، أو خوف الله، والتواضع وسائر الفضائل الدينية. وإذ يطول بنا كثيرًا نفس الكلام عن فضائله، إذا حاولنا أن نشبع الكلام عنها كلها كما ينبغي، نقتصر على ذكر فضائله الرهبانية، التي لها علاقة بحفظ نذوره الرهبانية، أي الطاعة والعفة والفقر الاختياري.

﴿ الفصل الثالث والأربعون ﴾

في اطراد الكلام على فضائله السامية

الطاعة، فضيلة أدبية اجتماعية، لابد منها لقيام وحفظ كيان كل جمعية، مؤلّفة من أفراد أحرار، مختلفين بعقولهم ومقاصدهم. وهي عند المسيحيين، ولاسيما الرهبان، منهم فضيلة دينية، تُوجب على الراهب، أن يخضع بأعماله لأمر رؤسائه وإرادتهم، لأجل الله وكرامة له. وكمالها، أن يتجرد بقصده ونيته من كل اعتبار بشري، ليكون عمله متجهًا بتمامه إلى الله، مبدأ كل سلطة. ولا ريب أن الأب بشارة، قد بلغ بممارسة هذه الفضيلة كمالها، إلى أقصى ما بلغ فيها أبناء الطاعة القديسون، وأنه ما خالفها في شيء كل حياته، التي قضاها كلها مرؤوسًا لا رئيسًا. ولم نجد أحدًا من رؤسائه يلومه على مخالفة أو تقصير، إذ كان خاضعًا دائمًا لهم، باطنًا بعقله وإرادته، بقدر ما كان خاضعًا لهم بالعمل والخارج. ولم يسمعه أحد يشكو من رئيس، على ظلامة أو جهالة أو سوء إدارة، وقد كان أكثرهم أصغر سنًا منه. ويحسن بنا أن نذكر هنا، ما كتبه عنه أحد رؤسائه الأب ملاتيوس خوري بهذا الصدد، عن خبرة تامة به، بعد أربع وعشرين سنة معه، قال:

منذ أتيت إلى دير القمر كاهنًا، وتعينت رئيسًا على الرهبان، لم يخالف لي أمرًا، ولم يقل لي ولا عني كلمة سوء، أو تحقير أو تصغير، ولو كانت بحقٍ، مثلاً هذا شاب، أو هذا أصغر مني، كما كان الواقع. بل كنت بعض الأوقات أجربّه وأمتحن طاعته. مثلاً عندما كان يعود من الوادي الظهر أو الهاجرة، في إبان الصيف، أقول له، قبل أن يجلس على

المائدة للغداء: يوجد في كفرقطرة مريض. فيتناول حالاً رغيفين في يده، ويضعهما في محرمته ويسير. فأقول له حينئذ: أرجع، تناول غداك ولا تذهب، فإني أمزح معك، للتسلية بعد الأكل. وإذا قلت له: قدّس، قدَّس. وإذا قلت له: اذهب إلى المحل الفلاني، يذهب حالاً. وإذا قلت له: لا تخرج اليوم من الانطوش، لم يخرج منه ولو دقيقة. إلاّ أنه ما كان يطيع لي ولا لغيري أمرًا بما يخالف وصية الكنيسة، بمناولة الطعام الزفر يومي الأربعاء والجمعة، وباقي الأصوام والقطاعات، ولو كان مريضًا مرضًا ثقيلاً. واتفق مرة أن مرض مرضًا ثقيلاً، في قطاعة السيدة، فأمرتُه بشدّة أن يأكل زفرًا، فلم يفعل. فبلَّغت ذلك إلى الطيب الذكر المطران باسيليوس حجار، فذهب لزيارته معي، وقال له كل حليباً، وأنا أحلّك من قانون القطاعة. فأجاب: طيب سآكل. فقلت حينئذ لقواص المطران يوسف واكيم، الذي هو اليوم كاهن المية ومية: اذهب، أحضر له الحليب، ليشرب قدّام المطران، ففعل. وإذ حضر الحليب، قال له المطران: هذا الحليب قمْ، اشرب. فأجابه: سأشرب بعداً. فكرر له المطران القول ذاته مراراً، وأنا كذلك، لكن بدون جدوى، وهو يقول: بعدًا بعدًا. وأخيرًا زعل المطران، وخرج وهو يقول: "عمرك لا تشرب، قليل الإدراك، لا يسمع من حبر الكنيسة".

الفقر الاختياري، فضيلة مسيحية، علّمها السيد المسيح لتلاميذه بمَثَلِهِ في حياته، باختياره مذود البهائم الحقير، بيتًا له بميلاده فيه. وقضى حياته كلها، كما قال الإنجيل عنه: "ليس له مكان يسند إليه رأسه"، حتى مات أخيرًا على صليب عاريًا. والرهبان، أوجبوا على نفوسهم ممارسة هذه الفضيلة بنذر، جعلوه سُنَّة على نفوسهم. وقد بالغ الأب بشارة بممارسة هذه الفضيلة، حتى بلغ فيها الغاية والكمال منها، على ما يعرف ويشهد

بذلك كلُ معارفه وأصحابه. ويحسن أن ننقل هنا، ما كتبه عنه بهذا الشأن، رفيقُه الأب ملاتيوس خوري قال:

لم أسمعه مرة قد ذكرِ المال، أو طالب أحدًا بحق مالي، أو تذمّر من أحد لسبب مالي، أو لحقٍ له عنده لم يدفعه. أو قال: فلان أعطاني كثيرًا أو قليلاً، أو قال: فلان غنّي. وإذا كان مصروفنا الشهري زاد على المرتّب لنا، معاشًا شهريًا من وكلاء الوقف، كان يدفعه بدون اعتراض ولا مماطلة ولا شكوى، لا بوجهنا ولا بغيابنا، مع أنه كان يأكل قدر نصف ما يأكل الواحد منا. وكنت ألومه مرارًا لإعطائه مبلغًا من المال، قرضة لأناس فقراء لم يُرجعوه له إلى اليوم، فلم يشكُ منهم، ولا تذمر عليهم من سلوكهم، أمامي ولا أمام أحد. بل كان يقول كعادته: هؤلاء فقراء مساكين، الله يساعدهم. ودفع مرة أمامي لشخص عشرين ذهبًا عثمانيًا، نفقة سفره إلى أميركا، فسافر وإلى اليوم لم يدفع له بارة. وإذ كنت أذكّره به بعض الأوقات، فكان يجيب: بأنه مسكين الله يسامحه، لو كان معه، لكان أرسله وزيادة، ولكن يظهر أنه غير موفق. وقد سفَّر غير واحد على نفقته، ولم يكن يشكو من احد منهم أمام أحد. إلا أنه يظهر أن ضميره كان يبكّته على استعماله هذا المبلغ الكبير، الذي يعدّ بمقتضى نذر الفقر، أنه من مال الرهبانية. ولكبر قدره لا يمكن أن يحسب حسنة، ومن ثم كتب رسالة إلى الأب العام، يعترف له بذنبه هذا، ويلتمس السماح منه على ذلك، وتعهد بان لا يعود إلى مثله.

وكان كل مرة يعطي مبلغًا لأحد، يقول لي: أعطيت لفلان قدر كذا. فكنت أقول له: من أين له أن يرده لك؟ فيقول لي: مسكين فقير، إن رجّعه أو لم يرجعه، لمجد الله.

وقد اتفق أن نسي مرة باب غرفته مفتوحًا، فسرق له احدهم منها مبلغًا من المال، فأتى إليّ وأخبرني بذلك. فذهبت إلى غرفته، فوجدت

الفرشة والطرّاحة والحصيرة مقلوبة رأسًا على عقب، ويظهر أن السارق، كان يعرف بوجود المبلغ أو بشيء منه، فقلب الفراش والطرّاحة والحصيرة حتى وجد الدراهم تحت الحصيرة، فأخذها مسرعًا، تاركًا كل شيء على حاله. فلمتُهُ على وضع الدراهم في محلها هذا، وعلى عدم وضعها في صندوق مقفل، وزعلت لذلك كثيرًا. فقال لي: لا بأس ولا تزعل، أنا لست الآن محتاجًا نظيره، والله يرزقنا غيرها، ويظهر أن السارق مسكين وفقير ومحتاج إلى ذلك، ولولا حاجته ما كان سرق، الله يسامحه. والغاية لم يزعل، ولم ينزعج لذلك، بل ذهب إلى الكنيسة يصلي لأجل السارق، ليغفر الله له خطيئته. وهذا أوضح دليل على زهده بالمال، وعلى محبته للقريب فوق المال، وفوق محبته لنفسه، ولو كان شرّيرًا ولصًا سارقًا.

العفة، فضيلة ملايكية أكثر منها أدبية، يوجبها الراهب على نفسه، بنذر وعهد لله، على أن يمتنع عن كل محرّم وحلال من شهوات الجسد، ليكون لله بجملته، طاهرًا نقيًّا، بجسمه ونفسه وعقله وكل رغباته، وليكون متجهًا تمامًا نحو الله، بكل عواطف نفسه، بلا مانع من قبل هذا الجسد المركب من لحم ودم. ولا يخفى أن الإنسان لا يقدر أن يكون عفيفًا حقيقة بالتمام، بدون عون الله تعالى له، مع إعمال الشدّة في عزمه على إماتة أهواء وأميال هذا الجسد، والنفس الأمّارة بالسوء، أو أهواء الإنسان الجسداني.

وإذ كانت العفة من خواص النفوس المجردة عن الجسد، وتخالف أمياله، كان إحرازها صعبًا، بل متعذرًا على الإنسان، المتلبس بهذا الجسد المتحد به، طبعًا إلا إذا قهر أمياله الجسدية، بقوة عزمه، مع مساعدة نعمة الله له. ولشدة هذه الملابسة بين النفس والجسد يقال لهذه الأميال على سبيل التسامح، أهواء النفس والذات أيضًا. فقهرُ الذات إذا أول شرط

للعفة لابد منه، وهو الدليل الصادق عليها، وكان يدعوه الأب بشارة كسر الإرادة، ويدعوه بولس الرسول إماتة، وهي صنفان باطنةٌ، تقوم بقهر أميال النفس الباطنة الخفية في الإنسان، وخارجةٌ، تقوم بإمساك النفس، ومنعها عن التمتع بطيبات الدنيا، مما هو خارج عن النفس. وكلاهما لابد منه للعفة، لأن القبيح الذي لا يجوز عمله بالخارج، لا يجوز ذكره ولا التفكر به باطنًا. بل يجب مجانبته، والابتعاد عنه وعن الأسباب التي تدعو إليه.

وقد بلغ الأب بشارة بعفته حدّ الكمال، وهو بعنفوان شبابه. فلم يكن يعفّ فقط عن ارتكاب الأعمال القبيحة والشهوات المحرّمة، بل كان يُمسك نفسه ويمنعها عن كل لذة حسية، ولو كانت مباحة، صيانة لعفة نفسه. وبلغ بها إلى أن قهر نفسه، واماتها في كل أميالها. فلم يكن يكتفي بممارسة الأصوام، المفروضة من الكنيسة فرضًا على بنيها. بل زاد عليها، بأنه كان يمنع نفسه دائمًا عن الأكل صباحًا، ويكتفي بأيام الصيام بوقعة واحدة، ويختار الفتات من الخبز لقوته. وكان يضع على الطبيخ الدسم الماء، حتى يزول طعمه وكل لذة فيه. وكان يمنع نفسه عن أكل شيء في غير وقت الأكل المعين، حتى لم يكن يشرب الماء في أحرّ أيام الصيف في البرية، إلى آخر أيام شيخوخته. بل كان يحمل في يده حجرًا ثقيلاً، كان يخفيه عن نظر الناس، تحت العباءة الثقيلة التي كان يلبسها في الصيف، أيام كان راعيًا للرهبان. ولم يكن ينظر محدّقًا بوجه امرأة أو رجل، ولا بشيءٍ من جمالات الطبيعة ومحاسنها، في الأرض ولا السماء، مع أنه كان جميلاً، والجميل يحبّ الجَمال. بل كان دائمًا منخفض النظر، أينما كان. ولا اذكر أني شاهدته، ولا غيري شاهده مرة، يقرأ في جريدة أو مجلة، ولو كانت أدبية ودينية، وقد امتنع عن كل فضول لمعرفة الأخبار وحوادث هذه الحياة.

وقد قهر نفسه وأماتها، حتى أزال منها قوة الغضب، مع أنه كان عصبي المزاج. ولم يكن أحد يشاهده غاضبًا أبدًا، كما أنه لم يشاهده أحد قط ضاحكًا ضحكًا بقهقهة، وإن كان السرور غالبًا عليه، مع بشاشة وجه، إلاّ وقت الصلاة والاجتماعات. ومع هذا، لم يكن يمزح بكلامه مع أحد مطلقًا، وإن كان يسرّ بالنكتة إذا سمعها، إن كانت لطيفة مهذبة. وإلا سدّ آذانه بإصبعه حالاً، نفورًا من سماعها إلى آخرها. وتمام القول بهذا المعنى، أنه قهر نفسه بكل أهوائها، وأماتها تمامًا، حتى صارت منزّهة عن كل عيب، بنعمة الله.

ولا نستطيع أن نختم هذا الفصل دون أن نقول كلمة عن تواضعه، الذي هو أجمل فضائله، عند الله والناس، وأكثرها رسوخًا في نفسه. وهو الحفرة التي وضع فيها أساس فضائله كلها.

وحقيقة التواضع، أن يضع الإنسان نفسه في موضعها الحقيقي، الذي شاء الخلاّق الحكيم أن يضعها فيه، بأن يعتبر عن يقين تام، أن كل ما له وما هو عليه، هو من جوده وفضله تعالى، وليس له أن ينسب شيئًا من هذا لنفسه، لا بقول ولا عمل ولا فكر.

والتواضع في الإنسان، من صحة اعتقاده أنه مخلوق من الله وعبد له، وأن أول واجب عليه أن يعبده تعالى بالروح والحق كما ينبغي، أو أن يتقيه تعالى كما يجب، وأن لا غنى له عن عنايته وفضله. ومن مقتضى ذلك أن يتذلل في نفسه أمام الله والناس، وأن ليس له مزية أو فضل على أحد من الناس، لولا فضل الله عليه.

كثيرون يصلّون ويتواضعون ويعملون الخير، ليذكرهم الناس بالخير الذي يفعلونه. وأما الأب بشارة، فإنه كان يفعل كل هذا لأجل الله، ولعرفانه قدر نفسه، بأنه تراب ورماد. ولذلك، كان يختار أن يجلس

دائمًا في آخر مكان، في كل مجلس إلى أن يقال له: اجلس هنا. وكان يسبق الجميع بالسلام. إلا أنه لم يكن يبدأ بحديث مع أحد. وجوابه كان بإيجاز، بقدر السؤال، كالفتوى. إلا إذا أراد أن يُظهر اهتمامه بخدمة للمخاطب. ولذلك لم يكن يجادل في شيء، ولا يُلحّ في طلب حاجة مهما كانت. ولا يَذكر شيئًا من ماضيه، أو عملاً من أعماله أمام إنسان. ولا يَعِد أحدًا بشيء من ذات نفسه. ولا يذكر أحدًا بعيب أصلاً، ولو على سبيل المزاح. ولم يكن يستعمل المزاح مع أحد أصلاً. لكنّه يذكر الجميل عند الاقتضاء، ويشكر صاحبه عليه، سواء كان عمله له أو لآخرين. ولم يكن يبالغ بالمديح كثيرًا، ولم يكن يمدح أو يشكر إنسانًا إلا تابَعَ ذلك بالدعاء له، والصلاة لأجله. وإذا مدحه إنسان، تغيّرت وتبدّلت سحنته حالاً، حياء وخجلاً، وسكت ليقطع على المتكلم حديثه بهذا الشأن، بدون أخذ وردّ، أو سدّ آذانه بأصابعه، وغطّى وجهه بكفّيه. أو قال: أنا خاطي. وخطيئتي عظيمة.

ولبليغ تواضعه في نفسه، لم يكن يَظهر عليه شيء من التكلف، أو التصنع الكاذب، في كلامه السابق ذكره، أو ما شاكله، لأن إمارات التواضع الحقيقي، كانت ظاهرة عليه بكلّيته نفسًا وجسمًا، في رأسه المنخفض، ونظره، وكلامه، إن مشى، أو جلس، أو صلى، أو سلّم، أو تكلّم، أو سكت، أو مرض، أو تعافى، أو تألّم.

ولئلاّ يطول بنا الكلام كثيرًا بهذا الفصل، ويملّ القارئ العزيز من إطالته، نختمه بما ذكره حضرة الأب ملاتيوس خوري عنه بهذا الصدد، قال:

قلت مرة للمرحوم المطران باسيليوس حجار، أن يرسم الأب بشارة ارشمندريتًا، مكافأة له على تعبه وأعماله، في خدمة النفوس في أبرشيته. فقال لي: هذا واجب، لكن المذكور لا يقبل. فقلت للمطران: أنا أقنعه

بقبول ذلك. ثم ذهبت قابلت الأب بشارة، وقلت له: سيدنا يريد أن يرسمك ارشمندريتًا. فقال لي: في اي وقت؟ قلت له: غدًا صباحًا، قبل سفره إلى صيدا. قال لي: أنا ممنون. وتبسّم. فقلت له: إياك أن تمانع. فقال لي: أصير إذًا ألبس الصليب والخاتم واللاطية؟ قلت: نعم. قال: من أين أجيب كل هذا؟ قلت له: أنا أقدّم لك الصليب، والمطران يقدّم لك الخاتم. قال: مليح، أصير إذًا ألبس رسميًّا في الوادي؟ أجبت: نعم، ولا بأس إذا لم تلبس، لكن يكون لك لقب ارشمندريت للشرف. قال: طيب...

وفي اليوم التالي، إذ قام المطران ليقدّس طلبه فلم نجده، لأنه ذهب باكرًا إلى الوادي. فقال لي المطران: أما قلت لك أنه لا يقبل.

وعند المساء، عاد الأب بشارة من الوادي. فقلت له: لماذا فعلت بنا هكذا، والمسألة مع المطران؟ فقال لي: لماذا لقب أرشمندريت ولبس لاطية وغيرها؟ ولماذا كل تعب القلب؟ وهل أنا اعرف ألبسها؟ أنا ممنون، كثّرّ الله خيرك وخير سيدنا المطران.

﴿ الفصل الرابع والأربعون ﴾

في حوادث وأخبار شتّى عنه

جرى مرة الحديث أمامه عن حوادث سنة ١٨٦٠، وأخذ البعض يدعون على الدروز. فنهاهم عن ذلك، وقال لهم: حرام. فقال له غير واحد منهم: كيف هذا حرام؟ بل حلال، جزاء ما فعلت أيديهم بالنصارى، وفيك وبأهلك وبأهل زحلة. فتبسّم وقال لهم: هذا بسماح الله كان. وإلا لما صار شيء من هذا. والغاية أنه كان لا يحقد على أحد، ولا يذكر أحدًا بشرٍّ.

وفي أوّل سنيّ أيام خدمته في الوادي، اتفق أن ذهب إلى هناك يوم أحد، لإتمام خدمته فيها. وكان شتاء، والمطر يهطل عليه بغزارة طول الطريق، وهو لا يبالي. ولما بلغ مسيل الماء، الجاري في ذلك الوادي، ورام أن يعبُر إلى الجهة الثانية على القنطرة التي هناك، وجد المياه تجري فوقها بغزارة وقوّة. لكنه ما بالى بذلك، بل سار عليها متكلاً على الله، بعد أن رسم ذاته بإشارة الصليب كعادته. وإذ كانت مياه الأمطار والسواقي المنصبّة على الوادي، تجرف إلى مجراه كل ما تجد أمامها من تراب وخشب، قذفه هذا السيل مسافة، ولا نعلم كيف نجا، وأتمّ طريقه إلى القرية، حتى قدّس فيها، وكانت المياه تسيل من ثيابه كلها وقت القداس، ولم يذكر لأحد شيئًا مما أصابه في طريقه. ولم يقترب من النار لينشّف ثيابه إلا بعد القداس، وبعد أن شددّوا الطلب إليه كثيرًا. وهذا كان شأنه دائمًا، صابرًا على كل ما يصيبه، اعتقادًا منه أنه كان بسماح الله وإرادته.

روى، لي ولغيري، سليم أبو رجيلي، أنه كان يرافق الأب بشارة مرارًا، ليخدم له القدّاس في بعض القرى، وكان له عادة، أن يقضي الطريق بالصلاة معه، فكان يقول الأب بشارة القسم الأول من الصلاة الربية والسلام، ثم يُكمل القسمَ الأخير منها رفيقُه. فاتّفق ذات مرة، أن ضجر سليم المذكور، أو تعب في الطريق، وكفّ عن الجواب. فالتفت إليه الأب بشارة، وأبصره أنه حردان، فقال له: لماذا لا تجاوب؟ أوَ لا تحب الصلاة، يا ابني؟ فأجابه سليم: بلى، ولكن أصلّي بقلبي. فقال له: ماذا تصلي؟ فأجابه، وأراد أن يداعبه: أطلب من الله أن يقطع لسانك، حتى تستريح وتريحني من الصلاة، فقد زحت الله وزحتني، بكثرة الصلاة. فضحك له، وقال له كعادته: الله يساعدك، هل في الصلاة تعب، بل الصلاة خير، وزيادة الخير خير. ثم استأنف صلاته وحده، دون أن يزعج رفيقه، وكان سليم حينئذٍ فتى صغيرًا. وبعد قليل استرضاه، وأخذ يصلّي معه.

ذكر هذا الخبر، الخوري نقولا أبو هنا، عن لسان المطران مكسيموس الصائغ، الذي سمعه من سليم المذكور، في دير المخلص يوم جنّاز الأب بشارة.

وذكر الأب ملاتيوس خوري، فيما ذكر عنه، الخبرَ التالي قال: ذهبت في أيام الحرب، إلى بكشتين، للسلام على سعيد بك البستاني، وتهنئته برجوعه من المنفى، برفقة الخواجا سليم نجوم وسليم البستاني، فقلت للأب بشارة: هل تريد الذهاب معنا؟ فقال لي: أمرك. وسار معنا. وبعد زيارتنا لسعيد بك، ذهبنا إلى الدبّية. وإذ علم بحضورنا إلى هناك، الوجيه الكريم الخواجا ألبر حبيب دوماني، وكان مقيمًا حينئذٍ في ضيعة له كان اسمها بقعون، دعانا إلى تناول الغداء عنده. فذهبنا كلنا، وكنا قد خرجنا من دير القمر صباحًا بدون أكل. وقد أعدّ لنا غداءً فاخرًا، بل

نادرًا في تلك الأيام، وأكلنا مليًّا. لكن الأب بشارة، أبى أن يأكل شيئًا معنا، لأن الأكل كان زفريًّا، واليوم يوم جمعة. ولم نستطع كلنا أن نحوّله عن عزمه ليأكل معنا، ولو أكلاً صياميًّا من حواضر البيت، وهو يقول: لا أقدر، لست جوعان. ولمّا عزمنا على مبارحة دار آل دوماني والعودة للدير، قلت للخادم أن يعطيه زوادة صيامية للطريق، خوفًا من أن لا يقدر أن يسير معنا الطريق كله، مسافة ثلاث ساعات نزولاً وصعودًا. ففعل الخادم. ولما بلغنا بطريقنا صعدًا إلى كفرحيم، نظرت إليه حاملاً زوادته، ورجليه ترجف من الضعف والجوع، فقلت له: اجلس، كل زوادتك. فلم يفعل. ثم واصلنا طريقنا إلى دير القمر، فالتقى بنا هناك ولد فقير، فغافلني وأعطاه الزوادة. ولما عرفت، أنَّبتُه على ذلك، وقلت له: إنك بالحقيقة تريد عمدًا أن تموّت نفسك. فسكت، وبقي صائمًا إلى وقت العشاء، فتعشى في الدير كالعادة.

ومما يدلّ على شجاعته الأدبية فيما لله، ما يأتي في هذا الخبر، وهو أنه تقدمت مرةً ابنةٌ صبية، لتناول القربان المقدس من يده، بعد القداس، في دير القمر، وقد جرّدت زنودها وقسمًا من صدرها، كشكل بعض الغاويات المتفرنجات من نساء هذا العصر. فقال لها: اذهبي يا ابنتي، بدّلي ثيابك، واستري جسمك بحشمة، وهلمّي تناولي. فذهبت الصبية طائعة، وفعلت كما قال لها، وعادت إلى الكنيسة حالاً لتتناول، فناولها هو ذاته، ومدح تقواها، إذ صارت مثالاً صالحًا بتقواها وحشمتها وطاعتها، وأصلحت بذلك ما بدا منها سابقًا عن خفة بدون قصد للشر.

ومن هذا أيضًا، أنه أبصر ذات يوم، في كنيسة صيدا، بطريقه إلى كرسي الاعتراف، امرأة، جرّدت هكذا زنودها من ملابسها، تقليدًا لنساء العصر الغاويات من الإفرنج ـ ولا أحبّ أن أذكرها باسمها، حفظًا لكرامتها، وأنا أعرفها عن يقين، ذات سمعة حسنة بآدابها وطيب

سريرتها، وأعرف كذلك زوجها من أفاضل وأتقياء أعيان صيدا ـ فوقف قليلاً بقربها، وخفض نظره وأطرقه في الأرض، ومدّ يدَه مشيرًا إلى عري زندها، ثم همس بأذنها بصوته المنخفض، وقال لها: ما هذا في الكنيسة... بيت الله؟ في الكنيسة، يجب أن تكون النساء بحشمة، في بيت الله للصلاة، لأن قلّة الحشمة تجلب علينا غضب الله عوض الرحمة... فسكتت المرأة، ولم تستطع أن تقول له كلمة جوابًا ولا اعتذارًا. بل عادت إلى بيتها، ولم تعدُ إلى الكنيسة بهذا الشكل من العري، وزاد احترامها واحترام زوجها للأب بشارة وللكنيسة، بعد هذا الحادث، الذي كان له أثر جميل في نفوس أهل صيدا، ولاسيما النساء، حتى لم تكن الواحدة منهن تجسر أن تظهر أمامه بهذا العري، ولو في بيتها، خشية أن يقول لها كلمة تونيب على ذلك في محلها.

ونختم هذا الفصل، بالخبر التالي عنه، بلسان رفيقه ورئيسه الأب ملاتيوس خوري قال:

كنا ذات ليلة من ليالي الصيف، نسهر حوالي المرحوم المطران باسيليوس حجار، في إيوان دار الأنطوش في دير القمر، بقرب باب كنيسة مار إلياس، وكان الأب بشارة يصلّي حينئذٍ كعادته في الكنيسة، أمام القربان المقدس، مع من كان يلتفّ إليه من النساء والرجال، وأفضى بنا الحديث حينئذٍ إلى ذكر أعمال الأب بشارة، ومثابرته على أعماله التقوية. فكان المطران يسمع كل ذلك، ويهز رأسه بانبساط وسرور، كعادته، إلى أن قال أخيرًا: إذا ثبت هذا الكاهن على هذه الأعمال، وفاز على الشيطان، بهذا السلاح سلاح الصليب والصلاة، فلا بد أن يُطوّب قديسًا. وإذا لا سمح الله فشل وغَلَبَه الشيطان، يكون سقوطُه هائلاً.

وهو ذا والحمد لله، قد انتهت حياته، بالثبات على البرّ والأعمال الصالحة، التي اعتادها منذ صغره، وقد فاز فوزًا كاملاً على الشيطان وعلى جسده، وعلى كل أعداء خلاصه، بفضل نعمة الله.

نسأل الله تعالى، باستحقاقات مخلصنا يسوع المسيح، وبكرامة خادمه الصادق ووليه البار، أن يحقق هذه النبوّة التي هي جلّ أماني تلاميذه، وأماني كل رهبان دير المخلص، ونرجو من كل قراء كتابنا هذا، أن يلتمسوا من جوده تعالى بصلاة خاشعة، أن يُحقق ذلك، وان يُلهم الرؤساء ليسعوا السعي اللازم لهذا الأمر، بإعداد كلّ ما يلزم بالطرق القانونية، التي تفرضها كنيسةُ الله المقدسة، للفحص، وتحقيق قداسة أولادها الصالحين.

﴿ الفصل الخامس والأربعون ﴾

في كرامة وعلوّ قدره عند الناس

لا يخفى، أن الفضيلة تجعل صاحبها محترمًا، ومكرمًا من جميع معارفه، مهما كانت آدابهم وأخلاقهم، ومهما كانت منزلته الاجتماعية فيما بينهم، لأن فضيلته تجعله في منزلة ممتازة، يفوق بها عليهم، حتى يُضطّرهم وجدانُهم أن يحترموه لأجلها. وإذا كان له في المجتمع الإنساني، رتبةٌ عالية، تُوجب الاحترام، فإن فضيلته الشخصية تزيده قدرًا واحترامًا، إذ يتضح للجميع أنه حاز رتبته هذه، عن أهلية واستحقاق ذاتي، لا عفوًا ولا اتفاقًا، ولا كرامة لأحد من ذويه وأصحابه.

ونحن نعلم العلم اليقين، مع كثيرين من القراء، أن الأب بشارة كان في حياته ذا قدر عظيم وكرامة فائقة، لدى كل الذين اتصلوا به، لأجل مجرّد فضائله الذاتية، التي كان مزدانًا بها. لا لمجرّد ثوبه الرهباني أو الكهنوتي، أو مراعاة للحقوق الإنسانية والآداب الاجتماعية العامة. وكان بظاهره مسكينًا بنظر الجميع.

فقد تقدّم الكلام، بأنه كان منذ صغره وفي عنفوان شبابه، محترمًا من أهله ورفاقه، لأجل تقواه وعقله ورصانته وحشمته فيما بينهم. وإذ شبّ على التقوى والفضيلة الراهنة، منزهًا عن زهو الشباب ونزغاته ونزعاته المعروفة زاد قدره احترامًا عند الناس عامةً، وخاصة بين الكهنة، ومعلميه ورؤسائه في المدرسة الأسقفية في زحلة، وفي دير الابتداء بالرهبانية، وفي مدرستها، لأجل فضائله التي كان متحليًا وممتازًا بها عن رفاقه وأترابه، حتى كان رؤساؤه يُؤثرونه ببعض أمور، لأجل كمال فضيلته، مع كونهم، نظرًا لمقامهم ولصفاتهم الخاصة، لا سبيل لاتهامهم بالمداجاة له

بملق كاذب. فمن يعرف الطيب الذكر، بطرس الجريجيري بصفاته ومقامه، حينما كان بعنفوان شبابه رئيسًا لمدارس زحلة، ومرشّحًا ليكون مطرانًا لها، يظنُ أو يقول عنه إنه كان يداجي أو يداهن تلميذه الشاب سليم جبور، حينما كان يتخذه رفيقًا له، في بعض أعماله وزياراته الكهنوتية، مؤثرًا له بذلك على غيره من الكهنة والمعلمين، الذين كانوا حينئذٍ تحت يده.

وكذلك من يعرف المرحوم الخوري يوسف غنام، وما اختصّه به الله من المواهب، التي تقتضيها الرئاسة والسلطة، لتهذيب الرهبان الشبان، يظن أو يقول أنه كان في غواية وغرور، إذ جعل الأخ بشارة من أول عهده به في الرهبانية، ناظرًا للمبتدئين والرهبان، الذين كان أكثرُهم أكبَر سنًا منه، وقد رضخوا له وأحبّوه، ولو كانوا بعنفوان شبابهم. بل الحق أولى أن يقال، بأن لا سبب لذلك إلا الفضيلة، التي كان يتحلّى بها المذكور بوجه ممتاز، ولذلك لم يكن ليرضى عنه بديلاً.

على أني تحققت بذاتي، ومن جميع الذين استنطقتهم عن أعماله واستخبرتُهم عن سيرته فيهم، أنه كان بمنزلة ممتازة بل فريدة، من الاحترام والحب، عند الجميع، قلّما بلغ إليها إنسان في هذه الحياة، التي لا نجد فيها صديقًا صادقًا، حتى يكون لنا ألف عدو.

ومن الحوادث التي تدلّ على ذلك، أني ابصرت ذات مرة، إنسانًا جافي الطبع والشكل ـ لا أحب أن أذكر اسمه، وقد مات رحمه الله ـ يُسارع لخدمته بلطفٍ ولهفةِ حبٍ غريبة. فقلت له: هل تحبّه، حتى تسارع إلى خدمته بهذه اللهفة والاحترام. فأجابني: من لا يحبّه أولا يحترمه؟

ومن هذا أيضًا، ما رواه لنا مرعي المكاري من سرجبال، أمام كثيرين من أهل بلده وأهل الوادي سنة ١٩٢٨، بأنه أبصر ذات يوم الأب بشارة، بطريقه إلى سرجبال، وقد مَرّ بجماعة من أهل كفرحيم، وكلّهم دروز. فلما قرب منهم الأب بشارة، وقفوا له كلهم، وهجموا عليه يتسابقون إلى قبلة يديه، وطلب بركته، بكل احترام. وقد قالوا لمرعي المذكور، الذي كان حينئذٍ قريبًا منهم: إنهم كانوا يشاهدونه مرارًا في طريقه، رافعًا يمينه وفيها مسبحته، وحاملاً بشماله قلوسته أو جبَّته، يرفع صوته قليلاً، بصلاة خاشعة تكاد تكون دائمة، ما طال الطريق. ولم يجد الجماعة نعتًا لائقًا يصفونه به، أفضل من قولهم عنه: هذا وحده خوري.

وبالحقيقة أنه، قَلّ من كان يَراه يُصليّ صلاته في طريقه أو في الكنيسة، بقلب خاشعٍ وصوتٍ خافتٍ ونظرٍ منخفض، ولا يتأثر من هذا المنظر الخاشع، ولا يقول عنه: انه يعبد الله بالروح والحق، كما ينبغي.

ويجدر بنا أن نذكر هنا من هذا القبيل، ما كتبتْهُ لنا، ابنة أخته مريم، السيدة حنينة ابنة عبد الله الزحلاوي، أنها أَبَتْ أن يبارك إكليل عرسها، على ابن خالتها الخواجا يوسف قادري، سوى خالها، بوجود سيادة المطران بولس أبي مراد، نسيب أهل العريسين، لاعتقادها أن خالها كاهنٌ فاضل وقديس، وإنّ برَكَتَهُ لعرسها ذات فاعلية خاصة، تضمن لها ولقرينها عيشة سعيدة، ذات هناء وتوفيق. ولم تحفل بشرف المطران ومقامه، مع قرابته لها ولعريسها.

ومن هذا القبيل أيضًا، أن كثيرين كانوا يأتون إليه قصدًا من أماكن بعيدة، لسماع اعترافاتهم، أو لطلب صلاته لشفاء مرضاهم، أو لدفع آفة عنهم وعن أرزاقهم وحاصلات مواسمهم، أو لطلب نعمة خاصة من الله بواسطته وبصلاته، لاعتقادهم أنه مستجاب الدعاء عند الله، وأن

لصلاته قوة فائقة لصلاحه ولفضيلته. وما أكثر الناس الذين كانوا يقدّمون إليه الماء ليصلّي عليه، ليرشّوا بيوتهم به، لدفع آفة النمل والفار عن موسم دود الحرير، الذي كان العمدة عليه بمعاشهم، وكان لهم بهذا الماء بركة صانوا بها حاصل موسمهم، وكذلك كم من الناس رشّوا بهذا الماء حقولهم المزروعة، فكان لهم فيه بركة، دفعت آفة الجراد عنهم سنة ١٩١٥ فلم يصبها أذى.

ولم يزل كثيرون، يحفظون في بيوتهم شيئًا من هذا الماء المبارك، إلى عدّة سنين بعد موته. وكان من عادته، أن يبارك على الزيت بصلاة طقسية باسم الكنيسة، ويوزّعه على من يطلبه. وقد حُفظ كمية من هذا الزيت في دير المخلص، بضع سنوات بعد موته. ولكثرة طلب الناس له، اضطّر أصحاب الشأن أن يمزجوه بزيت جديد، ليوزّعوه على من يطلب.

نعم إن الإحسان، سلسلة أو طوق جميل في عنق المُحسَن إليه، يُضطرّه أن يحب المحسن ويحترمه ويخضع له، مهما كان طبعه وخلقه جافيًا، بل لو كان وحشًا ضاريًا. لكن الأب بشارة، لم يكن محبوبًا ومحترمًا فقط من الذين كان يشملهم بإحسانه. بل كان بقدر ذلك محبوبًا ومحترمًا من الذين يحسنون إليه أيضًا، أو الذين كانوا يحسنون إلى الفقراء على يده. فإنهم كانوا يعدّونه خير واسطة، لعمل الخير إلى الناس، ولاكتساب الأجر من الله عن ذلك بواسطته وعلى يده، لاعتقادهم الخير به وحسن القصد بأعماله.

وحقيقة الواقع، انه لم يكن يتثاقل أو يتشدد بطلب الإحسان من أهل الخير، لئلا يكون هذا منهم عن كراهية أو عن حياء بشري، ويفقد المحسن أجر إحسانه، إذا كان بغير رضاه.

وقصارى الكلام، انه صحّ وتحقق فيه القول المأثور: من أحبَّه الله، حبَّبه إلى الناس.

﴿ الفصل السادس والأربعون ﴾

في كراماته عند الله

الكرامات أعمالٍ خارقة فوق الطبيعة، يؤتيها الله للناس كما يشاء، لإظهار مجده، وكرامةً لوليٍّ له يُحبّه، مكافأةً له على حبه له فوق كل شيء. فهي نوع من الحبّ والإكرام المتبادل، بين الله الكلي الصلاح والإنسان الصالح. وهي بمقام نيشان، يختص به الله من يريد إكرامه من الناس. وليست هي من جوهر القداسة أو ذاتياتها. ولكنها هي عنوان لها، ودليل صادق على قداسة صاحبها، لأنه مفعول قدرة الله الفائقة، ظاهرة للعيان على يد من يريد الله إكرامه في خلقه.

والغرض الأول منها إظهار مجد الله بقوّته، ولذلك تُدعى قوّة الله وقوّات. ولا تكون إلا على يد أهل الصلاح الموالين له تعالى، الذين يحبونه فوق كل شيء، ويبتغون رضاه دائمًا في كل حال. فلا تكون على يد أناس يتقلّبون بين الخير والشر، تارة يحبّون الله ويبتغون رضاه بأعمالهم، وتارة يُؤثرون عليه خلقه وهوى نفوسهم. ولهذا يقال لها آية وعلامة، لأنها تدلّ على كرامة مَنْ جرت على يده دلالة، واضحة لا إشكال فيها ولا إبهام، يُدركها كل إنسان ذي عقل سليم، مندهشًا من وقوعها على خلاف مجرى ناموس الطبيعة، ولذلك يقال لها أعجوبة وعجيبة. ويقال لها أيضًا معجزة، لأن الإنسان يعجز عن الإتيان بمثلها بقواه الطبيعية، ولا بقوى الطبيعة التي تخضع له.

وليس مرادنا في هذا الفصل، أن نفكه القارئ بسرد الأخبار الغريبة عن الأب بشارة، لنثير إعجابه واستعظامه له، بل جلّ قصدنا، أن نذكر

هنا بعض الأعمال، التي شاء الله أن يجريها على يده كرامة له، لخير أناس لم يزالوا أو لم يزل أكثرهم أحياء. وهم الذين أخبرونا عنها، على سبيل الإقرار بالفضل، والشكر لله ولوليّه البار. ونحن ننقلها كما وردت إلينا منهم، بالدقة التامة بكل أمانة وصدق. ولذلك نذكرهم بأساميهم، والأمكنة التي يقيمون فيها، لتسهل مراجعتهم بذلك، لمن رام زيادة التحقيق فيها، حتى لا يبقى أدنى أشكال، ولا شبهة شك في تحقيقها أصلاً، ولا في نقلنا لها بالوجه التالي، وقد محّصناها تحقيقًا قدر الطاقة.

ومن ثم، لا ينبغي أن نُلام إذا لم نُكثر من ذكر حوادث كثيرة خارقة، يرويها أناس بأنها جرت على يده، حيًّا وميتًا. وربما تكون قد جرت حقيقةً، كما يذكرونها. ولم نذكرها، لأنها لم تزل عندنا في شبهةٍ، وعرضة للنقد، ولعلّها فيما بعد تنجلي حقيقتها أكثر، وتزول عنها كلّ شبهة.

ثم لا ينبغي لأحد أن يستغرب هذه الكرامات، في هذه الأيام، بعلة أنه طمى فيها الفساد بين الناس، وقلّ رجال الله الصالحون، فإن الله تعالى، لم يزل كلي الصلاح وقدوس القديسين، وفي وسط كنيسته المقدسة، وهو فيها بنعمته إلى منتهى الدهر. ولكثرة صلاحه وحبه للبشر، يريد أن يُظهر صلاحه وخيريته، على يد أهل الصلاح، من أبناء كنيسته التي لا تخلو منهم أبدًا. وإلاّ فقد فَسدت عروس الله المختارة، المتحدة به اتحادًا مقدسًا أبديًا.

ومن هذه الكرامات وأولها: أن وردة ابنة مخول رحال، من غريفة، امرأة شاكر تلج من مزرعة المحتقرة، اقرت لي أمام جمهور من راهبات دير البشارة التابع لدير المخلص، وأمام رئيسة الدير الأم ماريا حجار، في نفس الدير في ١٢ آذار سنة ١٩٢٧، في الصيام الكبير بعد رياضة روحية، بأنها إذ كانت تساعد الراهبات في بعض الأعمال اليدوية،

ومنها غسيل ثياب الرهبان، وكانت تشعر بوجع في عيونها وضعف في بصرها، من لطخة أو لقطة حمراء فيها ظاهرة، تكاد تطبق على عيونها، وقد عالجها بقطرات مختلفة بقدر ما تسمح لها حالتها، لكن بدون فائدة، حتى خطر على بالها، وهي تغسل ثياب الأب بشارة، أن تغسل عيونها بها، اعتقادًا منها انه رجل صالح، كما كانت تسمع عنه سابقًا في غريفة، من أخيها المرحوم الخوري خليل، من الكهنة العلمانيين في أبرشية صيدا، وأنها بقوّة الله وبركة الأب بشارة رجل الله، تُشفى من مرضها. وكان لها ذلك، وزال من عيونها الوجع وضعف البصر، ولم يبق أثر لتلك اللطخة، التي كان يراها على عيونها كل الراهبات وكل أهل المزرعة. وأنا قد شاهدت عيونها إذ كانت تقصّ علي ذلك، فلم أجد فيها أثرًا، ولا شيئًا من الاحمرار، وهي لم تزل إلى اليوم حيّة، تروي خبرها هذا لكثيرين. وقد سألت عنها وعن عقلها وسيرتها زوجها، الذي كان حاضرًا معها حينئذٍ، والراهبات اللواتي كن يعرفنها جيدًا، فشهدوا بحقها شهادة حسنة، وأن ليس لها في عقلها وسيرتها ما يجرح شهاداتها وكلامها.

ومن هذا، ما رواه الخواجا مسعود شبلي صافي من دير القمر، من طائفة إخوتنا الموارنة، عن أعجوبة جرت معه، لولده الوحيد شبلي، فإنه مرض مرضًا شديدًا بذات الرئة، حتى قطع الأمل من حياته، هو وطبيبه الخاص الدكتور يوسف البستاني، وكان مسعود قد حضر جناز الأب بشارة في دير المخلص مع الوفد الديراني، وأخذ عن يد الأب العام حينئذ قطعةً من قميص الأب بشارة بركة وذخيرة، فخطر على باله في هذه الشدّة أمر هذه الذخيرة، فالتجى إلى الله تعالى، الطبيب الشافي لكل مرض، بواسطة صفيّه الأب بشارة، وأخذ القطعة المذكورة، ووضعها

على محل الوجع من ولده، و لم تمرّ على ذلك مدة عشرين ساعة، إلاّ وقد شُفي المريض تمامًا.

ولما أتمّ لي كلامه هذا، طلبت منه أن يكتب لي خبر ذلك، كما رواه أو كما جرى الأمر له، تمامًا بدون زيادة ولا نقصان، كأنه أمام الله. فكتب لي ذلك بالحال، على ورقة بخط يده وإمضائه، وهذه صورتها منقولة عن الأصل حفرًا بالزنك.

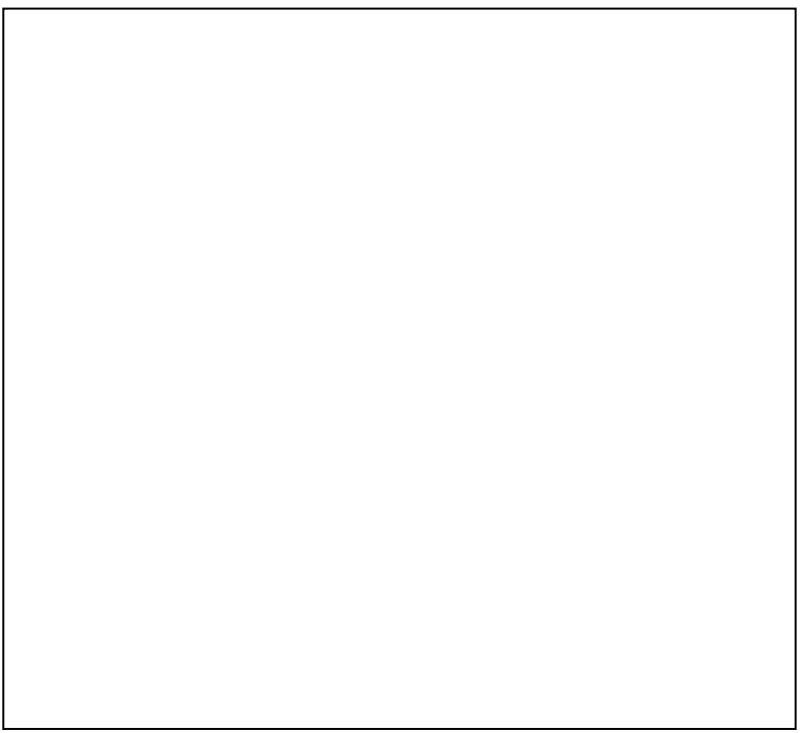

وقد شاهدت الولد المذكور، صحيحًا سالماً، أمام دكان والده، أنا والخوري باسيليوس خرياطي ب. م. رئيس أنطوش دير القمر .

ثم ذهبت معه في اليوم ذاته، أو في اليوم التالي، لزيارة الدكتور يوسف البستاني في داره، لأتحقق منه الخبر عن هذا الأمر، وعن غيره مما يعرفه عن الأب بشارة. فأخبرنا عنه، بما ينطبق على رواية مسعود المذكور. فطلبت منه أن يكتب لي ذلك بخط يده مفصلاً بكل دقة، فكتب لي حينئذ بخط يده وإنشائه، هذه الشهادة التي ننقلها هنا عن الأصل، محفورة على الزنك.

والدكتور المذكور من أسرة، معروفة في دير القمر وكل لبنان، وقد تربّى في بيت مشهور بالتقوى، ووالدته من فضليات نساء دير القمر. وقد درس الطب، في كلية الآباء اليسوعيين في بيروت، ومارس الطب بنجاح وسمعة طيبة، في دير القمر وضواحيها، ليس عليها غبار في سلوكه وأعماله.

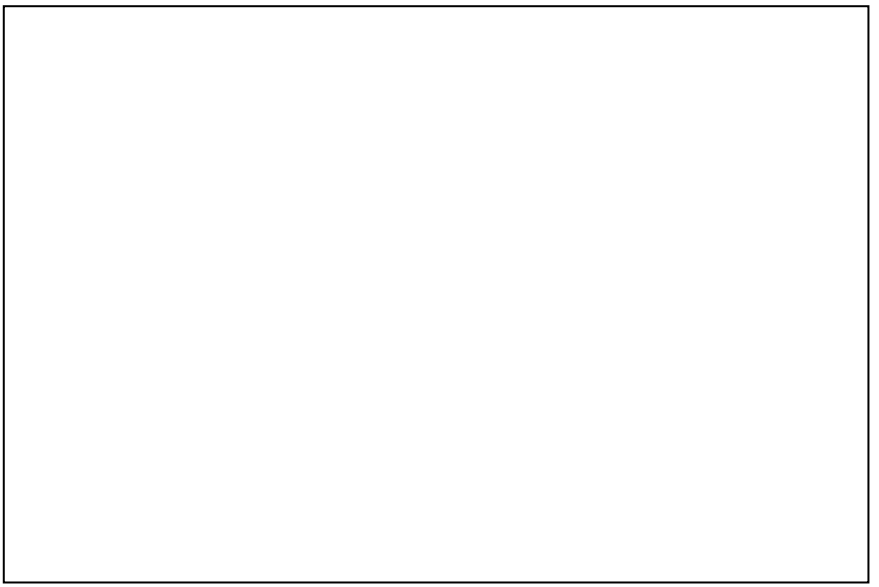

ومن هذا ما جرى، لحضرة الأستاذ الفاضل جورج سعيد الحيمري، مدير غرفة رئيس الجمهورية اللبنانية، ورئيس أخوية سيدة الحبل بلا دنس في بيروت، وهو وحيد لوالديه، حفظه الله، وكلاهما من دير القمر، وهو مولود في بيروت، بجوار دار الوكالة المخلصية، وقد أتمّ دروسه كلها في كلية الآباء اليسوعيين.

وفي رسالته لسيادة الأب العام بهذا الشأن، البيان الوافي، ننقلها بالحرف عن الأصل المحفوظ عندنا بإمضائه.

حضرة الأب الفاضل رئيس عام رهبنة المخلصية الجزيل الاحترام

بعد استمداد أدعيتكم الخيرية، أعرض أني إجابة لرغبتكم، أكتب لكم ما وقع لي ولابنة عمي، حين زيارتنا دير المخلص، في السنة الماضية. فإني دخلت الكنيسة مع زوجتي وصلينا، مبتهلين إليه تعالى أن يرزقنا مولودًا، وفي تلك الأثناء ذهب بي حضرة الأب الارشمندريت بولس شعيب إلى غرفة الأب الورع، الطيب الذكر المرحوم بشارة أبو مراد، وطلب أن يصلّي لي ليرزقني الله ولدًا، لأنه مضى على اقتراني ثلاث سنوات، بدون أن تتحقق لي هذه الأمنية، فصلى ليّ حالاً. وبعد مضي أقل من شهر استجاب المخلص الدعاء، وأصبحت قرينتي حاملاً.

فإظهارًا للواقع كتبت إليكم هذا التحرير راجيًا في الختام أن تقبلوا فائق احترامي وجزيل سلامي.

بيروت في ٢٩ آذار سنة ١٩٣٠ جورج حيمري

وفي ١٠ أيار سنة ١٩٣١، زار المذكور مع حضرة قرينته وابنتهما الصغيرة، دير المخلص وكنيسته، وقبر الأب بشارة، ووقفوا كلهم أمامه، يشكرون المخلّص لتفضّله عليهم بواسطته، وأوعزوا إلى المصوّر الشمسي ليأخذ صورتهم واقفين أمام القبر، ثم ألصقوا الصورة على صفحة من صفحات الدفتر الموضوع على قبره، إقرارًا بفضله، وشكرًا للمخلص، ولوليه الأب بشارة، وكَتَب تحت هذه الصورة، في الدفتر المشار إليه، بخط يده ما يأتي:

يا أبتِ بشارة الكلي الاحترام

إني شكرًا لك، قد أتيت مع قرينتي والطفلة الصغيرة، التي نلتُها ببركتك ودعائك. وأتشرف بأن أضع رسم زيارتنا على قبرك الكريم،

ذكرًا مخلدًا، وإقرارًا بفضلك، وشفاعتك أمام المخلص الإلهي، في ١٠ أيار سنة ١٩٣١.

جورج حيمري

جورجيت ورنيه حيمري

ويتصل بهذا أيضًا ما جرى من هذا القبيل، للشيخ وديع الرامي من فالوغا. وهو من أسرة كريمة قديمة، من مشايخ لبنان بالعهد الشهابي. وفيما كتبه وأمضاه بخط يده ومَهَره بختمه، البيان الوافي، ننقله بالحرف عن أصله المحفوظ عندنا.

أنا وديع الرامي، ابن داود صليبي الخوري، من فالوغا المتن من محافظة جبل لبنان، وحيد لوالدي، ولي شقيقة بتول تدعى مريم. وقد تزوجتُ نسيبتي أنيسة عبده الرامي من فالوغا عينها، في ١٥ أيار سنة ١٩٢١، وكان عمري حينذاك سبعة وثلاثين سنة. وقد كان مضى على زواجي تسع سنين، ولم أرزق فيها ولدًا، برغم المعالجات الطبية التي أُجريت لزوجتي، عند أعظم الأطباء شهرة في الجمهورية اللبنانية وغيرها. فبلغني ذات يوم، أن صديقي جورج أفندي حيمري سكرتير رئاسة الجمهورية اللبنانية ـ وهو وحيد نظيري لوالديه ـ قد حملت زوجته بعد ثلاث سنين من زواجهما. فقصدته في غرفته في السكرتيرية لأهنئه. فبادرني ـ لمعرفته السابقة بحالي ـ بقوله: هل تؤمن بالعجائب؟ ـ قلت له: إني أول من يؤمن، لأني مسيحي كاثوليكي، ولي ثقة كبيرة بمعتقدي وبعجائب الله. فقال لي: عليكم بزيارة دير المخلص في نواحي صيدا، بإيمان صادق. وتجدون في نفس الدير راهبًا قديسًا، يدعى الخوري بشارة أبي مراد. فإذا زرتم الدير، وقبلتم بركة هذا الكاهن، فلي رجاء أن تنالوا

ما نلته، لأن صحة معتقدي ومعتقد زوجتي قد أنالَتْنَا الآن نتيجة، كثيرًا ما سعيت وراءها بدون جدوى، ولم نوفّق إليها إلا بزيارتنا لهذا الدير، ونيلنا بركة الكاهن المذكور. وما كاد يُنهي كلامه لي حتى تمثّلتُ بإيماني أني لا محالة أحصل على نتيجة من زيارتي لدير المخلص، فرجعتُ إلى فالوغا، وأخبرت زوجتي بذلك، فوافقت حالاً على معتقدي.

ففي ٨ شباط، ركبتُ وزوجتي سيارة قاصدين بيروت، حيث قابلتُ صديقي جورج، وأطلعته على عزم كلينا. ولما كان جورج أفندي عالماً بأن الخوري بشارة مريض، وأنه يحظّر عليه المقابلات، أخذني إلى الوكالة المخلصية في بيروت عينها، واستحصل لي على كتاب توصية، من سيادة الرئيس العام على الرهبانية المخلصية الارشمندريت اغابيوس نعوم الكلي الشرف، إلى حضرة الأب المدبر نائبِهِ في دير المخلص، ليُتاح لي أن أرى الخوري بشارة المريض. فركبت ومدامتي سيارة، أقلتنا إلى الدير المذكور، فبلغنا إليه في الساعة الثالثة بعد الظهر، ودخلنا توًا إلى الكنيسة، حيث وجدنا جمهورًا من الآباء الأجلاء، يقيمون زياح البركة بالقربان المقدس، فحضرنا الصلاة بخشوع واحترام وإيمان. وبعد أن حصلنا على البركة بالقربان المقدّس، خرجنا من الكنيسة، فخفّ لمقابلتنا بعض الآباء الأجلاء وأكرموا وفادتنا، وأدخلونا ردهة في الدير، وأبدوا لنا بشاشة ولطفًا نادرين واحترامًا، قبل أن نُطلعهم على الكتاب الذي بيدنا، مما دلّ على سمو أخلاق أبناء هذه الرهبانية المباركة. وبعد أن سلمتهم الكتاب المذكور، قالوا لي: أن قانون رهبنتنا لا يجيز للنساء الدخول إلى غرف الرهبان، فتدخل أنت وحدك فقط. فامتثلتُ للأمر ودخلت دون زوجتي إلى غرفة الخوري بشارة، وللحال استلفت نظري سريرٌ اعتيادي بسيط في إحدى زواياها، حسبما يقتضي نذر الفقر الرهباني، وعلى ذلك السرير راهب، يجلّله الشيب، ورهبة الشيخوخة وأمائُر الوقار والقداسة

باديةٌ على محياه. ولاحظت من تجعّداتٍ في وجهه أنه في العقد السابع من عمره. فعرّفه بي احد الآباء الذي كان بصحبتي، بقوله له: أمامكم وديع الرامي من المتن، وقد جاء يطلب بركتكم، قاصدًا نفس الغاية التي طلبها قبله جورج أفندي حيمري. فرفع الخوري الجليل يده وباركني، وأنا جاث أمامه. وعند إعطائه لي البركة، شعرت في داخلي شعورًا قويًا، وتجلّى لي حينذاك نتيجة اعتقادي، فجرى الدمع من مقلتيّ. ثم قفلنا راجعين، بعد أن أودعت شكري واحترامي ذلك الكاهن الفاضل، الذي لم يمضِ عليه سوى بضعة أيام، حتى انتقل إلى رحمة ربه، ليدخل فسيح جنانه، تغمدّه الله بوابل رحماته. وقد تركتْ تلك الزيارة أثرًا في نفسي قويًا، مما لقيتُه أولاً من الإنس واللطف وكرم الأخلاق والضيافة من رهبان الدير الأجلاء، وثانيًا من التقوى والقداسة البارزتين على وجه ذلك الكاهن المزور. ولم يمض على زيارتي للدير مدة وجيزة، حتى أضحت زوجتي حاملاً، وفي اليوم السادس من شهر شباط سنة ١٩٣١ وضعتْ ولدًا أنثى.

وأنا وزوجتي وابنتي الصغيرة، نتمتع والحمد لله بصحة جيدة، بشفاعة المخلص له المجد، وشفاعة خادمه القديس الخوري بشارة، وبدعاء حضرات الآباء الأجلاء رهبان الدير. وإنني عدت اليوم لزيارة المخلص، لتجديد طلب الشفاعة، وتقديم الشكر لله، على ما انعم به عليّ، مُعلنًا واقعة حالي، ومبينًا عجائب الله في قديسيه، وراجيًا حفظ ما نلته عن غير استحقاق، وملتمسًا أن أنال ما أرجوه، بشفاعة المخلص وقديسيه.

وديع الرامي

دير المخلص في ٢١ أيار سنة ١٩٣١

والأب المدبّر، النائب العام، المشار إليه بكلام الشيخ وديع السابق ذكره، إنما هو الارشمندريت أغناطيوس جمّال، وقد قال لنا: أن الأب بشارة لم يكتفِ حينئذٍ بمنحه البركة للشيخ المذكور، كما توهم عبارته. بل صلىّ على رأسه، وهو راكع لدى سريره، بصوته الخافت، صلاة الروح القدس التي أولها: أيها الروح الخالق الخ. وبعد أن أتمّ هذه الصلاة، قال له: أن امرأة الشيخ باقية في الكنيسة تصلّي: وطلب لها بركته: فرفع يمينه الضعيفة وباركها عن بعد، متجهًا نحو الكنيسة.

وينبغي أن نعلم أن البركة، التي يعطيها الكاهن برسم الصليب المقدس بإيمان حيّ، يُعطيها باسم المسيح وبالاشتراك معه، ولها قوّة بركة المسيح، إذا قُبلت كذلك بإيمان حيّ. وكذلك كل الصلوات، التي يتلوها حسب طقس الكنيسة وترتيبها، فإنه يتلوها بصفته كاهن الكنيسة، وخادم المسيح الذي هو رأسها، المتحد بها بالإيمان والرجاء والمحبة. ومن ثمّ تكون هذه الصلوات ذات قوة وفاعلية فائقة، إذا تُليت وقُبلت هكذا.

ومن هذا القبيل أيضًا، ما جرى له مع سيادة الأب العام الارشمندريت اغابيوس نعوم، وهو أنه في ٦ أيار سنة ١٩٢٩، كان قد اشتدّ الحرّ جدًا، فوقف الأب العام أمام باب الكنيسة الجنوبي مع الأب بشارة، وقال له: أما تشعر بهذا الحرّ؟ فأجابه: نعم. فقال له الأب العام: اذهب، وقل ليسوع: أن الرئيس أمرني، أن أطلب من حنانك ورأفتك، تخفيف شدة هذا الحر. فأجابه الأب بشارة: أنا خاطي. فقال له الأب العام: أنا لا أعرف. لكن يجب أن تعلم أن الطاعة تقدّس الأعمال. ألا تذكر كيف عمل القديس بولس البسيط، لما أمره رئيسه القديس انطونيوس أن يُخرج الشيطان. فتدبّر أنت إذًا معه، وقل له: أن يشفق على الأطفال واليتامى والأرامل، ولا يعاملنا بحسب خطايانا. فذهب

الأب بشارة إلى الكنيسة يصلّي، وأطال صلاته، حتى تغيّر الطقس تغيرًا فجائيًّا، وسقطت الأمطار بغزارة، فعجب الرهبان من ذلك: ومجدوا الله وشكروه لذلك.

ومن هذا أيضًا، أن السيدة ماري، امرأة الخواجا بولس مقساس من دير القمر، وهي امرأة فاضلة، معروفة هناك هي ورجلها، وقد قضت معه مدّة و لم يُرزقا ولدًا. وبدعاء الأب بشارة، فتح الله مستودعها وولدت صبّيًا. وبعد زمان، فُجعت بموته، بحياة الأب بشارة، فكان حزنها عليه شديدًا، وعاتبت الله والأب بشارة بقولها، إذا كنت يا رب أعطيتني هذا الولد لتفجعني بموته، فقد كان خيرًا لي أن لا تعطيني إياه، ولا تفجعني بموته العاجل... وبعد مدة زارت الأب بشارة في دير المخلص، وطلبت بواسطته من المخلص ولدًا، عوضًا عن الميت. فقبل الله صلاتها، ورزقها ولدًا دعته انطونيوس، وأتت به إلى دير المخلص تزوره، وتزور قبر الأب بشارة في ١٢ تموز سنة ١٩٣١، وتشكر المخلص على ذلك. وهي أخبرتني ذلك في دير المخلص بالتاريخ المذكور، وأعادته لي عندما زرتها في بيتها في دير القمر، في أواخر شهر تموز من تلك السنة.

وقد روى لي الخواجا جبرائيل عبيد، من كفرقطرة من القرى التي كان الأب بشارة يخدم النفوس فيها، إن ابنه كنعان مرض مرضًا شديدًا، لم يجد لعلاجه وشفائه سبيلاً، فطلب من الأب بشارة صلاته لأجل شفائه، بشدة وقوة، وذكّره بقول المسيح لرسله: اشفوا المرضى. فصلى الأب بشارة على قليل من الماء صلاة حارة، تحركت جوانحه وجوانح الحاضرين معه، وشرب منها المريض وشفي تمامًا. وقد نظرته في كفرقطرة عندما زرتها سنة ١٩٣١، وهو شاب بكمال العافية والصحة، وذكر لي جبرائيل المذكور، أمام كثيرين من كفرقطرة، أن الجميع يقرّون للأب بشارة بفضله وتقواه، وليس له فيهم من يذمّه بشيء.

ونكتفي بذكر هذا القدر من كراماته، التي نقلناها على رواية أصحابها لنا، بكل دقة وأمانة. ولم نحبّ أن نذكر كل ما بلغ إلينا منها، اكتفاء بما ذكرنا هنا، لئلا يطول بنا كثيرًا الكلام في هذا الفصل. وربما ننشر في ملحق خاص، ما فاتنا نشره منها في هذا الفصل، إن شاء الله تعالى.

✞ ✞ ✞

﴿ ملحق الكتاب ﴾

الفصل الأول

يشتمل على بعض مراسلات، كتبها الأب بشارة، إلى من يأتي ذكرهم، عدا ما ذكرنا منها في فصول الكتاب في محلها، وهي تنمّ على رقة حاسياته وعلى مبلغ تقواه. وأبقيناها على أصلها، مع ما فيها من الأغلاط، إذ لم يكن يهتم بمراعاة أحكام الصرف والنحو كثيرًا، ولاسيما في آخر حياته، رحمه الله.

أولاً ما كتبه للرئيس العام الارشمندريت جبرائيل نبعة، في ١٥ كانون الأول سنة ١٩١٣.

سيادة مولاي الكلي الاحترام

بعاطفة الشوق والاحترام، الثم راحاتكم، مستمدًا بركتكم، وطالبًا دعاكم لولدكم الخصيص، وأطلب من المخلص سلامتكم، وطول بقاكم لأمنا الرهبنة...

أنا أتقدم بكل خضوع، وأهنئكم في هذه الأيام الخلاصية المقدسة. فالمولى يا أبتي يحفظكم لأعوام مديدة، تطوون سبلها بغاية النجاح ودوام الراحة، ولا ترون فيها أدنى كَدَر... أنا أؤكد جيدًا، أن سيادتكم تحبوني، وتريدون راحتي وترغبون مساعدتي، خصوصًا في هذه المواسم الخلاصية، فأنا أبيّن لحنوكم ما هو متوجب عليّ في هذه الأيام، وما أنا ملزوم أن أتممه لنحو الشعب المقام لرعايته، في دير القمر، وكفرقطرة، ووادي الدير، وسرجبال، والبقيعة، وبقعون، وخلافها، فهذه كلها يجب عليّ أن أتحوّطها، حتى أعرّفهم وأناولهم الأسرار المقدسة. وكذلك الأحد

والعيد أقدّس مرتين، ودائمًا، ومحشور. فإذا أردتم سيادتكم وترغبون أن تريحوني نوعًا، أن تتكرّموا بإرسال كاهن في مدة هذه المواسم الجليلة فقط، وينام في دير عمّيق أو في كفرقطره أو عندنا في دير القمر، وبهذا تصيّروني ممنونًا جدًا وغريق الأفضال. والإرادة والأمر لسيادتكم. ومن جهة سيادة المطران والريس يرغبون ذلك. والمخلص يديم لنا أقنومكم الجليل، راجيًا مِن حبّكم أن تؤازروني بطلباتكم البارة، ولا تنسوني من دعاكم ورضاكم، فيما أني بمزيد الانعطاف والاحترام، أكرر لثم يديكم مولاي

مستمد دعاكم ولدكم الخضوع

الخوري بشارة بو مراد ب.م.

ثانيًا ما كتبه له في ١٣ نيسان سنة ١٩١٦

مولاي الكليّ الاحترام

بإكرام واحترام، الثم أناملكم الطاهرة مرارًا، وألتمس مبرور دعاكم ورضاكم. أَبدِي. قد صار مدّة، وأنا منحرف الصحة، وحاصل لي ألم عصبي في المعدة، وبسبب الظروف الحاضرة قد احتجت إلى دراهم، وقلت إلى قدس الأب المدبر، بأن تتكرموا علّي بإرسال خمس ليرات، ولحيَّت عليه، وقلت له مرارًا حيث أني باحتياج كلي إليهن. ومن حين إبراحه من دير القمر وأنا منتظر ذلك، حيث إني أخذت من بعض أشخاص كم غرش، فالتزم بردهم. وعلّي ثمن أدوية وخلاف ذلك. وأنا لي دراهم، مع سيادة المرحوم المطران باسيليوس ومع رئيس العازارية، مقدار ثمانية عشر ليرا افرنسية وكسور، ومع خلافهم أيضًا. ولكن يدي ليست طايلة لشيء الآن. ومتى أخذتُ هذه الدراهم كلها، أدفعها

لأبوتكم. فالآن أرجو من حنّوكم وكرم أخلاقكم، أبتي، أن تجودوا علّي بالقيمة المذكورة، صحبة الساعي إلياس يوسف زيادي، فيكون لسيادتكم الفضل والثواب، ولا تجعلوا عايق لمطلوبي، ولو مهما كان الأمر. هذا بشأنه مكررًا لثم الأنامل الطاهرة مرارًا، مع تقبيل أيادي آبائي الأجلاء المدبرين وطلب دعاهم، وأطلب من المخلّص أن يُديم لنا سيادتكم للرهبنة، ركنًا وسندًا وعضدًا. اللّهم استجب آمين.

أبتي، إني أخبر سيادتكم بأني قد خالفت نذر الفقر مرارًا، لأني كنت أعطي لمن يطلب مني بزيادة، وكنتُ أعطي لبعض أشخاص تسافر لاماريكه، حينما يطلبوا مني المساعدة لأجل السفر، ويوعدوني بأنهم يعوّضوا علّي وكذلك قرضت لبعض أشخاص، ولا يعود يمكنهم أن يعطوني، وخلاف ذلك، وتعرفون جيدًا أحوال العالم. فأنا قد خطئتُ بأعمالي هذه، التي هي ضد نذر الفقر، فأرجو منكم يا أبتي أن تغفر لي، وتسامحني عما خالفتُ به عهودي، ومن الآن فصاعدًا بنعمة الله، ما عدت أفعل شيء من هذا، إلا بحسنة جزئية للفقراء... وذلك يكون بسماح من أبوتكم، ولا تخرجوني من دايرة رضاكم ودعاكم.

الداعي لسيادتكم

ولدكم الخضوع

الخوري بشارة

أبو مراد ب.م.

ثالثًا، رسالة تهنئة لسيادة الارشمندريت باسيليوس شحادة، بانتخابه رئيسًا عامًّا، وفيها ما فيها من عواطف الحب والاحترام، مع الجرأة الأدبية:

عن دير القمر في ٢٤ أيلول سنة ١٩١٩.

سيادة مولاي الارشمندريت باسيليوس أب عام ب. م
الكلي الاحترام، أَدامَهُ المولى

بمعظم الاحترام والإكرام، ألثم أناملكم الطاهرة وألتمس مبرور دعاكم، طالبًا من المولى حِفْظَكم وسلامتَكُم أَبَدَ الدهر... أبتي الحنون، أقدّم لقدسكم أسطر التهاني، بما نلتموه من لدن المنان، أيها الأب الجليل، استلامكم زمام الرئاسة العامة، التي بكل عدل أُحيلت لعهدة قدسكم، فسبحان من قلّدكم هذه الرتبة المقدسة لإتمام مشيئته تعالى، وحفظ هذه الرهبنة ونجاحها. فهذا المنصب الرفيع لايق بذاتكم الجلى، طالبًا من المخلّص سبحانه، أن يأخذ بيدكم اليمنى، وتزداد هذه الرهبنة بنموّها في الروحيات والزمنيات، وتنشو بالأعمال الصالحة، وتكونوا مع لفيف الآباء الأجلاء المدبرين بغاية واحدة، ورأي واحد ومقصد واحد، لنجاح وإصلاح ما تعكس من قوانين الرهبانية، وهذا نؤمله ليس في مبادئ الأمر فقط، بل تدوم دائمًا بالوفق والغيرة، لأن طبيعتنا البشرية ضعيفة جدًا جدًا، يقتضي لها مِهْماز ومحّرك ينبهها دائمًا، وأنا لمن أنذر. لأنكم كلكم، حاوين الصفات الحسنة، والعلوم الكافية وعلم السياسات الروحية. ولنا الأمل والرجا بالله تعالى، بتقدم هذه الجمعية المقدسة،

ونُصلح ما حدث من الخلل والنقصان. وأملنا كبير بالله تعالى، أن لا يسمح بسقوط وانحطاط أمنا الرهبنة المخلصية. فنسأله تعالى من صميم القلب، بحفظكم جميعًا وتوفيقكم، ونجاحكم في مساعيكم الأيلة لمجده، اللهم أستجب آمين.

عدم المواخذة سيدي لأنه حصل زيادة تطفل

مستمد دعاكم
ورضاكم لولدكم
الخصيص الخوري
بشارة أبي مراد ب م

رابعًا: ما كتبه تهنئة للآباء المدبرين في ٢٤ أيلول سنة ١٩١٩.

قدس الآباء الأجلاء الجزيلي الاحترام

بإكرام وحب واحترام، أُقبِّل أناملكم الطاهرة، واستمد مبرور دعاكم ورضاكم. أَبدِي. أن سُرَّ قلبي جدًا، عند بلوغي بُشرى ترقيتكم معارج منصب المدبرية، واستلامكم زمام أعمال الرهبنة. فشكرتُ المولى سبحانه، على انتخابه لذاته قهارمة، غيورين على نجاح الرهبنة ونموها، بما هو مرضي لله، نظير حضراتكم آبائي الأفاضل، وأرجو وأتأمّل أن تكونوا متّحدين، بقلب وغاية واحدة مجرّدة، ويكون نجاح الرهبنة وتقدمها عن همتكم ونشاطكم وأنا بسرور قلب، أسأل الله أن يديم للرهبانية ذواتكم الجليلة، لتكونوا نِبْرَاسًا يستضيء به كل الناظرين لقداستكم. وبالختام أكرّر لثم أناملكم، طالبًا دعاكم ورضاكم لولدكم الخصيص.

الخوري بشارة

أبو مراد ب.م.

خامسًا: ما كتبه إلى الأب بشارة غفري، وكيل الرهبانية في رومة، في ٣٠ آذار سنة ١٩٠٣.

قدس الأب الوكيل ب م الجزيل الاحترام

بغاية الانعطاف ووفور الأشواق، أقبّل يديكم الطاهرتين الكريمتين وألتمس مبرور الدعا. أُبْدِي. شَرَّفَني كتابُكم العزيز. وهذه أول مرة فقط رقم ١٨ الجاري. فشكرت المولى على صحة سلامتكم وتوفيقكم. فقد غمرتموني بفضلكم العميم، عزيزي، وصرتُ ممنونًا من معروفكم الوافر، ومزيد حبكم نحو أخيكم، وما تكرَّمتُم به علّي من قداسات، أول مرة ماية عن يد قدس الأب العام، قد أرسل لي حسنتها أربعماية غرش، دون تحرير من أبوّتكم. وهذه المرة الثانية تكرمتم أيضًا علّي بماية أخرى فأشكر همّتكم وجميلكم، والله سبحانه وتعالى يكافيكم عني، ويعوّض عليكم أضعاف ذلك، بما ترغبونه وتتمنّوه دنيا وآخرة. والثمانين فرنك حسنة الماية قداس الأخيرة، يمكنكم إرسالها، أو لتحت يد وكيل المخلصية في بيروت الخوري ملاتيوس حجار، أو لغيره من الذين تعرفوهم في بيروت، من تجار وخلافهم، فحالاً يصلوا ليدنا. فأنا ممنون لألطافكم. وقد ضاعفتم المكارم لنحو هذا الداعي، بتهنئتكم إياي بعيد شفيعتكم وشفيعتي سيدة البشارة. فالمولى يا أيها العزيز يعاد على أبوتكم، مع عيد الفصح العظيم المجيد، أعوام مديدة تطوون سبلها بغاية النجاح ودوام الراحة، ولا ترون أدنى مكدّر راجيًا من حبّكم أن تذكروني بصلواتكم، ولا تنسوني من دعاكم. وحضرة الآباء الكرام يهدونكم جزيل أشواقهم. فيما أني بمزيد الانعطاف، أكرّر لثم يديكم الكريمتين مرارًا، عزيزي.

أُخبركم أني تكلمت من مدّة طويلة مع أحد الأساقفة، أنّ مُرادي أكتب إلى رومية، لأجل عمل مدرسة للبنات، حيث موجودين في مدرسة الأمريكان، لعدم وجود مدرسة عندنا، لربما يساعدوني في هذا المشروع الخيري، فأجابني الأسقف: حينما أرجع إلى رومية فأسعى لك بهذا المشروع. فلحدْ الآن لم يتوجّه ولا أظن أنه يرجع لرومية. فأردت أخبر أبوّتكم هل ممكن وجود مساعدة لي من الحبر الأعظم، أو من أحد الكردينالية، أو من غيرهم، الذين عندهم غيرة لعمل الخير والرحمة، أقلّه أجرة معلمتين وأجرة محل للمدرسة، أو بدراهم أو بقدّاسات. فكم يكون لهم أجر عند الله، وأيّ أجر يكون لكم إذا سعيتم بهذا المشروع. لأننا بواسطة هذه المدرسة، نختطف، هذه الأنفس المشتراة بدم ابن الله، من مخالب الشيطان. والدراهم منفعتها لمثل هذا العمل. والبشر ضلّ عن الطريق المستقيم وعن الدين، لعدم من يلتفت ومن يسعى لعمل الخير والإحسان فدبّروا بفطنتكم، والله يلهمكم ويُمسك بيدكم. اعرضوا هذا المشروع، ولا تخجلوا. والساعي بالخير نظير فاعله. فهذا العمل لخير الأنفس نافع جدًا. فالله سبحانه وتعالى يحرّك قلوبهم لعمل كذا. ودُمتُم سالمين.

مستمد دعاكم

أخوكم الخوري

بشارة بو مراد ب م

سادسًا: ما كتبه له في ١٦ شباط سنة ١٩٠٤

قدس الأب الوكيل الكلي الاحترام

بعاطفة الشوق والولاء، الثم يديكم الكريمتين، وألتمس مبرور الدعا. أبدي. بغاية المسرة تقبلّتُ كتابكم الكريم الحامل بشرى سلامتكم، بعبارات حُبِّيَّة تدلّ على طيب لُبِّكم، ومتين صداقتكم. وما تكرّمتم على أخيكم، من قدّاسات عدد ١٠٠مع حسنتها، قد قبلناها بمسرّة، شاكرين أفضالكم ومعروفكم وحبّكم لأخيكم. فالله يكافيكم عني، ويحفظكم ويُنجح أموركم ومساعيكم. وتكونوا سنَدًا وعضدًا لأمكم الرهبنة. فلا تواخذوني لأني أثقّل على أبوّتكم، وأُتعب سرّكم، وأُقلق راحتكم. ولكن الصداقة والحب المتبادل يُزيلان التعب والقلق. فالله يديم لنا أقنومكم الجليل، وكونوا براحة ضمير من جهة القدّاسات لأنها تتقدس حالاً، وأنا حررت لقدس سيدي الأب العام، حتى يرسل لي كم قداس إذا كان فاضل عنده، وأرسلت هذا التحرير لتحت يده، حتى يرسله ضمن تحرير ويصل لأبوتكم، لأن البوسطة ما عادت تصدق جيدًا. هذا بشأنه، وحضرة الآباء المحترمين يهدونكم جزيل أشواقهم، ويسألون خاطركم، وإذا وُجد تحت يدكم ذخيره تحوي عظام القديسين، تكرّموا على أخيكم بثمنها بقدر ما تكون، ولكم الفضل والمنّة، مكررًا لثم اليدين وطلب الدعا لأخيكم.

الخوري بشارة بو مراد

ب.م

❄ ❄ ❄

﴿ الفصل الثاني ﴾

يشتمل على ما كتبه السادة الأحبار الآتي ذكرهم عن الأب بشارة، تزكية لمضمون الكتاب وتحقيقًا له. **وأولّها رسالة الأب العام للمؤلف.**

أيها الأب الجليل الحبيب الخوري قسطنطين الباشا ب.م الجزيل الاحترام

ما أجمل أعمال الله، التي تتجلى بنوع سام في خلائقه الناطقة، المبدعة "على صورته كمثاله"، وما أعظمها في أوليائه، خدمته الحقيقيين، الذين تبعوا مَن أرسله ليكون "الطريق والحق والحياة". فكم يصعب إذا على الكاتب، أن يدبّج حياة أحد أولئك الأولياء. وكم يرى ذاته بعيدًا عن أن يوفيهم حقهم، من الوصف والتجلّة والثناء. بل يرى نفسه أعجز من أن يشخّصهم في بيانه، تمثيلاً وتصويرًا، إلى أذهان البشر، التي طالما اعتادت النظر إلى ما هو مادي ووقتي. وقلّما تعودت رفع الأبصار، إلى ما هو روحاني وأبدي. وإذا ما اضطرّ أن يمثّل على القرطاس بالمداد والقلم، أعمالَ الفرد من رجال الله، فما يُقدِم على عمله هذا إلا وجلاً خائفًا، لعلمه أنه يأتي أمرًا عزيز المنال، صعب الملتمس.

وهذا ما نلاحظه في الكتبة المحققين، الذين تستفزّهم الحميّة لنشر حياة النفوس البارة، أو أحد خدام الله الحقيقيين. وهم يَعلمون يقينًا أنهم، إنما يدوّنون أعمال أعظم الرجال. غير أن وعورة هذا الأمر، لا تثنيهم عن عزمهم، ولا تخمد همتّهم، بل يسيرون إلى الأمام، متوخين مجد الله وخير النفوس، وهكذا يخلّدون أعمال الله في بطون التواريخ، بنشر حياة خدّامه، الذين هم بالحق الأبطال الأوحدون المخلّدون.

وأنتم أيها الأب الجليل، أخذتم من زمن طويل، بالتنقيب والبحث عن أعمال خادم المخلص، الأب بشارة. بل بحثتم، ولاشك، عن أعمال المخلّص عينِه في هذه النفس الكريمة. إذ الغاية من نشر أعمال خدام الله وقديسيه، ليست على الحقيقة نشر أعمال البشر، بل بالحري نشر أعمال الله نفسه فيهم. "وما أعجب الله في قديسيه. الذين جعلهم عجبًا"، حسب قول الكتاب الإلهي.

لاشك أن الدافع لكم إلى هذا العمل، هو حبّكم لراهب وكاهن المخلص، وعرفانكم بجميلِ مَن له عليكم فضلٌ عظيم. إلا أننا نرى هنالك دافعًا أسمى وأقوى، هو حبكم للمخلّص ذاتِه الذي شاء بتنازله وعطفه، أن يتجلى بعض التجلي في هذه النفس، المستترة في داخلها مع المسيح، التي أخذتم بكتابة حياتها ونشرها، تمجيدًا للثالوث الأقدس وللمخلص الكريم. وكلّنا يَعلم، كم عنَّاكم طلب المستندات التاريخية، وكم قاسيتم في البحث عنها.

ومما يجدر بنا ذكره، أنكم تركتم بقية دروسكم المهمّة وانكببتم على التنقيب والبحث، لتسرعوا في نشر تلك الحياة الطيبة، حياة من تعتبرونه ليس أخًا لكم في الرهبانية فقط، بل أبًا روحيًّا أيضًا ومرشدًا أمينًا. ولا ريب أنكم، قد اتكلتم في أمركم، على عون المخلص. وهاهو قد كللّ عملكم، وآتاكم القوّة لتنجزوا مهمتكم. وها أن حياة الأب بشارة قد طُبعت، فقدمتموها لنا، فتلوناها وقلّبناها صفحة صفحة، حتى أتينا على آخر كلمة منها.

وكيف نُعرب عن تلك التأثرات، التي شعرت بها النفس، لدى مطالعة هذه الحياة الداخلية، لاسيما ونحن نعلم سمو تلك الفضائل الكهنوتية والرهبانية المثلى، التي تمرّس بها خادمُه المخلص الأمين، منذ دخل الرهبانية وتكرس للثالوث الأقدس، كأنما في معمودية ثانية، رحَضَتْهُ

من بعض ما يكون قد علِق بنفسه الطيبة، من غبار الحياة الفانية، المتصاعد ذرّات من كل صوب وناحية. نطالع فنتأّمل، ونردّد في سريرة نفسنا، أن ما أجمل خدمة الرب منذ الصغر، ونتبصَّر مليًّا في البهاء السنيّ، بهاء النفس البارة، فيرتفع إلى العلى. نتصفح تلك الحياة القدسية، فكأننا نتصفح فيها نفسه الورعة، فما نتمالك عن أن نقول: ما أجملها. وحينئذ تعود الذكرى بخاطرنا، إلى الأيام السالفة، أيام كان ذلك الكاهن الجليل والراهب البار يتردد فيما بيننا، فنسمعه ونبصره، وكأن نفسه، المتألقة بأشعة الروح القدس، تتجلى على أبصارنا وبصائرنا. نرى جمالها الداخلي يتلألأ بُشرًا، على محياه الوضاح المشرق الوجنتين، فوق لحيةٍ كلّلها الشيبُ ببياضه الناصع، وما بياضها إلا صورة ضئيلة لبياض نفسه الزكية. وهكذا كان يجتمع فيه البُشر المتهلل الجذّاب، إلى الوقار والخشوع. مما يحمل الناظر إليه على مهابته والخشوع المقدّس أمامه. وقلّما اجتمع البُشْر والمهابة في نفس، اجتماعهما في نفسه، حتى لو سُئِلنا عن تعريف الأب بشارة لقلنا: إنه بِشر ومهابة، ابتسام وورع. هكذا عرفنا رجل الله، وابن المخلّص. نعم، عرفناه متأخرًا. إنما كانت هذه السنون الأخيرة كافية، لنستنشق عُرف فضائله. ويا حبذا، لو كانت معرفتنا له أطول مدى، وكم كانت رغبتنا عظيمة بأن نعيش معه أمدًا بعيدًا، هكذا عرفناه في حياته، وهكذا اختبرناه في مرضه الأخير، إذ أُتيح لنا أن نكون ممن اعتنوا به في مرضه الأخير، وسهروا عليه أحيانًا، وساعدوه في حاجاته، بعد أن أمست القوى الطبيعية عاجزة عن مساعدته.

على أننا لا نُخفي، أن أجمل الصفحات في حياة خادم الله الأب بشارة، هي تلك الصفحات، التي تبيّن لنا فضائله السامية. فكررنا قراءتها، وأعدنا النظر فيها، فإذا هي شائقة بليغة، على ما فيها من إيجاز، لم تتجاوز الفصلين. أجل لقد أَجَدْتُم في حصركم الكلام على فضائله

عامة، وفي إجمالكم الحديث عن أقدسها وأسماها، تلك الفضائل السامية التي مصدرها الله، وإليه تعود رأسًا. عنيت بها الفضائل الإلهية، الإيمان الحي، والرجاء الثابت، والمحبة السامية، ثم الفضائل الرهبانية الثلاث. وكان أحسنَ ختام، كلامُكُم عن ذلك الأساس المتين للحياة الروحية. أي التواضع، الذي عليه يقوم بناء الحياة الروحية. فكلّ من رغب في أن يزيد هذا البناء ارتفاعًا، وَجَب عليه أن يجعل في نفسه، أساسًا أكثر عمقًا وأشد تمكينًا، أي أن يمكِّن في نفسه فضيلة الاتضاع. ولا ريب، أن الكافل لثبات البناء العالي، إنما هو أساس متين قوي، يحمله ويثبّته، فيجعله في حمى من عواصف الأيام والسيول الجارفة من كرّات الدهور. فإذا هو معقل حصين، وبناء مكين خالد. إذ لا شبهة في أنه، إذا توطد الأساس، تمكّنت أعالي البنيان والتقى طرفاه ـ كما يقول الفلاسفة ـ بجامع المتانة والقوة. إن هذا موضوع جلل، طرقتموه وبحثتم فيه بإيجاز بليغ. والقارئ يستطيع أن يجد كثيرًا منه، في سائر ما كتبتم من الفصول الجميلة. ففي كل صفحة من كتابكم، تظهر أعمال الأب بشارة الصالحة، وفضائله الممتازة. ولا عَجَب، فما هذه الأعمال والفضائل إلا ثمار ناضجة لحياة روحية، داخلية قوية راهنة. فالفضيلة، كما تقولون أيها الأب المفضال، هي قوّة حيوية في النفس، لابدّ لها من أن تظهر، مهما اختفت وكمنت. بل قد تنفجّر مدفوعة إلى الخارج بقوة الحب، وهل من دافع أعظم؟ فقد شهد الروح القدس عينُه "إن المحبة كالموت... لهيبها لهيب نار ولظى الرب. المياه الغزيرة لا تستطيع أن تطفئ المحبة، والأنهارُ لا تغمرها". فما أعجب هذه القوّة، التي جعلت القديسين يأتون أعمالاً غريبة (هي أعمال الله في قديسيه)، كما سبق القول. وبهذه القوة عينها، وصل خادم المخلص الأمين إلى حياة سامية. وما كان فيه من لظى الرب، ولهيب حبه تعالى، جَعَلُه محبوبًا جدًّا، جعله حبيبَ الله وحبيب

الناس، على اختلاف أخلاقهم وآدابهم. وأظن أنه لا يمكن أن يُذكر مبغض للأب بشارة.

وإذا أُتيح لنا أيضًا، أن نأتي بذكرياتنا الشخصية كما فعلتم أنتم، أمكننا أن نقول إننا إيَّان مَرَرْنا، رأينا حبّ الأب بشارة في القلوب المسيحية. وطالما سمعنا بإذننا مديحه، في صيدا ودير القمر وغيرهما من البلدان، ولاسيما أثناء نيابتنا العامة في هذه الأبرشية، التي قضى فيها حياته الرسولية و لم يخرج منها.

وكيف يمكن أن ننسى، حب تلاميذ المدرسة المخلصية له، ذاك الحب البنوي الخاص الشديد. وكم كانوا يفرحون، لدى نظرهم إياه نازلاً إلى المدرسة لسماع اعترافاتهم. فإنه رحمه الله، لم يكن ينزل إليها عادة، إلاّ لهذه الغاية. فكانوا يحيطون به، متهللين جذلين، ويخفّون إليه والابتسامة على وجوههم، وهو ينظر إليهم، وكلّه فرح وابتسام وهزّة طرب، يُظهر ما تكنّه نفسُه وما يطويه قلبُه، بكل كيانه الخارجي، بيديه المضمونة كفاهما الواحدة إلى الأخرى، حسب عادته يفركهما فركًا متواصلاً، وبعينيه الأبويتين، اللتين تفيض منهما نظراتُ العطف والحنان، بجبينه ووجنتيه المتورّدتين، حتى بمشيته أيضًا، إذ كان يُسرع إليهم لقضاء الواجب المقدس، واجب الاعتراف والإرشاد، وكم كنا نُسرّ لهذا المنظر الجامع بين مهابة الشيخوخة ولطافة الشبيبة، مندمجتين بهذه المشاهد. فكنّا بدورنا نطرب، كما يسرّ التلامذة الأحداث، وهل من دليل أعظم على حبّ الجميع له واحترامهم قدره؟

وإذا شئنا أن نَلِج داخل نفسكم الطيبة، أيها الأب الوقور، لنعلم الغاية التي قصدتموها، في نشر حياة الخوري بشارة رجل الله هذا، نجد أنّ ما توخّيتموه في مشروعكم الصعب، هو مجد المخلص، الذي يتمجد في النفوس التي تقف حياتها على خدمته، وإلى هذه الغاية العليا تنتمي

وترجع غايات أُخر، لا ريب أنكم قصدتموها أيضًا، وأخص بالذكر منها، غاية جذب النفوس إلى اقتفاء الأب بشارة، الكاهن والراهب الحقيقي، وهكذا تجذبونها به إلى الله. قصدتم ولا ريب، أن تهيبوا بالكهنة والرهبان عمومًا، وبأخوتكم المخلصيين خصوصًا، لأن يسلكوا طريقته، في التمرس بأعمال التقوى، بكل أصنافها وأنواعها، وما أحسن قصدكم هذا! قصدتم أن تبيّنوا لهم، أن بين آبائهم نفوسًا كريمة طيبة، سارت وراء المخلص، فوصلت بنعمته إلى أوج الكمال والحق، وما أجمل قصدكم بنشركم حياة الأب بشارة أن تقولوا لهمم: أن القداسة لابد لها من جهاد، مدة الحياة كلها، وأن لا قداسة بلا ثبات، وفي هذا المعنى، تخطر على البال، كلماتكم التي ذكرتموها عن لسان المطران باسيليوس حجار المثلث الرحمات: "إذا تَبَتَ هذا الكاهن على هذه الأعمال، وغلب الشيطان بهذا السلاح سلاح الصليب والصلاة، فلا بدّ أن يطوَّب قدّيسًا" أحببتم، بإعلانكم مثال أبيهم وأخيهم الأب بشارة، المثال العالي للكمال الكهنوتي والرهباني، أن تقولوا لهم: أن الثبات ضروري للقداسة، وأن القداسة والثبات، ولو أنهما مستحيلا المنال بالقوى الطبيعية والاعتماد عليها، يُستسهَل الحصولُ عليهما بنعمة المخلّص المقوّية، على ما قال القديس الرسول بولس "إنّا نقدر على كل شيء، بقوة من يقوينا". أبنتم كل ذلك في حياة الأب بشارة، وما أوقع وأصدق البيان بالأعمال. فيمكن القول: أن خادم المخلص الأمين، نَهَجَ نَهْجَ الكمال بأعماله، وعاش عيشة القداسة بفضائله السامية. فهذا قصدكم. فنعم القصد، وحبّذا الغاية. وهذا ما نرجوه من مراحم المخلص عينه، أن يُتّمه في كل نفس تقرأ حياة خادمه الأب بشارة. كما نرجو من المخلّص أن يُتم ذلك في تلك النفوس، بكرامة صفيه وحبيبه، صاحب تلك الحياة.

على أنه لا يخامرنا ريب، أن الخير الذي يحصل عن نشر هذه الحياة، جزيل عظيم، ليس فقط لنفوس إخوتنا الرهبان المخلّصيين فحسب، بل لنفوس سائر الرهبان والكهنة أيضًا. ولا نظنّه أقلّ نفعًا من ذلك، للنفوس المسيحية الظامئة إلى الحياة الروحية. والذي يشجّع ويقوّي أملنا هذا، هو إلحاح الكثيرين ممن عرفوا الأب بشارة وسمعوا به، في طلب كتاب سيرته، وسؤالهم كثيرًا عن نشره. نقول ذلك عن خبرة شخصية ثابتة، لا تزال تتأكد لنا كل يوم، بسماعنا الأسئلة المتواصلة من إخواننا وغيرهم ومن كثيرين من المسيحيين. فكرامة للمخلّص، وبغية لخلاص النفوس، ونزولاً عند رغبة الرؤساء والكهنة وإخوتكم الرهبان، ورغبة العدد الكبير من المسيحيين، وإتمامًا لرغبتكم وحبّكم الخالص للأب بشارة، أخذتم في كتابة حياته، وقد عنَّاكم شديد العناء طلبُكم الدقة في ذلك، وتابعتم جهادكم، وتلك الغايات السامية نصب عينيكم، وهي التي كانت تشجّعكم، فلم تضعف همّتكم، ولا فشلت عزيمتكم. وها أن كتابكم خرج جميلاً كافيًا في طبعته الأولى. ولم تكتفوا، بأن تضعوا مؤلفًا كبير الحجم في حياة بطلكم. بل قد بذلتم الجهد، أيها الأب الحبيب، في وضع طبعة مختصرة أو مقتضبة عن الكبرى، فحذفتم في هذه المختصرة ما ربما لا يهتم به جمهور القراء، وقد زاد ذلك على أتعابكم أتعابًا.

فليس علينا إلاّ أن نثني على همّتكم، في رسالتنا هذه، التي أحببنا أن تكون ديباجة أو خاتمة لكتابكم في الأب بشارة. ثم نمحضكم شكرنا، لكل ما تجشَّمتموه من تعب وعناء، ونسأل المخلص أن يقويّكم على متابعة أبحاثكم عن خادمه الأمين، وغيره من رجال الطائفة وشهدائها من كهنة وعالميين.

إننا نحثّكم على هذا، ونصرّح لكم برغبتنا هذه، التي لا ريب أنكم تعتبرونها أمرًا عذبًا على قلبكم، لما أنتم عليه من الغيرة والحبّ لمثل هذه

الأبحاث، والإخلاص لطائفتكم وأمكم الرهبانية. وإننا على ثقة أنها تعود عليهما بالفخر، ويتمجد بهذا الله والمخلّص.

على أنه غير خفي عليكم، أن الرهبانية قد تفانت حتى الآن، بالذود عن حفظ الطائفة العزيزة وكيانها، صارفة ليس أتعاب وأعراق أبنائها فحسب. بل دماءهم أيضًا، ثمنًا رخيصًا، في سبيل خلاص النفوس المفتداة بدم المخلص. وهي لن تفتأ تتابع سيرها المعهود، بعون المخلص الكريم، الذي تنتمي إليه بكل فخر، مُتّكلة عليه وحده.

وليس لنا أحسن ختام من مصافحتكم أخويًّا بالرب، داعين لكم بالبركات الغزيرة، والنعم الوافرة، والمخلّص يحفظكم لأخيكم.

عن دير المخلص الرئاسي **الارشمندريت نقولا برخش**

في ٦ كانون الأول سنة ١٩٣٤ **أب عام ب. م**

ثانيًا : مشرفة من غبطة السيد البطريرك الكلي الطوبى للمؤلف:

سجل عدد الإسكندرية في ٢٨ دسمبر ١٩٣٤

٨ ٤٢

لحضرة الابن العزيز الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي المحترم

سلام ودعاء وبركة رسولية

تصفّحنا بارتياح "سيرة الأب البار بشارة أبي مراد المخلصي"، التي أخذتم على نفسكم، نشرَها بغيرة واهتمام. وكنا قد سمعنا عن ذلك الأب البار أشياء كثيرة جميلة وعجيبة، فجاء كتابكم محققًا لما قد سمعنا، ولم نكد ننهي مطالعته حتى شعرنا بتأثير الخشوع العميق يملك فؤادنا. وحسنًا فعلتم بكشفكم أسرار تلك الحياة الخفية، لتكون أمثولة حية للإكليروس عمومًا، يتعلّم بها طريقة القداسة بتقديس النفس والنفوس، على مثال الأب بشارة، الذي حفظ بقداسة ما هو مقدّس فتقدّس.

فنحن بكل سرور نبارك مؤلفكم القيمّ، ونحرّض الجميع على مطالعته، ونثني على همّتكم، أيها الابن العزيز، لأنكم أصبتم المرمى المنشود. وبينما نسأل الله تعالى أن يمجّد سيرة هذا الأب البار، نجيز لكم نشرها لفائدة الجميع، مكرّرين لكم مع الدعاء الأبوي والبركة الرسولية.

كيرلس التاسع

بطريرك أنطاكية والإسكندرية

وأورشليم وسائر المشرق

ثالثًا: مشرفة لسيادة الأب العام من السيد الجليل المطران اغوسطين البستاني الكلي الشرف والوقار:

قدس الأب الحبيب المفضال الارشمندريت اغابيوس نعّوم

رئيس الرهبانية الباسيلية المخلصية الكلي الاحترام

وبعد إهداء الواجب، لكم خالص الحب والاعتبار: بلغنا أنّ أحد آباء ديركم العامر يهتمّ في تدوين حياة رجل الله، المرحوم الخوري بشارة أبي مراد، أحد أبناء رهبانيتكم المخلصية الجليلة، الذي قضى برائحة القداسة في أواخر شهر شباط المنصرم، فراقت لدينا الفكرة جدًا، وأثنينا أطيب الثناء على القائمين بتحقيقها، لمعرفتنا بما سيكون لها من الحاجة والأهمية في مستقبل الأيام، وبما ينجم عنها من عظيم الخير والنفع الروحي، في هذا العصر الذي ضعف فيه لسوء الحظ روحُ الإيمان، وسادت قوّة الاعتماد على العقل والطبيعة، واشتّدت الحاجة إلى الأمثلة الصالحة. ولما كنّا عرفنا الأب بشارة معرفة شخصية، واستجلينا عن قربٍ قداسةَ سيرتِهِ، وما زيَّنه اللهُ به من الفضائل والمناقب النادرة، رأينا من الواجب أن نقول فيه كلمة مختصرة أوحاها الضمير والاختبار.

جاء الأب بشارة بأمر الطاعة المقدسة إلى انطوش مار إلياس، لرهبانيتكم الكريمة في دير القمر، للمعاونة بخدمة الرعية وما كاد يستقرّ به المقام، حتى اكتسب القلوب بوداعته، وملَكَ العقول بغيرته، واجتذب العواطف بمحبّتهِ ونال ثقة الجميع، على اختلاف الطبقات والمشارب، بأعماله الرسولية، التي تلألأ فيها على الخصوص بتجرده الكامل، وتواضعِهِ العجيب، وتضحيتِهِ المتواصلة في سبيل خلاص النفوس المفتداة بالدم الإلهي الثمين.

عرفناه رجل التجرد، لأنه بالحقيقة تجرّد عن ذاته، وترك إرادتَه وأمات أمياله، وسلّم نفسه بكل قواها لمشيئة الله. فكان على الدوام وفي مختلف الحالات والأوقات، على أتمّ هدوء وطمأنينة وسلام، يعمل بهمّة ونشاط، وبسلامة النية وفرح النفس، وحرية الروح، شأن أبناء الله المختارين، الذين أفلتوا من سلطة محبّة الذات، ومن قيود شهوات الطبيعة وملكاتها السيئة، وتفرّغوا من الخليقة بأسرها، وغاصوا بكل قواهم في محبّة الخالق، لائذين بحماه الأمين، حيث لا عاصفة تُقلق راحتهم، ولا نازِلة تُزعزع عزيمتهم. فكان يُعامل الجميع معاملة واحدة، دون نظر إلى الغنى والفقر، أو إلى الوجاهة والخمول، أو إلى القوة والضعف، بل يبذل الخدمة نحو كل واحد على قدر حاجته، بمروءة راسخة نادرة ليس فيها أثر للتفاضل والتمييز. يزور في كل سبتٍ المقابَر حيث يُطيل الصلاة عن أنفس الموتى، والدمع ملء عينيه. ويقضي يوميًّا وقتًا طويلاً في منبر سر التوبة، فيُقبل إليه التائبون برغبة وثقة، لتنقية ضمائرهم من المآثم والأدران. وكان كلامه الرقيق الخارج بالوداعة والحق، يلج حتى أعماق النفوس، فيوقظها من غفلتها، ويرشدها إلى الصواب وقد عرفْنَا كثيرين مَن استغوتهم الدنيا بزخارفها، وانهمكوا في أباطيلها أقامَهمُ من سقطاتهم المُريعةِ وأعادهم إلى الله بالتوبة الحقيقية. ولا يزال بعضهم حيًا يذكر هذا الفضل.

وبعد أن رأيناه مائتًا هكذا عن العالم وعن ذاته، لا عَجَب إذا لم يكن للمال أو لقوة المال عليه من سلطان. فما ذلك سوى نتيجة طبيعية لذاك التجرّد الباطني الكامل. أجل لم يكن للمال شان عنده. فما كان يصل منه ليده، كان يجود به بأريحية وسرور على المعوزين، خصوصًا العيال المستورة، شان القديسين الذين فقهوا كلمة السيد المسيح: "الحق أقول لكم، إنّ كل ما فعلتموه مع أحد إخوتي هؤلاء الصغار، فمعي

فعلتموه". وإذا أراد أحد أن يتصدّق على المساكين، كان يرى في الخوري بشارة الوسيلة الأمينة لإيصال الصدقة إلى المستحقّين. فأحبّه الفقراء، ووجدوا فيه خير تعزية وسلوى في البؤس والشقاء.

عرفناه رجل التواضع: كانت لذة الخوري بشارة في أن يقوم بواجباته الكهنوتية والرعائية، بقدر ما يستطيع وتسمح له الأحوال من الدقة والنظام والتهيب والخشوع، وأن ينزوي بعد الانتهاء منها في قلايته، أو علي الغالب في الكنيسة، مختفيًا عن العيون كالبنفسجة الوديعة، مستغرقًا في مناجاة ربه. وفي هذه الخلوة البعيدة عن الضوضاء، يعمل كالنحلة، التي بعد تنقلها بين الأزهار، تلجأ إلى خليّتها الصغيرة، حيث تُهيّئ عسلها الشهي المغذّي المفيد. ولما كانت فضيلة التواضع محبوبة ومحترمة من ذات طبعها، فقد كانت الناس تتهافت على تكريمه واحترامه. وكانوا يقتربون إليه بدالّة بنويَّة، في أمراضهم الروحية، مندفعين بما يشعرون به في قلوبهم من الثقة بهذا الكاهن الصالح، الذي كان يمثّل أجمل تمثيل ذاك المعلمَ الصالح، الذي إنما "أُرسل ليعزي البائسين، ويشفي منكسري القلب، ويكرز بالسنة المقبولة ويوم الخلاص". وما كان أشد حياءه وخجله عندما كان الناس يمدحون فضيلته، أو يُثنون على عمل من أعماله. فنحن طالما شاهدناه في مثل هذه الظروف، وقد علا الاحمرار جبينه، مطرقًا في الأرض حياءً واحتشامًا، معبّرًا في ذلك عن حقارته، وعدم أهليته للمديح والكرامة. ومما نذكره، أنه بعد أن انتهى أحد المجامع العامة في دير المخلص العامر، وتعيّنت أصحاب الوظائف الرهبانية، التقينا بالخوري بشارة صدفة في دير القمر، وكنا لا نزال في حضن أمنا الرهبانية، فسألناه مازحين: يظهر أن قد تمّ توزيع الوظائف في دير المخلص، و لم يفتكروا فيك، فما قولك؟ أجاب بابتسامة لطيفة وببساطته المعروفة : "شو شايفين فيَّ، حتى يفتكروا

فيَّ".عبارة ساذجة بليغة، لا يزال صوتها يطنّ بأذننا، قالها بأسلوب يشفّ عن اقتناعه الباطني، بأن ليس فيه ما يستحق لوظيفة. ولا غرابة، فهذا جواب بديهي لمن تعمق في درس نفسه، فعرف حقارتَها وعظمةَ الله فكان هو في نظر نفسه لا شيء، وكان الله كلَ شيء. والتواضع أساس راسخ لكل سلام وكمال. عرفناه رجل التضحية: لم يمارس الخوري بشارة أعمال التقوى والقداسة في حقبة ما من حياته الطويلة أو في زمان قوته فقط، بل كانت الفضيلة رائده، والتضحية رفيقه في كل أطوار حياته. فكان يسير كالجبّار في طريق البرّ ومراقي الكمال، لا يَعوقُه الحرّ والبرد، ولا تُضعفه المشقةُ والتعب، ولا تهوله وعورة الطريق وبُعْد المسافات، ولا تخيفُه الأوبئةُ والأمراض، ولا تُضعفه المِحَن والتجارب، ولا تصدّه عناصرُ الطبيعة أية كانت، بل كان يقتحم تلك المصاعب، بهدوء وسكينة وتسليم للعناية الإلهية، التي كانت تسهّل أمامه العقبات، للقيام بواجباته نحو النفوس العزيزة، التي أخذ على ذاته خدمتَها الروحية فكان، وهو يُقيم في انطوش الرهبانية بدير القمر، ينزل مشيًا على الأقدام إلى وادي دير القمر والمزارع بجوارها، والمسافة نحو ساعتين. فيتلو الذبيحة الإلهية، ويتمّم لأهالي تلك الناحية فروضَهم الدينية، ويعود إلى دير القمر، دون أكل وشرب، تخفيفًا لأثقاله عن الأهالي، وقهرًا لجسده. فيبقى صائمًا على الغالب إلى العصر. وقد اتّفق أن مرَّ في أحد الأيام، على الطريق بين الوادي ودير القمر، الدكتور يوسف البستاني، فرأى الخوري بشارة، وقد أنهكه التعبُ والصومُ، ملقىً على الأرض، فأركبه فرسَه، وجاء به إلى قلايته في دير القمر. ولم يكن ثقل السنين ليوهن عزائمه في هذا السبيل الشاق، بل كنا نراه في هذا الدور الأخير من حياته، أوفر نشاطًا وأشدّ عزمًا، كالجندي الباسل، الذي يلمع لعينيه فجر يوم الانتصار، فيزداد جرأةً وإقدامًا في اقتحام المخاطر، إذ يعلم أن رأسَهُ

أوشك يُعصب بتاجِ المجد والبهاء. وهكذا سار رجل الله في مصاعد الحب الإلهي، حتى بلغ قمّة جبل القداسة، بشيخوخة صالحة، مثقلة بأجمل الأعمال، ومعطّرة بأسمى الفضائل.

قضت الشيخوخة أن يستدعيه رؤساؤه إلى الراحة. فغادر دير القمر، تاركًا فيها وفي جوارها وخصوصًا في قلبنا، ما يتركه الكاهن القديس. من التذكارات المقدّسة العذبة اللذيذة التي لا تزول. ولما فاضت روحه الطاهرة في دير المخلص العامر برائحة القداسة، في أواخر شهر شباط المنصرم من هذه السنة، شاركنا الرهبانيةَ وكلَّ عارفي قدره في الحزن المرضي لله، إذ خسرنا فيه أفضل قدوةٍ ومثالٍ في التجرد والتواضع والتضحية. نفعنا الله بشفاعته، وحفظ الرهبانية المُخلصية الكريمة، وزادها نموًّا وازدهارًا، في المحاسن والكمالات الإنجيلية، لتظلّ على الدوام منارة باهرة الضياء، تُرسل بأبنائها أمثال الخوري بشارة، أشعةَ الفضل إلى كل مكان، لأجل زيادة مجده تعالى الأعظم وخير النفوس.

بيت الدين في ٦ تشرين الأول سنة ١٩٣٠

اغوسطين البستاني

مطران صيدا

رابعًا: مشرفة للمؤلف من السيد كيريوس نقولاوس نبعة مطران صيدا ودير القمر الكلي الشرف والوقار:

لحضرة الأب الفاضل الخوري قسطنطين الباشا ب م

الجزيل الاحترام سلام ودعاء وبركة

طالعْنا برغبة وسرور، ما نشرتم عن حياة السعيد الذكر. الأب بشارة أبي مراد ب م. فذكّرتنا تلك الصفحات الحية، ما طالما شهدتْ أعيننا، من بينات التقوى الراسخة، والفضائل المسيحية السامية، والكمال الرهباني الكهنوتي، في نفس ذلك الأب الدائم الذكر المثلث الرحمة. وكنّا، ونحن نتصفح تلك الأوجه، كأنما نجدّد ذكر الأيام الغابرة، التي أسعدنا فيها الحظ أن نكون بقربه في سنيه الأخيرة، ونعاين أمثلته الصالحة، ونتتبع سيره اليومي في مدارج القداسة، ونضوجَ نفسه الطاهرة بفيضٍ النعم السماوية الغزيرة.

فإذا كان قصد المؤرخ إحياء ذكرى الرجال العظام، بسرد تفاصيل عيشتهم اليومية لتُحفظ مع كرور الزمن، وتصوير ما يتبيّن من خلال ذلك من مناقب نفوسهم العالية، وقلوبهم الكبيرة، فيحق لكم أيها الأب الفاضل أن تفتخروا، بأنكم فُزْتُم بالنجاح وأصبتُم المرمى. فلقد بحثتم بتدقيق مُعجب، عن كل ما يمكن الوصول إلى معرفته، ولم تثبتوا إلا ما تتيقنون من صحته التاريخية، بالشواهد القاطعة والبراهين الأكيدة. وتقصّيتم في ذلك كله أثر عمل النعمة في نفسه البارة، فاجتهدتم بالولوج مع القارئ إلى ذلك الكنز الثمين، للاستفادة مما فيه من أمثلة الفضيلة، والسير في مسالك التقوى.

فنهنئكم أيها الأب العزيز الفاضل بإتمام هذا العمل المهم، لتخليد ذكر الأب بشارة، ونشرِ عبير فضائله بين الأنفس التقية، المتشوقة إلى

إتباع آثار القديسين. ونتمنى لمؤلفكم الثمين، أن تتداوله كل الأيدي المسيحية، لتستفيد منه فضيلةً وتقوى، وتتنشط إلى الاقتداء بسيرة رجل الله، والسلوك في مدارج الفضيلة والكمال. وعسى الله أن يجعل هذا الكتاب، مدعاة لزيادة نشر صيت رجل الله، وتمجيد اسمه تعالى فيه ومقدمة للسعي بإدراجه في سجل خدام الله القديسين.

نسأله تعالى، أن يكلل مساعيكم بالنجاح، أيها الأب الفاضل، وأن يُجزل لكم المكافأة والأجر، في الدارين، مكرّرين لكم الدعاء والبركة.

صيدا ختام سنة ١٩٣٤

نقولاوس

مطران صيدا ودير القمر

وما إليهما

خامسًا: شهادة الزوّار الرسوليّين للرهبانيّة

VISITE APOSTOLIQUE DES BASILIENS MELKITES

Les Pères Bénédictins Visiteurs ont été frappés, dès leurs arrivée au Couvent de St. Sauveur, par les vertus et la vie toute sainte du père Bichara Abou-Morad. Ils ont vu dans les examples donnés par ce vrai religieux le modèle des Moines, tel qu'ils désirent que le deviennent tous les Baisiliens que le St. Siège leur a confiés pour les aider à revenir à l'esprit de leurs Fondateurs. Ces exemples, dont ils ont été les témoins, pendant une année entière, leur ont été tout à la fois un grand encouragement de la Providence, une démonstration de la possibilité de la vraie vie monastique, même au milieu des circonstances actuelles, un secours très puissant aussi par les prières très ferventes que cet ami de Dieu leur a données pour les aider dans leur œuvre difficile. Ils pleurent la grande perte que le Couvent de St. Sauveur a faite en rendant à Dieu cette belle âme dont les exemples étaient une prédication continuelle et un rappel aux grands devoirs de la vie religieuse pour tous les moines qui chaque jour le voyaient au milieu d'eux, miroir vivant de la Règle et de la perfection chrétienne, religieuse et sacerdotale.

Ce qui les a frappés par dessus tout, c'est l'intensité de sa prière qui était vraiment continuelle. Il passait ses journées entières et une partie de ses nuits à l'église, toujours à genoux devant le S. Sacrement, devant l'icone de la Vierge, au pied de la Croix, tout absorbé dans la présence de Dieu, auquel il parlait dans les tendres effusions, même à voix haute, lorsqu'il se croyait seul ou lorsqu'il voulait entrainer les autres à la prière. Lorsque la cloche l'appelait cependant, il obéissait aussitôt, mais sans interrompre son oraison qu'il continuait partout et dont on voyait sans peine la ferveur dans toute son attitude, soit au

Réfectoire, soit aux réunions de la Communauté, dans sa cellule, soit même en compagnie de ses frères. Cette intensité de sa prière s'est manifestée surtout dans sa derniere maladie. Même au milieu des plus vives souffrances, son esprit ne se détachait pas de son unique préoccupation et il suffisait de faire devant lui quelque signe religieux, de prononcer quelques paroles de prière, pour qu'aussitôt il devint comme insensible à tout ce qui l'entourait, insensible même à la souffrance. [...]

Il semble bien que Dieu ait voulu glorifier son serviteur, à mesure qu'il s'abaissait davantage et cherchait à se cacher aux yeux du monde pour vivre plus près de Lui. Le peuple fidèle et beaucoup d'autres étrangers à la vraie foi le vénéraient comme un saint; les prêtres de tous les rites avaient recours à lui comme à un grand ami de Dieu. [...]

Nous espérons que Dieu voudra mettre le seceau à son œuvre et donner à ce fidèle disciple et ami du Saint Sauveur la gloire qu'il a promise à ceux qui le suivraient docilement dans l'humilité et la charité et faire briller aux yeux de tous la lumière et les vertus de cette vie si profondément et entièrement monastique, afin que, en cela comme en toutes choses, IL SOIT TOUJOURS GLORIFIÉ.

P. Benoit Gariador Ab. O.S.B.
visiteur apostolique

S. Guilhem de Lajudie O.S.B.
visiteur apostolique

F.N.S. Menez O.S.B.
visiteur apostolique

سادسًا: شهادة رئيس المدرسة الصلاحيّة في القدس

«...Une grâce que la Providence a bien voulu me donner à St. Sauveur, c'est de voir le Saint Père Bechara. Déja, en 1907, je l'avais rencontré à Deïr-el-Quamar, et j'avais gardé de lui le souvenir d'un Religieux mort au monde et vivant continuellement avec Dieu. Aussi n'ai-je point été étonné de voir l'influence qu'il exerçait sur les âmes et la confiance que les gens avaient en ses prières... Sainte Thérèse de l'Enfant Jésus disait qu'elle passerait son ciel à faire du bien sur la terre. Je suis bien sûr que le Saint Père Bechara fera lui aussi pleuvoir beaucoup de roses sur la chère Congrégation... et sur le Séminaire qu'il a bien voulu bénir en ma personne, à mon départ…»

J. Portier.

11 Avril 1930

سابعًا: شهادة رئيسة راهبات مار يوسف في صيدا

Le très Révérend Père Bechara religieux Salvatorien a été le confesseur de nos élèves pendant plusieurs années.

Il était d'une mortification et d'une patience exemplaires; quand on l'apercevait pour le 1ère fois on avait l'impression de se trouver en face d'un saint Curé d'Ars. Tout dans sa personne révélait Dieu.

En été, le bon Père venait célébrer la messe à notre Maison de campagne, dès 5h. du matin, il était là... après son action de grâces faite entièrement à genoux ou debout, il reprenait le chemin de la ville pour aller se mettre à la disposition de ceux qui désiraient se confesser.

Le grand esprit de foi qui éclairait la vie de cet humble religieux se révélait dans toute sa personne; une douce et radieuse lumière pénétrait ceux qui avaient le bonheur de l'approcher... c'était l'homme de Dieu... c'était un saint.

بعد دفن الأب بشارة، في ضريحه المُعدّ له، جعل الأب العام على طاولةٍ أمام الضريح، دفترًا كبيرًا، ليكتب فيه الذين يزورون الأب بشارة في ضريحه، أسماءَهم وما يُحبون ذكره عنه. وفي الحال، كتب الذين كانوا قد حضروا جنازه، أسماءَهم، وفي أولهم كتب السيد اثناسيوس خرياطي مطران صيدا بخط يده، رحمه الله، هذا الدعاء البليغ الحار، الصادر لا محالة عن نفسٍ أخذ منها الخشوعُ كلَ مأخذ، ننقله هنا بحرفه، ونجعله ختام الفصل. ولا يسعنا أن نذكر وننقل كل ما كتب فيه، حينئذ وفيما بعد.

أيها الرب القدوس، الذي شاء أن يضّم إلى قديسي فردوسه السماوي، عبده وكاهنه الخوري بشارة، أخانا في الرهبانية، بعد أن جعله على الأرض مثالَ الفضيلة الرهبانيةِ والقداسةِ والغيرة الكهنوتية، أعطِنا أن نعيش عيشته، ونموت الميتة، التي أوصلته إلى بهاء مجدك من أقرب السبل، واحفظ بيننا روحه، الذي كان المحرّك الوحيد لجميع أعماله. وهبنا رهبانًا وكهنة قديسين على مثاله، بجودك العميم ورحمتك العظمى.

في ٢٢ شباط ١٩٣٠

† أثناسيوس

مطران صيدا ودير القمر

وما يليهما

ثم استدرك ما ربما يَظن البعض أنه تجاوز حدّ سلطته إلى ما يختص برأس الكنيسة الكاثوليكية العام، فعلّق حاشية على ما كتب، قال فيها:

إننا حتى صدور حكم الكنيسة المعصوم، لا نعلّق على ما ننسبه إلى المرحوم الأب بشارة أبي مراد، سوى معنى وقوة الشهادة ليس إلاّ.

أثناسيوس

مطران صيدا ودير القمر

وما يليهما

﴿ الفصل الثالث ﴾

فيما كتبه عنه بعضُ أصحابه ورفاقه، بعد وفاته

بعد أن استأثرت رحمةُ الله بحياة هذا الأب الفاضل، بنقله من دار الشقاء في هذه الدنيا، إلى دار البقاء، والمكافأة له بالخير والسعادة، أوعز الأبُ العام إلى الرهبان، الذين كانوا في دير المخلص قد حضروا موته، واشتركوا بصلاة الجناز على جثمانه، أن يكتب كلُ واحد منهم ما يعرفه عن الراقد بالرب، من سيرته وأعماله ولاسيما فضائله، ليكون من مجموع ذلك ما يساعدنا على وصف سيرته ووصفًا تامًا كاملاً يليق بشأنه، فأجاب بعضُهم إلى ذلك، وكتبوا ما تيسّر لهم تحريره، مما عرفوه عنه من ذلك بالذات. لا بالنقل عن آخرين بالسماع. ومن ثمّ يجدر بنا أن ننقل في هذا الفصل من الملحق، ما كتبه من هذا القبيل بعض أصحابه ورفاقه، بامضاواتهم الخاصة، مما له شأن خاص. ولنا من مجموع ذلك شهادات تزكية جمّة وتكملة مهمّة تزيدنا تحقيقًا لما قررناه عنه في كتابنا، مما يُزيل، لا محالة عنه كلَّ شبهةِ شك، من نفس كلِ مرتابٍ بحقيقة ذلك، بعد ما ذكَرْنا كثيرين غيرَهم مِمَن نقلْنا أقوالهم، أو اشرنا إليهم بصفة رفاق له. ونجعل في أول ذلك، ما كتَبَه حضرةُ الأب الجليل افرام حنين الديران،ي المتقدم بين كهنة الموارنة في دير القمر، وقد قضى معه نحو ربع قرن، في خدمة نفوس أهل دير القمر، بوفاق المحبة والنشاط.

رجل الله

الخوري بشارة أبي مراد ب . م

في دير القمر

هو أحد رهبان انطوش مار إلياس للروم الكاثوليك في دير القمر، مثال التقى والورع، مثال الطهارة والعفاف، مثال الغيرة الدينية والفضائل السامية.

عاشرتُه رحمه الله، في دير القمر، احدى وعشرين سنة ونيف، إذ كنتُ مدبرًا للرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية، ورئيسَ رسالتها في دير القمر. وفي كل تلك المدة، لم أسمع أين توجهت وأنيّ ذهبت، إلاّ الثناء العاطر على صفاته، والتحدث بكرم محامده. ما نكون في مجتمع أو مجلس ويُؤتى بذكره، إلاّ والكلّ السنةُ مدحٍ على برارته وقداسته. كان رحمه الله، إذا سمع بمريض يذهب بالحال لعيادته، ويؤاسيه بألفاظ كلُها عذوبة ورقة، ويذكّره بأمجاد الله. وكثير من المرضى، يطلبون من تلقاء نفوسهم الاعترافَ وتناولَ الأسرار الإلهية المقدسة عن يديه. بالنظر إلى ما يرُونه منه من التعزية، والغيرة الدينية. كثيرًا ما شُوهد جاثيًا على ركبتيه، مصليًّا إلى الله، بكل خشوع وحرارة، وذارفًا الدموع لشفاء مريض. ولم يكن يتأخر عن أداء خدمة المرضى، ولو كان المرض من الأمراض الوبائية، مضحّيًا بذاته لمجد الله الأعظم.

هل كان يسمع بفقير بائس إلاّ ويُسرع، حاملاً إليه ما يُخفف عنه وطأةَ البؤس والفقر. كثيرًا ما كان يستندي أكف المحسنين والأغنياء، ويذهب بما جمعه لإعالة ومساعدة العائلات الفقيرات المستورات، دون أن تدري شماله ما فعلت يمينه.

كان مترفّعًا عن حبّ الذات والأنانية. كان لا يُعطي يده لأحد ليقبّلها. كان لا يرفع نظره إلى النساء إذا كلمَهُنَّ. كان يقضي جميع أوقات فراغه من خدمة المرضى، ومساعدة المرضى، وخدمة النفوس، جاثيًا في الكنيسة مصليًا، مبتهلاً إلى الله، ولو كان ذلك في أشدّ أوقات الحر والبرد، في الليل والنهار.

كان على جانب عظيم من التقشّف والزهد. كان يصوم، كل نهار سبت حتى بعد الظهر، وفي أيام الصوم الكبير، كان يصوم حتى المساء. كان لا يتأخر عن الحضور في جميع الاحتفالات الدينية، لا يمنعه مانع عن ذلك. ومع ما هو عليه، رحمه الله، من الشيخوخة وكبر السن، كان يذهب كلّ يوم أحد وعيدٍ يُقيم الذبيحة الإلهية في وادي بمحليه، التي تبعد عن دير القمر لا أقلّ من ساعتين، يذهب ماشيًا على الأقدام، لا يُؤخره الحر ولا البرد، ويبقى صائمًا حتى رجوعه لدير القمر بعد الظهر.

كان قدوة للجميع بسلوكه الحسَن وصفاته الكريمة. وإني أسأل الله أن يعدّه في عداد أبراره وقديسيه الصديقين آمين.

عن دير القمر في ٢٢ ت ٢ سنة ١٩٣٠.

الأب افرام حنين الديراني

الراهب الحلبي الماروني

اللبناني

❄ ❄ ❄

شهادة بما عرفته عن الخوري بشارة أبي مراد

تعرَّفت بالمرحوم من نحو ٢٣ سنة في دير القمر، حيث كان الجميع يقرّون بفضله وفضيلته، ويحترمون قداسته. وكنت أراه دائمًا في كنيسة مار إلياس راكعًا ومصليًّا بحرارة وخشوع. وما زالت تلك الذكرى مطبوعة في قلبي حتى اليوم. وقد أثّرت فيَّ تلك الهيئة الجميلة تأثيرًا شديدًا، حتى أنني أخذتُ باعتبار ذلك الرجل كقديس منذ صبائي، كما كان يعتبره باقي الناس.

على أن ما عرفتُه فيه منذ ذلك الوقت، لم يتغير مع طول الزمان وتوالي الأيام. ولذلك لما عاد إلى دير المخلص، وقد كلَّت عيناه عن البصر، شاهدتُ فيه كما شاهد غيري كلَّ صفات القداسة والكمال الرهباني. ففي طاعته كان مثال الراهب الحقيقي، الذي يصحّ أن نقول عنه، أنه أحَسَنَ بكلِّ ما صنع، وأتم جميع قوانينه، بالدقّة التي تطلب من إنسان. حتى لا يُمكن أن تُؤخذ عليه مخالفة. وتجرده أو زهده كان يظهر بأجلى بيان. لأنه لم يكن يملك شيئًا إلا ما تسمح الطاعة باستعماله. فيمكنه أن يقول: إنني كنت فقيرًا بالروح، لا أملك سوى الأشياء التي لا بد منها للحياة. أما عِفَّتُهُ فقد ظهرتْ وبانتْ للأعين في كل حياته، ولاسيما أيام مرضه الأخير، لأنه كان دائمًا محافظًا على الحشمة، مع ما كان يشعر بالتعب والعياء، وبالجهد كان يسمح لنا بأن نساعده على قضاء حاجات نفسه، عندما لا يتمكن من الوقف والجلوس.

وأما باقي فضائله فحدّث عنها ولا حرج. فلم نسمع أنه فاه بكلمة في حق أحد، من الرهبان أو الاكليروس أو العالميين. إنما الشيء الوحيد الذي كان يتشكّى منه، هو أن بعض الرهبان يعجّلون في صلواتهم ولا يُفهمونها له (لأنه كان ثقيل السمع).

روح الإماتة كان حائزًا له تمامًا، فنظرُه كان مضبوطًا. ولذةُ ذوقه كان قد أماتها منذ صغره، ولذا كان يخلط الأطعمة التي يتناولها ببعضها، ويأكل بقابلية دون أن يُبدي حركة اشمئزاز. وكان يتناول من كل ما يُقدم له، دون أن يطلب شيئًا خصوصيًّا.

روح الصلاة والاتحاد مع الله، لا يعلم قدره معه إلا الله وحده. لأنه كان يقضي كلّ أوقاته بالصلاة، وبمناجاة حبيبه يسوع، في سر القربان المقدس. فكنت تراه في الكنيسة يحرّك رأسه، ويتخشّع، وينادم محبوبَه بما يوحيه إليه قلبُه النقي.

هذا ما أعرفه عن الخوري بشارة قبل مرضه. أما في مرضه، فإليكم ما أتذكَره، وهو قليل من كثير: مساء الثالث من شباط، نحو الساعة السادسة ونصف، قبل أن يذهب الرهبان إلى القراءة الروحية، وبعد الجرس الأول، كنت في ممشى الرهبان الشرقي، فسمعتُ أنينًا، فتوجّهتُ حالاً نحو الصوت، فإذا هو صوت الأب بشارة، فدخلتُ إلى غرفته ووجدتُه يتقلّب على سريره، ويئنّ من وجع شديد ألمَّ بجنبه. وكان حضرة الأب يوسف صابونجي سمع ذلك قبلي، فأسرع وأحضر له قليلاً من العرق، فشرب ولم يسترح. وبقي يتقلب نحو نصف ساعة، هدأ بعدها الوجع قليلاً. ثم عاودَهُ بنوبةٍ أخف من الأولى. ثم سكن هنيهة، وبعدها عاوده بنوع أشدّ من الأول والثاني، وبقي على تلك الحال إلى الساعة الثانية عشرة ونصف بعد نصف الليل، التي فيها حضر الطبيب حنا الحداد من صيدا، وحقنه بإبرة "كافور"، استراح بعدها وسكنت أوجاعه. وكان الرهبان في هذه المدة يتردد أكثرهم إلى غرفة المريض، لأن النعاس كان تشرد عن أجفانهم، لنظرهم ما جرى للأب بشارة.

قلت أن الأب بشارة كان يئنّ ويتقلب على فراشه. ويقوم ويقعد، لكنه في كل ذلك الوقت الذي فيه تشتد النوبة عليه، لم يخرج من فمه

كلمة تذمر أو تمرمر على الله أو على الأوجاع. لا، بل كان يُصدر أفعالَ إيمان ورجاء ومحبة، وثقة بالباري تعالى، ويردّد صلوات سهمية كثيرة، كان قد تعودّها وعلّمها غيرَه كقوله: "إني أشرك آلامي مع آلامك. بين يديك استودع روحي. يا أم المعونة الدائمة عينيني. إرادتك يا الله فلتكن. إني أريد أن أموت برضاك. ليكن اسم الرب مباركًا". وصلوات غيرها كثيرة لم أعد أذكرها. ولما شعر أن المسألة حرجة وخطرة، طَلَب الحلّة ومسحة المرضى. ولما دهنَهُ بالزيت المقدس الخوري انطون كيورك وانتهى، قال: ماذا يبقى لي من الواجبات، أعطوني أعطوني كل شيء، لا تنسوا شيئًا.

وقبل أن يأتي الطبيب، سمع من الحاضرين أنهم يريدون أن يستدعوا طبيبًا من صيدا، فقال لهم: لا حاجة إلى طبيب. إنه لا يعمل شيئًا. ولما حضر الطبيب وفحصه، قال: ناولوه عشاءه ودعُوه ينام لأنه تعبان.

بعد أن كان الأمل ضعيفًا جدًّا ببقاء المريض في الحياة إلى الصباح، انتعش وتقوّى، وأخذ قلبه الذي كانت نبضاتُه قد ضعفت وأنذرت بدنو ساعة الموت، ينبض نبضاتٍ تبشر بالحياة والصحة. وعندئذ طلب من الحاضرين أن يتلوا له صلاة الفرض. ومنذ ذلك الوقت، ما برحتْ غرفتُه الصغيرة معبدًا للرهبان، يقيمون فيها الصلاة بالاشتراك مع تلك النفس البارة. وقد أسعدَنِي الحظ بأن أكون من الذين كانوا يواصلون الصلاة عنده، والسهر نهارًا وليلاً، وقد كنت أشعر بنفسي بعاطفة غير اعتيادية، وخشوع، وبمحبة للصلاة، وتقدّم في حالتي الروحية.

ومن جملة ما قاله لنا، في الليلة الأولى من مرضه: إذا متُّ، فإياكم أن تستدعوا أحدًا، لأن الناس يظنون أنني تقي، ولكنني عارف نفسي أنني أكبر الخطأة. الويل لكم إذا قال الناس عنكم حسنًا، وأنتم لستم كذلك.

ولما انتعش وتقوّى قليلاً بالعناية المتواصلة نهارًا وليلاً، وشعر أنه قوي مع ضعفه، أحبّ أن ينام وحده، لكي لا يزعجنا، فتركناه مدة ليلتين. وكان في النهار يخرج إلى الشمس، غير أنه في اليوم الثالث انتكست صحته، وعاوده الوجع بنوع شديد جدًّا. ومنذ ذلك الحين، لم نعد نفارقه لا ليلاً ولا نهارًا، إلى يوم وفاته، مع أنه كان منذ أول ليلة، يلحُّ علينا بأن نذهب فنرتاح.

وعندما كان يشعر أن حاجاته إلى المساعدة كثيرة، ويظن أنه ثقَّل علينا، كان يقول: قد أتعبتكم فسامحوني، الله يؤاجركم. الله يردّ عنكم. الله يكافئكم.

إن النفوس الكبيرة تَبين يوم الشدة وزمانَ الضيق. ونفس الأب بشارة لطهرها كبيرة، لأنها صبرت على الأوجاع، واحتملت الآلام بثبات وعزم لا يعرف الضجر، وكانت في إبّان تلك الأوجاع هادئة ساكنة، ترتفع بالفكر والقلب نحو الله، وتُشرِك أوجاعَها مع أوجاعه على الصليب.

الجسم الكليل الهابط القوي يطلب الراحة والسلوة، لأنه يشعر بانحلال عزائمه، فلا يمكنه أن يحصر قواه طويلاً بالصلوات الكثيرة. أما الخوري بشارة فلم يكن جسمه يطلب الراحة بالتعزيات الخارجية. بل كان يجد لذّته في الصلاة ومخاطبة حبيبه. ولا عجب فإنه قضى حياته في الصلاة، وفي الاتحاد مع يسوع. وكانت إشارته الأخيرة التي أبداها قبل مفارقته هذه الحياة، طلبَ الصلاة بنوع متداوم. ولم يكن يقنط منها أبدًا

أو يضجر، ودليل ذلك هو أنه كان يُبدي عند الصلاة كلّ ارتياح وكلّ سرور. وكان يُجهد نفسه ولا يتحرك كما كان يعمل في باقي الأوقات. وكان يُصغي ويشترك معنا على قدر مكنته، وكان يتبين للحاضرين أن الأب بشارة في وقت الصلاة، هو غير الأب بشارة في سائر أوقات مرضه، وما ذلك إلا دليل محبته لله، وقمعه لجسده المتعذّب.

وقد كان يُشرق وجهه ويشع نورًا عند الصلاة، وبعضَ المرار كان يبتسم كأنه يخاطب يسوع وجهًا لوجه. ولم يكن الأب القديس يكتفي بالصلوات الكثيرة المتوالية، التي كانت تُتلى في غرفته، بل كان يصلّي في داخل نفسه. ولذا كنت ترى شفتيه دائمتي الحركة. وكانت تبسماته في الصلوات الفردية تتوالى مرارًا أو دائمًا.

ولما كنا نشعر أنه تعبان، كنا نردّد له بعض صلوات سهمية، مثل التي كان يرددها، أو نصلّي له طلبة العذراء، أو قانون المديح، أو يسوع الحلو، أو الباركليسي، أو بعض مزامير خشوعية كمزامير التوبة التي يطلب تلاوتها.

قبل آخر يوم من وفاته، أسعدني الحظ أن أقضي عنده معظم النهار. وكنت في تلك الساعات أصلّي له قوانين السواعية، وأردد له صلوات سهمية كثيرة. وطلبت إليه أن لا ينسى الذين تعبوا عليه، فرفع يديه وعينيه إلى السماء، وتمنّى لهم كل خير. ثم تركته مساء، ولم أعد أراه إلا وهو على سرير الموت.

هذا بعض ما أمكنني تذكره عن حياة هذا الرجل البار، وهو قليل من كثير. وإنني أرجو من الله أن يُريحه في أخداره السماوية، ويرتّبه في مدرج القديسين، حتى يتمجد اسمه القدوس، ويعلو اسم الرهبانية

المخلصية، التي لم تخلُ في كل زمان من رجال أتقياء، يشفعون بها عند الباري تعالى ويطلبون لها من المخلص الكريم كلّ تقدم روحي وزمني.

دير المخلص ٢٨ شباط سنة ١٩٣٠ **الخوري جورج غبريل ب م**

ما كتبه عنه أول رفيق له بالابتداء والمدرسة الرهبانية

جُلُّ ما أذكر عن يقين، بأنه منذ دخوله الرهبانية، ظهرت عليه سمات الرصانة، والسكوت، والاحتشام، والتقوى، حتى حَمَلتْ هذه الفضائلُ رجلَ الله الخوري يوسف غنام زائر دير السيدة دير الابتداء، والأبَ العام، بأن يعهد إليه رعايةَ المبتدئين في دير السيدة وفي المدرسة. وكان رحمه الله أنيس المعشر مهذب اللسان، صافي القلب، مثلاً صالحًا للجميع. ولهذا كان يستأسر قلوب التلامذة الرهبان، فكانوا كلّهم يحترمونه.

ثم أذكر أمرًا لا يمكن أن تمحوه السنون، بأن أخرج من الغرفة بعد نصف الليل. فدهشتُ عند نظري الأخ بشارة راكعًا أمام باب الكابلا، مشبوح اليدين يصلي كأنه مخطوف بالروح....

ليفورنو ٢٩ كانون الثاني ١٩٣١

الارشمندريت يوسف شلهوب ب م

إجابة لرغبة رئيسنا العام الارشمندريت اغابيوس نعوم الكلي الاحترام، أكتب أنا الموقع اسمي أدناه، ما عرفته وشهدته، من أعمال الخوري بشارة أبي مراد.

قد شاهدت في هذا الكاهن، مدة ثلاث سنوات، تقوى عظيمة. فقد كنتُ أراه دائمًا في الكنيسة، مصلّيًا بكل حرارة نفسه، ومُظهرًا علامات تخشّع غير اعتيادي. ومرات كثيرة، عندما كنت آتي لزيارته، أراه راكعًا في غرفته، وهو يصلّي بكل حرارة نفسه، وقد ظهرت تقواه في كل مظاهرها في مرضه الأخير. فكانت الصلاة لا تنقطع في غرفته، وهو كان يطلب من الحاضرين أن يصلوا أمامه. فقد صلّيت أمامه لا أقل من اثنتي عشرة مرة، بيوت قانون المديح، وطلب مني ثلاث مرات أن أصلي له مزامير التوبة. وصليت له مرارًا قانون يسوع الحلو، وقانون الملاك الحارس. ولم أسمعه قط متشكيًا أو متمرمرًا أو متضجّرًا من شيء، غير أنّه قد نبّهني ثلاثُ مرات أن أقرأ في الكنيسة على مهلي، وأرفع صوتي قليلاً، وذلك لأن سمعَه قد ضعف، في آخر حياته.

ولم يذهب قط إلى النزهة، كما هي عادة الرهبان بعد صلاة الغروب، بل كان يقضي نزهته أمام القربان المقدس، لذة نفسه الوحيدة. وقد كان مواظبًا على الحضور مع الجمهور، في الكنيسة والمائدة، وقاعة القراءة الروحية، وفي كل مكان، ولاسيما في الكنيسة وقاعة القراءة الروحية. كان يُصغي بكل قوته، بحيث أنه كان دائمًا يضع يديه وراء أذنيه، كيلا تفوته أدنى كلمة. وقد قضى نحو سنة كاملة ونيّف يخدم القداس بخشوع وتهيّب لا مثيل لهما.

وقد كان محتشمًا، في نظره ولبسه، وجميع حركاته: وقد مارس فضيلة الصمت ممارسة عجيبة، فلم يكن يتكلّم لا عن ذاته ولا عن غيره.

وبما أني قد ساعدتُه في أنفاسه الأخيرة، أذكر ميتته المقدّسة بتفصيل: الساعة الخامسة من صباح ٢٢ شباط سنة ١٩٣٠، قد ذهبت لغرفته، فوجدت عنده الأب انطون كيورك يصلّي المسبحة، فأردت أن أغلق الشباك، فقال لي الأب المذكور: أتركه مفتوحًا لأنه أوفق لراحته. وبعدئذ أتى الأب داود الخوري. وأخذنا ثلاثة نصلّي السحرية إلى القانون. ثم ذهب الأبوان انطون كيورك وداود الخوري ليقيما الذبيحة الإلهية، وبقيتُ وحدي عنده. وقد قال لي الأب انطون: كن منتبهًا لإعطائه الحلّة الأخيرة، لأن حالته خطرة. فجلستُ أمامه، وسمعته يتنفس تنفسًا شاقًّا غير مألوف (حشرجة الموت). ولعلمي أنه يُسرُّ كثيرًا بتلاوة أبيات المديح، أخذت أصلّي له الأبيات الستة الأخيرة من المديح. وفي نصفها، رفع يده بسرعة، ورفع طاقيّته عن رأسه، ثم اسند يده عليَّ، فأخذت من يده الطاقية ووضعتها على لحافه، ووضعت يده عليها، وأمسكته بيدي، ونظرتُ إليه فرأيته أنه قد انتبه بإصغاء للصلاة. فاستأنفت ما بقي من أبيات المديح. ولما لاحظتُ أنه يريد أن أصلي له أيضًا، وأنه شديد الانتباه للصلاة، بدأتُ أصلّي الأبيات الستة الأولى من المديح، وعيني تتردد بين النظر إلى الكتاب والنظر إلى وجهه. ولما وصلتُ إلى البيت الثاني، أقبل سيادة المطران أثناسيوس خرياطي مطران صيدا ودير القمر، فوقف ينظر إلى وجهه، ثم قال لي سيادته: كيف حاله فأجبتُه أن حالته خطرة. ثم أكملت الأبيات الستة. فسأله سيادته عن صحته، فعمل له إشارة صليب على صدره، كأنه يقول له صلِّ صلِّ. فبدأ سيادته الأبيات الستة الثانية من المديح، ووقفت أنظر إلى وجهه فرأيته يلمع، وفتح عينيه جيدًا، ثم نظر إليّ قليلاً، ورفع نظره إلى السماء فأمرني سيادة المطران أن آتيه بافخولوجيون، فأسرعت وأتيت به، وحينئذ قال المطران للأب بشارة: إني أعطيك الغفران الأخير، فأشار

بالقبول. وبدأ به وهو بغاية الانتباه، ثم ذهبتُ وأخبرت الرئيس العام الذي كان بالكنيسة أن حالته خطرة جدًا، فأتى ودخل عليه، وبعد دقيقتين لَفَقَ لفْقة. فقال الرئيس: خلص انتهى الأمر. فقال له سيادة المطران: أَعطِه الغفران الأخير، فأعطاه إياه. وفيما هو يختم الصلاة لفق لفقة ثانية، وأسلم روحه الزكية بيد خالقه، بكل هدوء وسلام. ثم رشه سيادته بالماء. واستدعيت الأبوين غريغوريوس حوراني وباسيليوس شاهين، فألبساه ثيابه، ثم أغمض سيادته عينيه، والأبوان غريغوريوس الحوراني وموسى الكايد أطبقا فمه. وإذ لم يكن بعد قد ابتدأ القداس، أتى جمهور الرهبان من الكنيسة، وصلّوا على جثمانه، ثم أخذوه إلى الكنيسة، وابتدأ القداس، الذي قدّمه جميع الكهنة لراحة نفسه، وحضره جميع تلامذة المدرسة. وبعد القداس، تلونا على جثمانه صلاة النياحة، ومساءً صلاة الجناز لراحة نفسه الطاهرة.

دير المخلص في ٢٨ شباط سنة ١٩٣٠ **الخوري مخائيل المقدسي**

ب م

رسالة رفيق قديم في المدرسة الرهبانيّة

تقبلتُ رسالتكم، التي فيها تستفهمون عن تأخير سيامة الرجل القديس والكاهن المفضال، الخوري بشارة أبي مراد، عن رفقائه تلامذة مدرستنا المخلصية، الذين قبلوا السيامة دونه. فأقول إنه رحمه الله، طلب من رئيسه الخوري يوسف غنام بكل تذلّل، أن يُعفيه من السيامة برتبة الشماسية والكهنوتية، أو على الأقل أن يؤجّل الأمر بذلك، ليستعّد الاستعداد الحسن لقبول هاتين الدرجتين المقدستين. وبعدَ رفضِ قبولِ ملتمسِه سمح له الرؤساء بتأجيل السيامة الكهنوتية الأمر الذي عدّه نعمة من فضل الرؤساء. وكان هذا التمنع متأتيًا، حسب زعمه، من عدم أهليته لهذه الدرجة السامية. وفي كل فرصة ملائمة، كان يُفيض بالشرح عن واجبات هذه الدرجة وقداستها، بالترفّع عن الأرضيات، والتأمل الدائم في السماويات، وكان يذكر الدينونة الشديدة لمن لا يكون كاهنًا حقيقيًا، إلى ما هناك من الحديث الشافّ عن تواضعه العميق، وعن معرفته حراجة موقف من يتقدم إلى درجة الكهنوت المقدسة. ولم يكن يتغافل عن طلب ودرس الكتب، التي لها علاقة بوصف قداسة الكهنوت، وكلّ ما يتعلق به من الفضل والصلاح. ولسبب ذلك، أجمع صفنا: اثناسيوس صباغ، واغناطيوس خرياطي، وجبرائيل نبعه، وفلابيانوس مطران لمّا أُمرنا بالتقدم إلى درجة الكهنوت، بأن نطلب الإعفاء من الرسامة، نظرًا لِما كنّا نسمعه من كاهننا القديس، عن حراجة هذا الموقف المخيف. وعندما دعته الطاعة ثانية للتقدم إلى درجة الكهنوت، نظرنا فيه الخوف الشديد. ووقتئذٍ أخذ بالصلاة الحارة ليلاً ونهارًا إلى الله، ليقيه مما ربما يكون سبيلاً لهلاكه الأبدي. وبعد ذلك أُقنِعَ فأطاع،

وأُمِرَ فتقدّم إلى مائدة الرب، واقتبل الجوهرة الإلهية، بعد وضع اليد على هامته المعدّة من الله لعمل الصلاح والخير.

وعقيب سيامة هذا الكاهن الصالح، شرع بتقديم الذبيحة الإلهية، على منوال غريب في بابه من الخشوع. فكنا نراه كأنه ملاك سماوي، لا إنسان أرضي. وكان غير متحرك على درجة الهيكل الإلهي، رافعًا يديه إلى السماء، وشاخصًا بنظره نحو العلاء، يُناجي من هو موضوع محبّته، ويخاطب ملائكةَ السماء وسكان البلاط الإلهي، تاليًا صلوات الخدمة الإلهية، بخشوع دونه كل خشوع، وكانت هذه الصلوات كأنها سهمٌ حارٌ يخترق فؤاد كل من الحضور. ولا خفاكم أيها الحبيب، أنّ هذه التقوى النادرة لم نرها إلاّ في هذا الإنسان، وكانت تؤثّر فينا غاية التأثير. وكنا نراه في وقت القداس كأنه مرتفع عن الأرض، وكنّا كأننا عند المناولة الإلهية من يده المقدسة، لا نشعر بنفوسنا أننا أرضيون، من مزيد الخشوع الذي كان يمازجنا في تلك الآونة. وقد كنتم بصحبتنا في ذلك العهد، وهذا أمر لا تجهلونه أيها الحبيب.

أخوكم

تقبلوا أخيرًا الأشواق والدعاء بحفظكم **الخوري بطرس خرياطي ب م**

صور ٢٥ آب سنة ١٩٣١

* * *

أنا الموقع أدناه، الخوري استفانوس الياس ب. م وكيل الضيوف في دير المخلص، والموكل على توزيع الخرج، امتثالاً لأمر الطاعة، أكتب ما شاهدتُه بأم العين، وعرفتُه بنفسي عن المرحوم.

الخوري بشارة أبي مراد الراهب المخلصي

الراقد بالرب في رائحة القداسة في دير المخلص (قرب صيدا)

١ ـ في حياته

معرفتي به لأول مرة: أسعدني الحظ بأن تعرّفت عليه، سنة ١٩١٩ في أواخر شهر آب، حينَ مررت بدير القمر كعابر سبيل، مع أحد الآباء ب. م. وكان إذ ذاك لي من العمر ١٥ سنة، وإذ نزلت في الانطوش، كنت دائمًا أشاهد الأب الجليل المذكور، في الكنيسة. وكنت أشترك معه في الصلاة. وكان يطلب مني أن أرنّم له. وأتذكر جيدًا أني رنّمت له بيوت المديح. وكان صيت قداسته ذائعًا، وهي لا تزال حقًا كذلك. وقد شاهدتُ ذلك بأمّ العين في السنتين اللتين قضيتهما في مدرسة دير المخلص، ثم في دير المخلص خصوصًا وأنا كاهن، في السنتين الأخيرتين من عمره.

تجرده: كثيرًا ما كنت ألجأ إلى الحيلة، كي أُفصّل له ما هو لازم من الثياب. وكلّ مرة أَعرض عليه شيئًا، كان يقول لي بلهجة خاصة: لا حاجة لي بذلك. ولماذا هذا؟ هذا غير موافق للروح الرهباني.

قبل أن يمرض بقليل، كان عنده في الغرفة ديوان صغير. فقال لي يومًا: أرغب ديوانًا أصغر أو سحّارة، لأن الديوان الكبير يضايقني، خصوصًا لأن نظري قد ضعف في هذه الأيام. فالتزمت إجابة لرغائبه أن آخذ له صندوقًا بسيطًا مربَّعًا، ووضعت عليه طرّاحة. وهذا الصندوق (السحارة) لا تزال في غرفته. وبهذه الواسطة كان مسرورًا جدًّا.

كل غرض كان يستغني عنه، كان يجلبه لي ويقول: خذ هذا يا أبانا، لأني لا أحتاجه. وهكذا حفظت هذه التذكارات الثمينة عندي باعتناء، وبعد مماته سلّمتُها لسيادة الرئيس العام.

طاعته: كثيرًا ما كنت أعرض عليه بعض أشياء، وعندما كان يرفضها، كنت أقول له: يا أبت سأزعل منك، وأشكيك لسيادة الرئيس العام. فكان للحال يأخذ بالاستغفار كأنه مذنب، ويطرق برأسه إلى الأرض، وبعد ذاك يأخذ ذلك الغرض، والابتسامة على شفتيه، فاركًا يديه كما كانت عادته.

حرارته في الصلاة: لمّا كان أحد الزوار يطلب الأب بشارة الجليل، كنتُ أذهب بذاتي أفتش عنه. ودائمًا كنت أجده في الكنيسة، وخصوصًا في السكرستيا في الجهة القبلية، وفي يده الصليب يخاطب المصلوب بلهجة قوّية. وتارةً كنت أشاهد بين يديه، كتاب تأملات حاصرًا فيه نظره، الذي ضعف كثيرًا، وهازًّا برأسه، غارقًا في بحر من التأملات، غيرَ منتبه إلى من يمرّ به أو يأتي نحوه. وتارةً كنتُ أجده في معبد القديس انطونيوس، مختبئًا خلف القرَّاءة، راكعًا ورأسه مطرق إلى الأرض، وأخرى كنت أجده يصلّي في قاعة الرئاسة، وهي قاعة الاستقبال الرسمية في الدير.

تواضعه، وهربه من مشاهدة العالم: حين كنت أخبره بأن بعض الزوار يريدون أن يشاهدوه، كان يحزن. خصوصًا إذا دُعي إلى دار الضيوف. وقبل أن ينزل، كان يسألني: هل أبونا العام طلبني؟ وهل قال لي: أن أنزل إلى الدار؟ ماذا يريدون مني؟ ولمّا ينزل، كان يجلس بعد السلام وعيناه إلى الأرض.

كنت وضعت، بإيعاز من الرئيس العام، إعلانًا (ممنوع الدخول)، أمام مدخل حصن الدير، ولّما كان يسمح لأحد الزوار آتيًا من بعيد، بالذهاب إلى غرفته، وقت انحراف صحته البسيط، لينال البركة منه، كان يقول لي: لماذا وضعت هذا الإعلان؟ فكيف الناس يأتون عندي؟.

غيرته على خلاص النفوس: لّما كان يأتي ضيوف إلى الدير، كان دائمًا يسألني: هل تكلّمت معهم في موضوع الاعتراف والتناول. وكم كان سروره شديدًا، حين كنت أخبره ليذهب إلى كرسي الاعتراف، لأجل أولئك الزوار. وهو كان يدعو ويحمل كثيرين على إتمام هذا الواجب. أما كيفية اعترافه فحدّث عنها ولا حرج، وكثيرًا ما سمعت الضيوف يقولون لي: إننا حاسدون جمهوركم على هذا الأب الجليل. فلم نرتح، و لم نعترف نظير هذا الاعتراف.

مرةً أتى شاب من بلدٍ بعيدٍ من أنسبائي، كزائر، وقد حملتُه على الاعتراف، فاعترف عند الأب بشارة الجليل، ولما أنجز اعترافه، قال لي: يا ليت كل الكهنة يعرّفون نظير هذا الشيخ الفاضل، ثم مرّت سنة، وإذا بذلك الشاب آتٍ كعادته ليزورني مع أحد أقربائه. فلما نزل من الأوتوموبيل، ابتدرني بالسؤال مع السلام: هل ذلك الشيخ الجليل الذي يقضي أوقاته وحياته في الكنيسة لا يزال في الدير؟ فإني أريد أن أعترف عنده، وقد انتظرت فرصة مجيئي إلى الدير كي أعترف عنده، ولهذه الساعة لم أعترف عند غيره، من تلك السنة. لأنه نادر جدًا أن أرى كاهنًا يعرّف مثله، ويريح ضمير المعترف.

كثيرًا ما كنت أشاهده يُقرِّع السيدات، اللواتي يلبسن الثياب القصيرة حتى الطفيفة.

٢- في وقت مرضه الأخير

٣ شباط إلى ٢٢ منه سنة ١٩٣٠

تواضعه، ومحبته للقيام بحاجاته بنفسه: نهار الاثنين في الثالث من شهر شباط سنة ١٩٣٠، مررتُ أمام غرفته، فوجدته يخرج فراشه للشمس، فقلت له: يا أبتِ لماذا تُعنِّي نفسك؟ إني مُرسلٌ لك خادمًا في الحال يعمل لك ما تُريد فأجابني: "ما عليش. لا تحرز". وبعد برهة، بعثت بأحد الخدم، فكنس له الغرفة، وعمل له ما أراد. وبعد الظهر بقليل، مررت أمام غرفته، فوجدتُه يُدخل أغراض غرفته، من كرسي وسحّارة ذكرتُ سبب وجودها في غرفته الخ.... فقلت له: يا أبتِ، لا تُجهد نفسك، انتظر قليلاً وسأرسل الخادم بعد وقت، لأنه مشغول في المائدة. ثم ذهبت إلى شغلي.

بدء مرضه: الساعة السادسة والنصف من مساء الاثنين، شعر بألم، وأخذ في الازدياد، وقد مررتُ بالعرض أمام غرفته فسمعت جلبة فيها.فهرعت ودخلت، وقد وجدت بعض الآباء الرهبان يحتاطونه. وللحال جلبتُ قليلاً من الماء السخن، ووضعتها في كيس من الكاوتشوك، ووضعته محل الوجع. فهدأ قليلاً: إنما لم يحتمل ذلك الكيس، فرفعتُه عن موضعه. غير أنه بعد مدة عاوده الألم، وأَخَذَتْهُ نوبة قلبية، صار بسببها يتقلب من جهة إلى أخرى على فراشه، ويقوم ويقعد على التخت. وكنت والأب موسى كايد ب. م أُمسِكُهُ. وكان تارةً يضرب برأسه صدري، ويتكئ عليّ، ويُمسك يدي بيديه بقوّة. وطالت هذه الحالة كثيرًا، وبقينا مع رهط من الآباء الرهبان ساهرين عليه حتى الصباح. وقد أرسلنا وراء طبيب من صيدا، فوصل الطبيب حنا الحداد الساعة ١٢ ليلاً. فعمل له حقنة في الجلد مقوّية، وأعطى له دواء عمله

في فرمشية الدير ،فارتاح المريض. وكان في هذا الوقت يطلب بإلحاح: أن صلّوا لأجلي، امشحوني اعملوا لي واجباتي، أعطوني الحلّة. فأتممنا رغائبه.

تواضعه: صباح اليوم الثاني في ٤ شباط زرته، وفي سياق الحديث، قلت له: يا أبت بشارة، ماذا عملتَ بي أمس؟ وكم ضربة ضربتني؟ فأجابني خجلاً: صحيح؟ وأطرق بعينيه إلى الأرض، وقال لي: "سامحني" فقلت: أنا أضحك معك. ثم قال لي يومًا في وقت مرضه الأخير: "يا أبانا إذا مت، لا تخبروا أحدًا، لئلا يظن الناس أني رجل مهم".

وحين كنت أخبره أن فلانًا آتٍ لزيارتك، كان يحزن ويقول: "الله يرحمنا".

حبّه للقربان الأقدس: أسعدني الحظ أن ناولتُه مرات كثيرة وقت مرضه، وكان ذلك دائمًا بعد منتصف الليل بقليل، وقد لاحظت مرةً عليه صعوبة البلع، فصغّرت له الجزء المقدس، وعندما أدخلته في فمه، لم يشعر وقد أبقى فمه مفتوحًا، وإذ ذاك قال لي: هل وضعتَ الجزء المقدس؟ ولما أجبته بالإيجاب، قال لي بقلب كسير وحزين: لماذا صغّرت لي القربان الطاهر هكذا، وبعد ذاك، غرق في بحر من التأملات، وكان يغسل الحق دائمًا بذاته، ويشرب الماء بسهولة.

حرارته في الصلاة، والتعزية التي يشعر بها: لاحظت بعيني، أن هذا الأب الفاضل، كان يهدأ وجعه عند تلاوة الصلوات، وخصوصًا عند الترنيم، ولذلك كنت أرنّم له بضع قطع، مثل: "أنني أشاهد خدرك" (اكسابستلاري الختن)، "وطروبارية الخَتَن" (ها هوذا الختن....)، واليوم عُلّق على خشبة، وبيوت المديح. والباراكليسي وطروبارية البشارة، وافتح لي باب التوبة، وما شابه ذلك. وفي هذا الوقت، كنت أراه هادئًا

يهزّ رأسه، ويبتسم ابتسامة الملائكة. وعندما كنت أنجز ذلك، كان يرفع يده على رأسه مرتين أو ثلاثة، علامة الشكر.

مرةً كنت عنده، وإذا به يقول طلبة العذراء، فأخذت أجيب عليه، إلى أن أنجزها كلها. وكثيرًا ما كان يطلب أن تُقال له هذه الطلبة، وقد طلبها مني أيضًا. وهو يسمع ويجيب في قلبه بكل خشوع. وكما كان في حياته لم يملّ من الصلاة والتأملات، هكذا لم يملّ في وقت مرضه، وإذا سكت القائمون بخدمته، أخذ هو يصلّي مسبحته، ويُرسل نوافذ وعواطف حبه للفادي الحبيب، ولوالدته، ولجميع القديسين.

وقت مرضه أتى لزيارته، الخواجا وديع الرامي من فالوغا، كي يباركه ويصلي لأجله، لنيل مولود. فسمعته يصلّي بحرارة وبصوت حنون وقلب ملتهب، حتى إن الشخص المذكور الجاثي أخذ يبكي لشدة تأثره. وقد أرسل الرجلَ المذكور جورج أفندي حيمري سكرتيرُ رئيس الجمهورية. وقد نالَ جورج المذكور قبله مولودًا، بشفاعات وصلوات الشيخ الجليل الخوري بشارة، بعد سنين كثيرة من اقترانه.

محبته للقريب: كثيرًا ما كان يرجو من الساهرين عليه، وقد قال لي ذلك أيضًا، أن يذهبوا إلى النوم، ولا يُتعبوا نفوسهم بالسهر عليه.

ولما عرف أننا طلبنا الطبيب لمعاينته، قال: لماذا ذلك و لمَ تتعبونه. ولما حضر قال له: "أتعبوك يا دكتور، الله يؤاجرك": وهذه الجملة كثيرًا ما كان يقولها للخادمين والساهرين عليه. وبعد أن ذهب الطبيب قال لي: هل قدّمتم له ليأكل، هل أعطيتموه أجرته؟

قبل أن يرقد بالرب بيوم واحد في ٢١ شباط، كنت عنده فقلت له: يا أبتِ باركني، كي يوفقني المخلص، وأكون راهبًا أمينًا في خدمته،

وأموت ميتة صالحة. فرفع يده بتأن زائد، وباركني، وإذ ذاك قبّلت يديه. ثمّ طلبت منه أن يبارك أمي الرهبانية، وأهلي وذويَّ، فهزّ رأسه.

٢٦ شباط سنة ١٩٣٠ **الخوري استفانوس الياس ب م**

فضائل

الأب بشارة أبي مراد

نزولاً عند رغبة أبينا العام الفائق الاحترام الارشمندريت أغابيوس نعوم، في إظهار ما أَعرفُه عن رجل الله الأب بشارة أبي مراد، أقول، والشاهد على صدق مقالي، ضميري والله، الذي سيدينني على كل ما يُنافي الحقيقة.

قد كنت سمعت، أيام تتلمذي في مدرستنا الرهبانية، كلام مديح كثيرًا عن قداسة وفضائل الأب بشارة، ولقد شاءت العناية الإلهية، أنني أُمرت في بدء حياتي الكهنوتية سنة ١٩٢٠، أن أكون في أبرشية سيادة مطران صيدا أثناسيوس خرياطي، الذي كان في شهر تموز من تلك السنة في قصبة دير القمر، حيث كان الأب بشارة. فتوجهتُ إلى هناك، وتحقّقتُ بعيني في رجل الله القديس، ما كانت سمعت به أذني: شاهدتُ حياةً ذاتَ فضيلة سامية، حياةً فائقةَ الطبيعة بكل معناها، تحققتُ إيمانًا ثابتًا بالله سبحانه وتعالى، واعتصامًا بنويًّا بهِ جُلَّت رحمته، ومحبّة لله مضطرمة، مقترنة بغيرة رسولية علي خلاص النفوس.شاهدتُ طهارة نفس ملاكية، تواضعًا عميقًا، وطاعةً كاملة، وفقرًا تامًا، فطنةً، عدلاً، شجاعةً وقناعةً، وبكلمة مختصرة، رأيت رجلاً كاملاً، ومسيحيًا كاملاً، وراهبًا كاملاً، وكاهنًا كاملاً.

أما إيمانُه الثابت بالله جُلَّ صلاحُه، فقد ظهرتْ قوّته في الأفعال العجيبة التي أتاها سحابةَ حياته، ولا يمكنني إثبات كل ما يُروى عنه بهذا الشأن إثباتًا تامًا، فقد ذُكر أمامي كثيرٌ من الآيات، ولكن ثبت أن لصلاته قوة عجيبة، في وقاية دود الحرير من الهوام المضرّة. وهنا أذكر

حادثًا جرى لي في هذا الشأن، سنة ١٩٢٥: كنتُ قد أُرسِلت بمناسبة الأعياد الفصحية، إلى قرية عين زحلتا. وبينما كنت أتفقّد أبناءَ طائفتنا، وأدعوهم إلى الاعتراف والمناولة، قيامًا بالوصية الفصحيّة، دخلتُ بيتًا، دعوتُ فيه ربةُ البيت إلى تتميم واجباتها الدينية. لأن الدليل رفيقي، أخبرني أن لها زمانًا طويلاً بلا اعتراف. فأجابتني المرأة على الفور: "يا أبونا، أنا لا أعترف". فسألتُها: ما السبب؟ أجابتني: "أنا لا أعترف إلا عند أبونا بشارة". قلت لها: "ولماذا؟" قالت: "لأنه رجل قديّس وليس لي ثقة إلا به"، وزادت على ذلك قائلةً بكل بساطة: "كان النمل يلحق دود الحرير عندي كل سنة ويُتلف الموسم. ففي إحدى السنين، كنت في دير القمر أتكلم بهذا أمام معارفي، فنصحتْنِي امرأةٌ أن أتوجه إلى الأب بشارة، ليصلّي على كأس ماء أرشُّ به الدود، فلا يلحقه النمل. فعملتُ بنصيحة المرأة، وتمّ كما قالت لي".

وروى لي كاهن عين زحلتا الحالي، الخوري خليل المغبغب، أن المبشر البروتستانتي فيها، كان يومًا متوجّهًا إلى دير القمر، فشاهد على مقربة من هذه البلدة، امرأةً من بلدته بيدها قنينة ماء، فسألها: "لِمَ هذا الماء؟" أجابته: "إنه ماء مقدّس لكي أرشه على دود الحرير"، فقال لها: "ما لك وهذه الخرافات، هذه خرافات خوارنتكم. أنا أصلي لك على الماء، فترشينه على الدود، فلا يلحقه النمل" أجابته: "ولكن هذا ماء صلَّى عليه أبونا بشارة"، فقال لها: "اذهبي إذن. فهذا رجل قدّيس".

أما اعتصامه بالله، ورجاؤه بالله مخلصه، فقد كانا وثيقين لأنه كان كلّما تكلّم عن العواقب الأربع، التي تُرعب فَرقًا كلَّ من يتأمل فيها، كان الأب بشارة يتجدد ثقةً بالله وبرحمته. وهذه الثقة، هي التي ملأت وجهه بشْرًا، حينما كلّمني قبل وقوعه في مرضه الأخير ببضعة أشهر، عن هذه العواقب، وعما عمله الآباء النساك القديسون استعدادًا لها. فكان

يقول لي: "إننا لم نشابه أولئك الأبرار في شيء، لا في إماتاتهم ولا في فضائلهم، فماذا يكون نصيبنا!". وزاد على ذلك حالاً، مجدّدًا ثقتَهُ بجودة الله ورحمته، قائلاً مع داود النبي: "على الرب توكلتُ، فلا أخزى إلى الأبد". وهذه الثقة هي التي كان يوحيها لجميع الخطأة الذين يعترفون عنده، وجميع المرضى الذين كان يعتني بهم، أو يؤازرهم على مفارقة هذه الدنيا كما تحققت ذلك بنفسي، حين ثِقُل عليَّ مرض التيفوئيد بصيدا، في أواخر سنة ١٩٢٣. وهي التي كانت تجعل لصلاته قوّة عجيبة، قلّما كانت تُطلَب لأمرٍ وتخيب. منها وقايته دود الحرير من الهوام المضّرة، كما سبق القول، والمزروعات من الجراد. وهذه الأعجوبة الأخيرة، كان الديريون يُردّدونها أمامي كثيرًا، وهي أنه حين انتشار الجراد سنة ١٩١٥، فكلّ أرض، رُشَّت بالماء الذي صلى عليه الأب بشارة، كان لا يطأها الجراد البتّة. وقد ظهرتْ ثقتُهُ بالله واستسلامه له تعالى بأجلى بيان، في مرضه الأخير إذ كان يُردد، حين تشتد عليه الأوجاع، هذه العبارة: "يا إرادة إلهي، أنتِ موضوع حبي". ولما كنت أقول له: اطلبْ من الله تخفيفَ أوجاعك، كان يُجيب: "لا. إرادةُ الله فلتكنْ، أو: مثلما الله يُريد".

ومحبته لله، كانت تستبين خصوصًا في صلواته، ولاسيما عندما كان يظن أنه لا أحد يراه. فكنتُ أُلاحظُه كأن وجهه يسطع نورًا، يتبسّم بوقار، ناظرًا إلى بيت القربان الأقدس أو إلى المصلوب، وذارفًا الدموع. وإذا كان المصلوب بيده، قبّله في جنبه ويديه ورجليه، وما ذلك إلاّ لاشتعاله بلهيب الحب الإلهي. وفي الصلوات العمومية، إذ كان يقرأ في الخورص، أيام كان في صيدا ودير القمر، كان يقرأ عن عاطفة حبّ مُضْطّرمة بالله. وما إقامته المتّصلة في الكنيسة، إلا دليلاً ساطعًا على حبّه الشديد ليسوع، المختفي في سر القربان الأطهر، الذي لم يكن يفارقه إلاّ

ليتفقّده في شخص المرضى. وما أعمال غيرته الرسولية، سوى برهان واضح على اضطرامه بحب الله. وأتذكر أنني حينما كنت أحضر إلى كاتدرائية النبي إلياس في دير القمر لزيارة القربان، كان يطلب مني أن أقرأ له صلاة الزيارة في كتاب القديس ليغوري، ولما كنت أنتهي من تلاوة الصلاة، كان يطلب أيضًا تلاوة صلاة الأفعال الإلهية، الموجودة في آخر الكتاب المذكور. ثم يُلحقها بصلوات سهمية، بارزة من أعماق قلبه مثل: "يا قلب يسوع الأقدس، أضرم قلبي بمحبتك. أو: يا يسوع الوديع والمتواضع القلب، اجعل قلبي مثل قلبك. أو: يا قلب مريم الحلو، كن خلاصي". وكان يطلب مني إعادة كلٍ من هذه الصلوات عشر مرات. ولما كنت أعرف عظم رغبته في مراجعتها، كنتُ في مرضه الأخير، أعيدها عليه وأذكّره بها. ولما كنت أكررها ثلاث أو أربع مرات، كانت تظهر على وجهه تلك الابتسامة اللطيفة، الصادرة عن قلب اضطرم حبًا لقلب يسوع وقلب مريم. فكان كأنه يشاهدهما وجهًا لوجه. كذلك كنت أعيد عليه، تلاوة صلاة أفعال الفضائل الإلهية المذكورة. ولما كانت تشتدّ عليه الأوجاع، أو بالحري على ما أظنّ، لّما كان ذلك الشيطان اللعين يضيّق عليه بتجاربه، كان يطلب تلاوتها بإلحاح. وقبل وفاته ببضعة أيام، قال لي: "إني أشعر أن قلبي كلهيب نار" وإذ قلت له إن ذلك لاضطرامه بحب الله، أدار وجهه، وتغيّرت هيأته حياءً من انه باح بمثل هذه العاطفة.

ومحبّته الشديدة لله، هي التي كانت تجعله يذرف العبرات، حين مخاطبته لله، كما تحققت ذلك مرارًا، مدة إقامتي في دير القمر، حتى كنتُ أسمع صوت بكائه، وكما قد لاحظت ذلك، حين تقربي منه في الكنيسة في دير المخلص، فكان يَشهق بالبكاء حين فحص الضمير مساءً، وكان يدوم بكاؤه، من أول فحص الضمير إلى آخره، فكأنه يتذكّر

بعض هفواته السالفة، او بعض سقطات حالية، فكان ينوح باكيًا. – والبار، على ما يقول الكتاب، يسقط سبع مرات في النهار –. وفي مرضه الأخير، كان يطلب مرات كثيرة أن يعترف. ولما كنت أسأله: "بماذا تريد أن تعترف؟ إنك لا تعمل شيئًا". لأني قلمّا كنت أفارقه في مرضه الأخير. كان يجيب بكل بساطة وبدون تكلف: "لاكتساب نعمة السر". أما في تقدمته الذبيحة الإلهية، فكان كأنه مختطف من هذا العالم، لا يهتم إلاّ في تلاوة الصلوات بكل خشوع وعبادة، غير مهمل ولا حركة مما يعيّنه كتاب القداس، مستعدًا الاستعداد الروحي، منذ النهار السابق، وقاضيًا أكثر ساعات ليله في هذا الاستعداد. لأني كل مرة كنت أحضر إليه مساءً، كان يطلب مني تلاوة قانون المناولة في كتاب السواعي. وكان حين تلاوة صلوات القداس، كلمّا قرب وقت التقديس والمناولة، ظهر أنه يزيد شوقًا وحرارةَ حبٍ ليسوع المسيح، المزمع أن يقدّمه ضحية للآب الأزلي، أو يتناوله تحت أعراض الخبز والخمر.

أما غيرته على خلاص النفوس، فيمكن أن يُقال إنها كانت ميزته الخاصة. فقد كان يضطّرم بسعيرها أي اضطرام، وقد تجلت فيما أجراه من الخير في دير القمر، وصيدا وفي القرى المجاورة. فقد ردّ كثيرين من الخارجين عن الكنيسة إلى وحدتها الكاثوليكية. وأخبرني هو نفسه في أيامه الأخيرة، انه كان يذهب إلى سجن بيت الدين، داعيًا المسجونين إلى التوبة، معرّفًا الكثيرين منهم، سائرًا بهم وبمعيّته فرقة من الجند، إلى كنيسة القديس مارون في تلك القرية، مقدّمًا لأجلهم الذبيحة الإلهية، ومناولاً القربان المقدس لمن تطهّر منهم بحميم التوبة. وكنت أراه لا يُهمل زيارة كل مريض من جميع الطوائف المسيحية. وإذا كان أحد أبناء رعيته في خطر الموت لا يفارقه، ما دام فيه رمق من الحياة، ولا ينقطع عن الصلاة ما دام بجانب المحتضر. وهو نفسه في مرضه الأخير يمكن أن

يقال، لأن العشرين يومًا الأخيرة من حياته كانت صلاة متصلة، ما انتهت إلا بلفظ أنفاسه. على أنّ ذلك أن كان دأبه في جميع أيام حياته. فإن مشى في الشوارع في المدن، أو ذهب إلى المائدة، أو إلى أي محل، كان في دير المخلص، كان مصليًا. وقبل وفاته التي تمّت نحو السادسة والنصف صباحًا، ففي الساعة الرابعة والنصف، إذ حضرتُ إليه، طلب إليّ أن أتلو صلاة السبحة. ولما وصلتُ إلى نصفها، رأيت انه لا يتابع الصلاة، وان أفكاره أصبحت في غير هذا العالم.

سناء عفته، كان يتجلى في تلك الطلعة، التي كانت تنعكس عليها أنوارُ قلبه الطَهُور، وكان ذلك السناء يتألق نورًا، حتى آخر نسمة من حياتهِ. وتظهر طهارته، في نظراته المطرقة بالأرض دائمًا، وفي حثّه النساء والفتيات أينما رآهن، على اللبس المحتشم ولاسيما في الكنائس. وأذكر له حادثًا، رواه لي أحد الشهود العيانيين يوم وقوعه في كاتدرائية دير القمر في سنة ١٩٢٣: وهو أن الأب بشارة، رأى إحدى الفتيات تتقدم إلى القربان الأقدس، وصدرها مكشوف، فمنع عنها المناولة، وطلب إليها بكل لطف ووداعة، أن تتوجه إلى بيتها تغيّر ثوبها وتستر صدرها، وتعود تتناول، فإذ كانت الفتاة متأكدة إخلاصه وصفاء نيته، عملت بمشورته، وعادت تناولت. وقد رأيته في كاتدرائيتي صيدا ودير القمر، يمرّ بجانب مقاعد النساء فمن رآها بثياب غير محتشمة، طلب إليها برقّة ولطف، أن تذهب إلى بيتها تغيّر ثوبها، أو حرّضها على أن تستر يديها أو صدرها. وطهارته كانت تجعل لتحريضاته تأثيرًا في النفوس، فتلين خاضعة له، ولهجة كلامه كانت تشفّ عن عفاف كامل، وغيرة وقّادة رسولية، عندما كان يتحدث عن تيار الفساد الطامي في هذه الأيام. وفي مرضه الأخير، ظهرت طهارته وحشمته في جميع حركاته وسكناته، ولاسيما

عندما كنت أغيّر له ثيابه، فكان يطلب بإلحاح أن يستر بسرعة كل عضو أوجبت الضرورة أن يُعرّى.

ويمكن أن يقال عن تواضعه، أن حياته جميعها كانت سلسلة أفعال تواضع. يثبت ذلك، هربُهُ من كل ما يُمكن أن يُظهره أمام الناس. فكان عندما تأتي الناس لتزوره، لسماعهم بأخبار فضائله، يختفي في إحدى زوايا الكنيسة، إلا أنه كان يُكْتَشف فيُسرع الزائرون يتباركون بلثم يديه، وأخذ قليل من الماء والزيت، اللذين يكون صلّى عليهما. وقد قال لي في ابتداء مرضه الأخير: "أرجو أن لا تعملوا حفلة أبدًا بعد موتي، ولا تستدعوا أحدًا من الخارج لحضورها. فالناس يظنوّن أني "ناس ملاح" (كذا)، ولكن ويل لي إذا قال الناس عني خيرًا، فأنا خاطئ ومن أكبر الخطأة".

أما إخضاع عقله لله وكمال تواضعه، فيظهر في طاعته الكاملة لأوامر الرؤساء. إذ لم يكن يبدو منه أدنى تذمر على الرؤساء، كيفما كانوا. ولّما كان يتشكى البعض من أحوال بعض الرؤساء، ويُوردون أمامه نقائصهم ومعايبهم، كان يجمّ صامتًا، أو ينصح بالإخلاد إلى الصبر وبالصلاة، لتصير الحال إلى أحسن. وعندما كان يراد منه قضاء أمر، كان يكفي أن يقال له: سيادة المطران أو الرئيس يأمر أو يرغب، حتى يَخضع بكل قواه العقلية. وفي مرضه الأخير، أمر له الطبيب بدواء كريه الطعم كل الكره، ورأى الأب بشارة أن لا فائدة تحصل له منه، فأظهر لي أن اتركه أولى، مع أنه كان يأخذه دون أدنى تكرّه. ولما عرف أن الطبيب أمر به، صار يأخذه بكل ارتياح، ولما أنساه يذكّرني به. وإذ كان يعلم أن أيامه أمست قليلة، وأن وقت انحلاله قريب، وسيادة الرئيس العام غائب عن الدير، تأسّف على انه سيموت دون أن يأخذ بركة رئيسه.

وفقره كان هكذا عظيمًا، حتى كان لا يحفظ لنفسه شيئًا من الدراهم، التي ترد إليه، بل يُرسلها الحين بعد الحين، إلى صندوق دير المخلص، كما تشهد بذلك دفاتر الدير. ولم يوجد عنده دائمًا سوى ثوب يلبسه، وآخر يرسله إلى الغسيل، لأنه كان شديد الحرص على النظافة حتى آخر ساعات حياته.

وما بلغ هذا الحد من الفضيلة، إلا لتحلّيه بفضيلة الفطنة، على أكمل نوع. فلمعرفته أنه هو وكل خليقة إنما هو لمجد الله، كان يَرضى بجميع المحن والمصائب، لهذه الغاية الفائقة. وكان يردّد هذه العبارة: "لمجدك يا إلهي"، في كل حركة من حركاته وكل وجع من أوجاعه في أيامه الأخيرة. ولهذه الغاية كان مخضعًا الجسم للروح والأهواء للعقل، يردد كثيرًا آية صاحب المزامير: قلبًا نقيًّا أُخلق فيّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي".

ولما كان العدل فضيلة، بها يؤدي الإنسان ما عليه من الحقوق لله وللقريب ولنفسه، كان الأب بشارة يقوم بواجباته الكهنوتية والرهبانية أكمل قيام. وفي مدّة أربع سنوات، قضيتها معه في صيدا ودير القمر، لم أسمع فمًا ينطق بكلمة مذمّة للأب بشارة. بل جميع الألسنة من الطوائف المسيحية وغير المسيحية كانت تثني على سامي قداسته، وتقواه، وحياته الفائقة الطبيعة، ليس فقط من سكان البلاد اللبنانية، بل من الافرنسيين، الذين كانوا يحضرون إلى صيدا أو دير القمر، فيتعرفون به ويشاهدون فضيلته الراسخة وحياته السامية، ويعودون مدهوشين من أعماله المبرورة.

أما نحو القريب، فقد كان لا يغفل عن أية مساعدة يستطيع أن يمدّه بها، متممًا نحوه جميع أعمال الرحمة، غير مُهمل عملاً تقضي بها الغيرةُ الرسولية والواجبُ الكهنوتي المقدس، مُخاطرًا بحياته أحيانًا، ليسعف أبناء رعيته في وادي دير القمر، ذاهبًا إليهم والبردُ قارص، والثلوجُ متراكمة،

والأنهار والسيول جارفة. أما نحو ذاته، فقد كان لا يُعطي الجسد إلا ما لا بدّ منه لحياته، وجانحًا بالنفس إلى الله ومحبته، مواظبًا على تزيينها بجميع الفضائل الرهبانية والكهنوتية.

أما فضيلة القوّة، فكانت تتجلى في ملازمته الكنيسة دائمًا، وعدم مفارقته حبيبه يسوع، المقيم في سر القربان الأقدس، إلاّ لكي يتفقّد المرضى كما سبق القول. وتظهر في نهوضه من النوم، في دير القمر وصيدا وفي دير المخلص، نحو الساعة الثانية صباحًا، ليتوجه إلى الكنيسة. وكان يعود إلى غرفته الساعة التاسعة مساءً، إلاّ أنه كان يقضي أكثر ساعات ليله في الصلاة، كما لاحظتُ ذلك بنفسي، إذ نِمْتُ في دير القمر في غرفةٍ تلاصق غرفته، ولها باب يدخل به إليها، وذلك في صيف سنة ١٩٢٠. ثم إن مواصلة حياة ذات فضيلة سامية، مزدانة بكل نوع من الفضائل، مدةً تنيف على خمسين سنة، لَدليلٌ على قوّة إرادةٍ وعزمٍ، لا مثيلَ لهما إلاّ في القديسين. هذا مع ظنه بنفسه أنه أول جميع البشر في الشر والخطيئة. وكان يردّد عليَّ في كل حديث روحي نتجاذبه: "أين نحن من فضائل انطونيوس وافتيميوس، وآباء البرية القديسين؟" مع انه لكثرة إماتاته، لم يبقَ في جسمه في آخر حياته أثرٌ للحم، بل كان العظمُ ظاهرًا من جميع جهات جسده، يَسترُه جلدٌ رقيق لطيف. وتتجلى فضيلة القوة فيه، في محافظته على هدوء وسلامة كاملين، لا يهزّه فرح، ولا يُغيظه حزنٌ، مع انه كان ذا مزاج عصبي يتأثر لكل ما يفرح أو يكدّر. وقد سألته يوم عيد انتقال السيدة سنة ١٩٢٣: "كم بقيتَ يا أبانا في كرسي الاعتراف؟ " أجابني: "إلى ما بعد نصف الليل". وكان قد ابتدأ نحو الساعة الخامسة مساءً.

أما إماتاته وتقشفاته، فأكثر من أن تُحصَى، في مأكله، وفي مسيره إلى القرى المجاورة دير القمر، وصيدا، وفي إسهاره الطويلة، مناجيًا اللهَ. وتكفي حياتُه لتكون أكبر دليل على أعظم الإماتات، وقد دامت هذه

الحالة اثنتين وثلاثين سنة في دير القمر، لا يعرف فيها مقرًّا غيرَ الكنيسة وبيوت المرضى، إلاّ إذا دعاه الواجب، للذهاب إلى إحدى القرى المجاورة، ليتفقّد المرضى، ويقوم بتوزيع الأسرار، وإقامة الذبيحة الإلهية. وكان يذهب إلى كل تلك القرى أكثر الأحيان صباحًا صائمًا، ليمكنَهُ تقديم الذبيحة المقدّسة، وماشيًا حافيًا عندما كان يظن أنه لا أحد يراه. وكان يعود إلى دير القمر أحيانًا قرب الظهر، وأحيانًا قرب العصر أو بعده، صائمًا أيضًا. وإذا قُدّم له طعام، قَبِلَهُ بعد الإلحاح، ووزّعه على الفقراء الذين يراهم في طريقه. كذلك كان شأنه في صيدا. فكان دائمًا في الكنيسة، أو في المستشفيات، أو عند المرضى في بيوتهم، أو يجول مفتّشًا عن الفقراء، ليساعدهم بقدر الإحسانات التي تأتيه لهذه الغاية. ومراتٍ كثيرة، كان يأتيني إلى المكتبة، يطلب إليّ أن أبدّل له بعض الليرات السورية أو أنصافها بقطع صغيرة، يوزّعها على الفقراء. وقد رأيتُه يجمع ما فضل عن المائدة من خبز وطعام، يذهب به إلى الفقراء، الذين كثيرًا ما كانوا يقصدونه، منتظرين إياه على أبواب دار الكنيسة أو في ساحتها. ولما كان يأتيه فقير في غير أوقات الظهر أو العشاء، كان يطلب إلى الطبّاخة ما يَقوت به ذلك المسكين.

وكان يمتنع عن أكل اللحوم كلَ مرة لا يأمرُه بذلك الرئيس، أو سيادة مطران الأبرشية. وقد أخبرني أحدُ الطباخين في ديرنا المخلصي، قبل وفاته ببضعة أيام، أن له أكثر من سنتين لا يَطبخ للأب بشارة سوى الشوربة. وهيهات إن كان يُكمل ما يُوضَع له في الصَّحفة. وكان يمزجه بقليل من الخبز، قديم الأيام قد لعب فيه العَفَن. ولما كان يرى أن الشورباء دسمة أو سخنة، كان يضع لها الماء البارد. وفي مرضه الأخير، كان يطلب إليّ أن أمزجها بماء فيشي، محتجًّا بأنها ربّما أضرته إذا كانت دسمة، ولكن الحقيقة هي ليمنع اللذّة الموجودة فيها.

ومن تقشفاته الشائعة في دير القمر، أنه كان يصوم في أسبوع الآلام من ظهر يوم الخميس إلى يوم أحد الفصح المجيد، بعد عودته من وادي الدير، طاويًا كل هذه المدة لا يدخل فمَه لا مأكلٌ ولا مشرب.

وكان قنوعًا، يكتفي بالضروري لحفظ حياته. لا يتطلب شيئًا لا من مأكل ولا من مشرب، ولا من ثيابٍ. وقد رأيتُه في بعضِ ظروف يُقتّر عليه في المأكلِ، فلا يُبدي أدنى تشكٍّ. وفي مرضه الأخير، إذ أحضرتُ له فوطتين، زيادةً على الموجودتين عنده لأنهما توسختا، قال لي: "يكفي اثنتان فقط" . وما اقتنع بلزومهما إلا بعد أن بيّنت له أن تينك أُرسِلَتا إلى الغسيل.

ولما كان التعبدُ للبتول والدة الإله ميزةَ المنتخبين للمجد، كان رجلُ الله الأب بشارة، مُخصصًا لها ذاته بجملتها، مشتركًا بثوبها الكرملي يتلو سبحتها الوردية بتمامها يوميًّا، كما أعلن لي ذلك بنفسه في مرضه الأخير، وكان يَستفزُ قلبَهُ فرحًا ذكرُ اسم مريم. وكلّ مرة نقرأ أمامه قانون المديح أو قانون البار كليسي، مدة مرضه الأخير، كان يكشف عن رأسه احترامًا لوالدة الإله، ويُردّد كثيرًا هذه الصلوات: "يا قلب مريم الحلو كن خلاصي" أو هذه: "يا أمَّا حبيبة صلي لأجلنا" أو:" يا خلاص المستغيثين بك خلصيني".

هذا ما وعَتْه الذاكرة من حياة رجل الله الأب بشارة أبي مراد. وهبَنَا الله أن يُرفَع فوقَ الهياكل، وأن يُكرم بلقب طوباوي وقديس، لتعتزّ به أمُنا الرهبانية، والكنيسة المقدسة جمعاء، ويتمجد اسم المخلص الإلهي.

في ١٥ آذار سنة ١٩٣٠

الأب انطون كيورك

ب.م

ونجعل ختام هذا الفصل، رسالة وردت إلينا من احد المعلّمين في مدرسة وادي الدير، التي أنشأها الأب بشارة كما تقدم القول عنها، والمذكور من خريجي مدرسة دير المخلص.

طلبتُم مني كتابة، ما أعلَمُهُ عن حياة الأب المرحوم الخوري بشارة أبي مراد. فعملاً برغبتكم، وحبًا بإظهار فضائل هذا الكاهن الجليل، وخدمة للتاريخ وللرهبانية المخلصية، المطّوقة جِيْدِي بقلائد فضلها أقول: بنى المرحوم الخوري بشارة كنيسة سيدة البشارة، في وادي بمحليه، قرب وادي دير القمر. وتاريخ بنائها معروفٍ عندكم. ولكي يتمم أعماله الخيرية، بنى بجانبها لجهة الشرق مدرسةً لتعليم أولاد القرية. وفي شهر أيار سنة ١٩٠٥، اتفقتُ معه على التعليم فيها، براتبٍ معين كان يدفعه لي كل شهر. وكان يأتي من دير القمر ماشيًا، كل أحد وعيد لإقامة القداس الإلهي. ويصرف ذلك النهار، متفقدًا أحوال الرعية في تلك القرية، بكل همّة ونشاط. وكان عمره حينئذٍ ستين سنة، كما قال لي لما سألته مرة. وكانت شدة تقواه وحرارة إيمانه، يساعدانه على احتمال الصعوبات، التي تعترض من كان بسنّه في طريقه. فكانت همّته لا تعرف الملل. وينزل إلى الوادي ماشيًا على الأقدام، باكرًا جدًا لا يُؤخره مطرُ ولا صعوبة. ويصرف النهار بعد القداس، زائرًا خصوصًا للمرضى والعجّز. ثم يرجع صاعدًا إلى مقرّه بدير القمر. ومراتٍ رافقتُه، وكان يمشي مثلي، وأنا بسن دون العشرين. وكان يُغالب البرد والحر على حد سواء، اندفاعًا وراء الواجب وخدمةِ النفوس.

وقد حكى لي كثيرون من أهل القرية، انه مرةً حملتْهُ مياه ساقية الباردة المعروفة، هناك لغزارتها بسبب تساقط المطر، إذ كان مُضطرًا أن يقطعها ليصل إلى الكنيسة، وقذفَتْه بضعة أمتار. ولولا العناية الإلهية،

وتمسكه ببعض الأغصان المتدلية في المياه من شجر الدلب، لكان هلَكَ غرقًا. ولم يكن يُثني عزمَهُ خوفٌ ولا تعب، عن القيام بواجباته الكهنوتية. وكان يُحبّ كثيرًا تزيين ونظافة الكنيسة، والايقونات المقدسة، والقناديل بنوع خصوصي. وكان يعمل أكثر هذه الأعمال بيده، أمامي وأمام غيري من أهل البلد، قبل أن يبتدئ القداس، إلى أن يجتمع الشعب لِبُعْدِ بيوت الكثيرين عن الكنيسة. وكان دائمًا يعتمد عليّ بمثل هذه الأشغال، لّما يكون بكرسي الاعتراف.

وكان يستعمل طريقة جميلة، يُحبّب فيها إلى المؤمنين الاعتراف، فكنتُ أرى كثيرين في كل أحد، يتقدمون لمنبر الاعتراف، وهي انّه إذ يجلس للاعتراف، يبقى منتظرًا الداخل إلى الكنيسة. فإذا كان رأى رجلاً آو امرأة، يُومي إليه برأسه، كي يأتي لعنده، وهو باشّ مبتسم، فيأتي الداخلُ مُسرعًا نحوه، حانيًا رأسه ليلثم يده. فيبدأ بسؤاله عن صحته وصحة العيلة، وعن شغله، وأجرة يومه وعن الموسم. وأسئلة كهذه تبسط المسؤول، وتجعله أسير لطفه وحنانه. وقد كنتُ أتقدّم إذا كان المسؤول من أصحابي، واسمع مثل هذه الأسئلة العذبة، إلى أن يقول له رَحِمَه الله: "صار لازم يا ابني تعترف". ثم بالحال يتمّم له سر الاعتراف. وقليلٌ من كان يجيبه، أنه صار لي قدر جمعتين اعترفت، فيقول له: "زيادة الخير خير يا ابني. وبهذا تقهر الشيطان، ولاشيءٍ يقهر الشيطان ويجعلك تغلبه، إلاّ الاعتراف والصلاة، تعال تعال". فحالاً يركع بإيمان، ويعترف، وأنا أرجع لشغلي.

وكان حنونًا جدًّا نحو الصغار تلامذة المدرسة. وكان دائمًا بعد القداس، يسألهم أسئلة بالتعليم المسيحي، ويوصيني غالبًا بالاجتهاد عليهم، وخصوصًا بالتعليم المسيحي. وكان مسرورًا من عملي، كما كان يظهر لي منه. ومثله كانت أهالي البلد. وإني دايمًا أذكر لهم فضلهم

ومعاملتهم الحسنة لي. ولَحَظَ، رحِمَهُ الله، محبةَ الجميع لي، فزادَهُ هذا سرورًا وثقة بي. فصار يُدلي إليّ بما يكنّه ضميره الصالح، وينويه من الأعمال. فمرّة قال لي: إن الأولاد يلعبون بدار الكنيسة بحرارة الشمس، وهذا مضرّ بصحتهم، والشعب أيضًا عند سقوط الأمطار ونهاية القداس يبقى بالكنيسة، فقصدي أن أعمل شاحط أو سقف قرميد، فوق الدار الشمالي، يكون بطول الكنيسة، ويتّصل بالشاحط الغربي الذي فوق دار النساء. فَيَقِي الجميع من الأمطار وحرارة الشمس. وفعلاً لم يمضِ أسبوعان، حتى قاوَلَ أحد النجارين بدير القمر، وتمّ ما افتكَرَ به وقاله لي. وكنتُ مع أولاد المدرسة نساعد النجار في صف القرميد. وكم كان عمله هذا مفيدًا ومسرًّا للأهالي. وقد كلّفه هذا مبلغًا كبيرًا يُحسب في ذلك الوقت. وكنت أعجب كيف استطاع عليه، مع انه لم يكلّف أحدًا من أهل القرية بدفع بارة. وهكذا قيل لي عن بناء الكنيسة وبناء القبة، ومشترى الجرس لها، وبناء المدرسة.

هذا قليل من كثير من أعماله. وإذ ذكرت ما سمعته من الكثيرين من أهالي القرية، عن نجاته من الغرق بساقية الباردة، بمساعدة العناية الإلهية، يجدر بي والحالة هذه، أن أصف حادثًا مُخطرًا، حدث له بحضوري، نجا منه بأعجوبة سماوية وعناية ربانية: وهو انه كما تقدّم القول، كان يُحبّ أن يشتغل بيده في تزيين الكنيسة ونظافتها. فمرّةً بحسب عادته، كان يضع زيتًا بالقناديل ويضوّيها. فلما دخلتُ إلى الكنيسة، تقدّمتُ لكي أساعده، فقال لي: خلصت، وإنما باقي بعد هذا القنديل. اذهبْ أنت دقّ الجرس. فذهبتُ وفعلت كما أمرني. ثم وقفتُ قليلاً، وأنا ماسك حبل الجرس انظر إليه يصعد على كرسي، لإنارة القنديل المشار إليه، الذي كان معلّقًا بحبلٍ رفيع أمام المائدة أو المذبح الكبير، مقابل صورة السيدة صاحبة الكنيسة. وكان القنديل ثابتًا في مكانه، لا ينزل ولا يرتفع أصلاً.

ويقتضي لمن يقصد إنارته ـ كما كنتُ أفعل ذلك ـ أن يضع كرسيًّا، على الدرجة التي يقف عليها الكاهن وقت قراءة الإنجيل المقدس، ويصعد فوقها لإنارة القنديل. وإذ أبصرتُ الأب بشارة يصعد على الدرجة وعلى الكرسي فوقها، وحاول أن يضع الطوّافة في القنديل متجهًا إلى المذبح، لأنه لشدّة احترامه لمذبح الرب لم يحبّ أن يجعله وراء ظهره، فوجد القنديل فوق رأسه تماما، فاضطّر أن يرجع قليلاً برجليه إلى الوراء، ليتمكن من وضع الطوافة في القنديل، وكان حَجَر الدرجة ضيقًا لا يسمح بحركة مثل هذه. فصارت رجلاه متطرفتين، وصارت رجلان من قوائم الكرسي متطرفتين، بل خَلَتَا من سند، فمالتْ الكرسي إلى الوراء، وهوى معها بكل جسمه، وكاد يسقط على البلاط من علو مقدار متر، سقطة لا يقوى جسمه الضعيف على احتمالها. وعندما أبصرتُ ارتجاج الكرسي وميلها، أسرعتُ إليه لأسنده، لئلا يسقط ويقع على ظهره. وكان بيني وبينه بضعة عشر خطوة. لكن مهما كانت المسافة قريبة ومهما أسرعتُ بركضي، فإن سقوطه كان أسرع وأقرب، لا محالة. ومع هذا أسرعتُ إليه ومددتُ كلتا يدي لمعونته، وكانت عيناي تحدّقان إليه، وما كانتا تنطبقان إلاّ حذرًا من أن أُبصره واقعًا، ساقطًا على البلاط، حتى أني كنتُ أتخيل أن يدي كانت تسنده، إذ سمعت صوته يقول: "يا عذراء".... فأبصرتُ الكرسي عادتْ واعتدلتْ قوائمها الأربع في مكانها فوق الدرجة، واعتدل الأب بشارة بجسمه فوقها كما كان قبلاً، ووجدت نفسي حينئذ بعيدًا عنه مقدار خطوتين، فوقفت مبهوتًا مذعورًا، جامدًا من هذا المنظر الرهيب، حتى قال لي: لا تَخَفْ يا ابني، العذراء خلَّصتْني، لا تخف... ونظرتُ وجهه قد صار أحمر كالدم، ولعلّ ذلك من آثار الرعب. وأيقنتُ حينئذ أن اليد التي سندته وحفظته من السقوط ليست هي يدي. بل هي يد الله وعنايته به. وبعد قليل التفت

إليّ، وتبسّم ابتسامته المعهودة، وقال لي: "قلت لك يا ابني، العذراء خلّصتني. لكن إيّاك أن تحكي هذا لأحد. ومليح ما كان أحد موجودًا غيرك، نشكر الله". فقلتُ له: لا أدعك منذ الآن وصاعدًا أن تضوّي هذا القنديل أبدًا. وقد حافظتُ على قولي كلّ مدّة إقامتي في الوادي. وقد حكيت هذا الحادث إلى البعض من الكهنة والعلمانيين، وأكتبه الآن لِيُحفظ في التاريخ مخلّدًا لأني أعتقد أن نجاته من هذه السقطة وعاقبتها، كانت بعناية عجيبة من الله تعالى، لحفظ حياة هذا الأب التقي الغيور، ليكمل أعماله المرضيّة لله وللناس. ولاسيما الفقراء والخطأة رحمه الله وأجزل ثوابه. وتفضّلوا بالختام، بقبول احترامي، مكررًا لثم يدكم وطلب دعاكم.

بطمه في ٢٩ أيار سنة ١٩٣٠.

ولدكم

بولس الخوري عازار

فهرس الكتاب

	صفحة
مقدمة الكتاب	أ
الفصل الأول: زحلة في منتصف القرن التاسع عشر	١
الفصل الثاني: في الأهل والأقارب	٦
الفصل الثالث: حريق زحلة سنة ١٨٦٠ والفرار منها	١٠
الفصل الرابع: في بيروت	١٢
الفصل الخامس: الفرج بعد الضيق	١٤
الفصل السادس: أيام الصبا في البيت والمدرسة	١٦
الفصل السابع: دعوة الله له إلى الرهبانية	١٩
الفصل الثامن: إجابة دعوة الله	٢١
الفصل التاسع: إلى دير المخلص	٢٤
الفصل العاشر: الابتداء الرهباني القانوني وديره	٢٩
الفصل الحادي عشر: الاتشاح بالثوب الرهباني	٣٢
الفصل الثاني عشر: أحوال الابتداء	٣٤
الفصل الثالث عشر: نجاح الأخ بشارة في الابتداء	٣٨
الفصل الرابع عشر: تلميذ المدرسة الرهبانية	٤٠
الفصل الخامس عشر: النذور الرهبانية	٤٤
الفصل السادس عشر: رسامته شماسًا وكاهنًا	٤٦
الفصل السابع عشر: الكاهن الصالح. اعتبارات	٥١
الفصل الثامن عشر: تذكاراتي الخاصة	٥٤

الفصل التاسع عشر: يومياته ٥٧
الفصل العشرون: اطراد لما سبق ٦١
الفصل الحادي والعشرون: أيام النزهة ٦٤
الفصل الثاني والعشرون: من دير المخلص إلى دير القمر ٦٦
الفصل الثالث والعشرون: وادي الدير ٦٩
الفصل الرابع والعشرون: بدء سيرته في الوادي ٧٠
الفصل الخامس والعشرون: العود أحمد ٧٤
الفصل السادس والعشرون: الذين عادوا إلى الكنيسة الكاثوليكية ٧٨
الفصل السابع والعشرون: شدة الحاجة إلى الكنيسة ٨١
الفصل الثامن والعشرون: قيام الكنيسة ٨٤
الفصل التاسع والعشرون: تمام الكنيسة ولوازمها ٨٩
الفصل الثلاثون: تذكارات ٩٢
الفصل الحادي والثلاثون: أعماله الكهنوتية في دير القمر وجوارها ٩٦
الفصل الثاني والثلاثون: الأب بشارة وأبو مراد الحاج ٩٩
الفصل الثالث والثلاثون: الأب بشارة والجمعيات الخيرية والأخويات التقوية ١٠٢
الفصل الرابع والثلاثون: الأب بشارة في أيام الحرب العامة ١٠٧
الفصل الخامس والثلاثون: انتقاله من دير القمر إلى صيدا ١١٠
الفصل السادس والثلاثون: أعماله الكهنوتية في صيدا ١١٤

الفصل السابع والثلاثون: العودة إلى دير المخلص ١١٩
الفصل الثامن والثلاثون: الإقامة في دير المخلص ١٢٢
الفصل التاسع والثلاثون: عودة المرض إليه ١٢٧
الفصل الأربعون: مرضه الأخير وموته ١٣٠
الفصل الحادي والأربعون: في مأتمه والاحتفال بجنازه ١٤٠
الفصل الثاني والأربعون: في فضائله السامية ١٤٤
الفصل الثالث والأربعون: في اطراد الكلام على فضائله السامية ١٤٩
الفصل الرابع والأربعون: في حوادث وأخبار شتّى عنه ١٥٧
الفصل الخامس والأربعون: في كرامته وعلو قدره عند الناس ١٦٢
الفصل السادس والأربعون: في كراماته عند الله ١٦٦
ملحق الكتاب ١٧٩
الفصل الأول: بعض مراسلاته ١٧٩
الفصل الثاني: رسائل السادة الأحبار بشأنه ١٨٨
الفصل الثالث: فيما كتبه عنه بعض أصحابه ورفاقه بعد وفاته ٢٠٩
الفهرس ٢٤٦